# المُجمل
# في تاريخ الأدب العربي



# المُجمل

# في تاريخ الأدب العربي


طه حسين | أحمد أمين
علي الجارم | أحمد ضيف
عبد العزيز البشري | أحمد الإسكندري



أعده للنشر

إبراهيم مكي الطنطاوي

# المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بحمد الله أفتتح الكلام، وأصلي وأسلم علىٰ المبعوث رحمة للأنام، والمنزل عليه القرآن بالبيان، صلاةً دائمةً ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان وبعد؛ فقد أرادت وزارة المعارف أن تعيد النظر في مناهج الأدب العربي للمدارس الثانوية آنذاك فعهدت إلىٰ مجموعة من خير من أنجبت مصر من الأدباء والمعنيِّين باللغة وعلومها وآدابها في ذلك الوقت، لكي يضعوا كتابًا يلائم المناهج الجديدة التي أقرَّتْها، فنهضت هذه المجموعة بهذا الأمر وقاموا به خير قيام، وما تركوه بين أيدينا الآن في هذا السفر الجليل الموسوم بـ «المجمل في تاريخ آداب العرب» يدل علىٰ جميل صنعهم، وعظيم فائدته، واللهَ أسألُ لهم المثوبة والغفران.

وقد توخَّوا في كتابهم الحرص علىٰ أن يحيط الطالب بما لا ينبغي أن يجهله، من تاريخ لغته وآدابها، وعمدوا إلىٰ السهولة في التعبير، والوضوح والتبسط في البيان، بحيث يستطيع أن يلم بما قصدوا إليه إلمامًا وبما يكفي لتثقيفه وتأديبه؛ لأن الإيجاز في هذا العلم غير ملاءم لمن لم تكن له في دراسة الأدب سابقة.

*** والكتاب بين يديك أقدمه لك في حُلَّة جديدة وثوب قَشيب بعد أن عُنِيتُ فيه بالآتي:**

- عمل ترجمة للجنة المؤلفة للكتاب.
- صدَّرت الكتاب بمدخل لمفهوم تاريخ الأدب العربي.
- ضبط نص الكتاب ومقابلته علىٰ النسخة الصادرة في سنة (١٩٣٠م) بحيث زادت في تعليقاتها وإيراد الأمثلة عن اللاحقة لها في سنة (١٩٣٥م)، وإن كان الاختلاف بينهما في نص الكتاب غير حواشيه وهوامشه يسيرًا غير مؤدٍّ إلىٰ خلل تجدر الإشارة إليه.
- أحلتُ القارئ إلىٰ بعض المصادر الأدبية كـ «المنتخب من أدب العرب»، و«الوسيط في الأدب العربي وتاريخه»، و«تاريخ الأدب العربي» للزيات، في بعض مواطن الكتاب لمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج نثرية أو شعرية، أو لمزيد تفصيل تحصل به الإفادة.
- تخريج الآيات القرآنية وضبطها بالرسم العثماني.
- تخريج الأحاديث النبوية وعزوها إلىٰ مصادرها الأولىٰ، وبيان حالها من حيث الصحة والضعف عند أهل الفن المختصين بذلك.
- تخريج الأبيات الشعرية ونسبتها إلىٰ قائليها.
- ترجمة الأعلام الوارد ذكرهم فيه.
- شرح غريب الكلمات.
- وضعتُ في نهاية تعليقات اللجنة المؤلفة [م] تمييزًا عن تعليقاتي حتىٰ لا يختلط الأمر علىٰ القارئ.
- عمل مقدمة وضَّحت فيها المنهج الذي سرت عليه في الكتاب.

**إبراهيم مكي الطنطاوي.**

# تراجم اللجنة المؤلفة

# (١) الدكتور طهَ حُسَيْنْ
## الحاصل على الدكتوراة في الأدب العربي
## والمجدد لمناهجه

*** اسمه:**

- طه بن حسين بن علي بن سلامة.

*** مولده ونشأته:**

- وُلِد في قرية (الكيلو) بمغاغة التابعة لمحافظة المنيا من أعمال الصعيد المصري سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م).
- أُصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكُفَّ بصره، بدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة (الدكتوراه) منها عام ١٩١٤م بكتاب «ذكرىٰ أبي العلاء». سافر في بعثة إلىٰ باريس فتخرج بالسوربون ١٩١٨م ثم عاد إلىٰ مصر.

*** من وظائفه التي تولاها:**

- محاضر في كلية الآداب بجامعة القاهرة.
- عميد كلية الآداب جامعة القاهرة.
- عضو المجمع العلمي العربيّ بدمشق.
- رئيس مجمع اللغة العربية بمصر.

- رئيس اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية.
- وزير المعارف.

*** مؤلفاته:**

- الأيام.
- أحاديث.
- آلهة اليونان.
- حديث الأربعاء (١/ ٣).
- دروس التاريخ القديم.
- رحلة الربيع والصيف.
- علىٰ هامش السيرة (١/ ٣).
- عثمان.
- علي وبنوه.
- في الأدب الجاهلي.
- في الشعر الجاهلي.
- «فسلفة ابن خلدون» وهو رسالة الدكتوراه بالفرنسية، في السوربون، ترجمها إلىٰ العربية محمد عبد الله عنان.
- قادة الفكر.
- مع أبي العلاء في سجنه.
- مع المتنبي (١/ ٢).
- مستقبل الثقافة في مصر (١/ ٢).

*** وكان قد شغف بالأدب اليوناني في صباه وترجم بعض آثاره ككتاب:**

- صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان.

- نظام الأثينيين لأرسطو.

*** وترجم كثير من كتبه إلىٰ عدة لغات وحاول البدء في عمل (دائرة معارف) عربية ولم ينجح.**

*** وفاته:**

- توفي في القاهرة سنة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)[١].

(١) انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٣١).

## (٢) أحمد الإسكندري

*** اسمه:**

- أحمد بن علي عمر الإسكندريّ، أو السكندري: أديب، من علماء مصر.

*** مولده وحياته:**

- ولد بالإسكندرية، سنة (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م) وتعلم بها ثم بالأزهر ودار العلوم في القاهرة. واحترف التعليم، فأفاد كثيرًا.

*** وظائفه التىٰ تولاها:**

- عضو المكتب الفنيّ بوزارة المعارف.
- عضو المجمع اللغوي، بمصر.

*** من مؤلفاته:**

- الأدب العربيّ.
- تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي.
- انتقاد كتاب تاريخ آداب اللغة العربية.
- انتقاد كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام.
- نزهة القارئ.

*** وفاته:**

- توفي بالقاهرة سنة (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)[1].

(١) انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٨٣) وما بعدها.

# (٣) أحمد أمين

*** اسمه ونسبه:**

- أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ: عالم بالأدب، غزير الاطلاع علىٰ التاريخ، من كبار الكتاب. اشتهر باسمه (أحمد أمين) وضاعت نسبته إلىٰ (الطباخ).

*** مولده ونشأته:**

- ولد أحمد أمين بالقاهرة سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م).
- قرأ مدة قصيرة في الأزهر. وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي. ومنحته جامعة القاهرة سنة (١٩٤٨م) لقب دكتور فخري. وهو من أكثر كُتَّاب مصر تصنيفًا وإفاضة.

*** وظائفه التي تولاها:**

- مدرس بمدرسة القضاء الشرعي حتىٰ سنة (١٩٢١م).
- قاضٍ ببعض المحاكم الشرعية.
- مدرس بكلية الآداب، وانتخب عميدًا لها سنة (١٩٣٩م).
- مدير الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية سنة (١٩٤٧م).
- عضو المجمع العلمي العربيّ بدمشق.
- عضو مجمع اللغة بالقاهرة.

- عضو المجمع العلمي العراقي ببغداد.
- أشرف علىٰ لجنة التأليف والترجمة والنشر مدة ثلاثين سنة.

*** كتاباته ومؤلفاته:**

- إلىٰ ولدي.
- حياتي.
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث.
- الصعلكة والفتوة في الإسلام.
- ضحىٰ الإسلام.
- ظهر الإسلام.
- فجر الإسلام.
- فيض الخاطر وهو عبارة عن مقالاته في مجلتي (الرسالة) و(الثقافة).
- قاموس العادات.
- مبادئ الفلسفة (مترجم).
- النقد الأدبي (١/ ٢).
- يوم الإسلام.

*** وفاته:**

- توفي بالقاهرة سنة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)[١].

---

(١) الأعلام للزركلي (١/ ١٠٠) وما بعدها.

# (٤) عليّ الجارِم
## أديب مصري - من رجال التعليم - له شعر ونظم كثير

*** اسمه ونسبه:**

- علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم.

*** مولده ونشأته:**

- ولد في رشيد، سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م)، وتعلم بالقاهرة وإنجلترا.

*** وظائفه التي تولاها:**

- كبير مفتشي اللغة العربية بمصر.
- وكيل دار العلوم حتىٰ سنة ١٩٤٢م.
- عضو المجمع اللغوي.
- مثَّل مصر في بعض المؤتمرات العلمية والثقافية.

*** مؤلفاته:**

- خاتمة المطاف. «المتنبي».
- ديوان الجارم (١/ ٤).
- الذين قتلهم أشعارهم.
- الشاعر الطموح. «المتنبي».

- شاعر ملك.
- غادة رشيد.
- فارس بني حمدان.
- قصة العرب في إسبانيا مترجم عن الإنكليزية.
- قصة ولَّادة مع ابن زيدون.
- مرح الوليد «في سيرة الوليد بن يزيد الأموي».
- هاتف من الأندلس.
- كما شارك في تأليف كتب أدبية منها «المجمل» و«المفصل».

*** وفاته:**

- توفي بالقاهرة، فجأة، وهو مصغ إلىٰ أحد أبنائه يلقي قصيدة له في حفلة تأبين لمحمود فهمي النقراشي سنة (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)[(١)].

(١) انظر: الأعلام (٤/ ٢٩٤).

# (٥) عبد العزيز البشري
# أديب مصري - من الكتاب المترسلين

*** اسمه ونسبه:**

- عبد العزيز بن سليم البشري.

*** مولده ونشأته:**

- ولد بالقاهرة سنة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م). تعلم بالأزهر، كان مرحًا طروبًا، حلو العشرة، شريف النفس. نظم الشعر في شبابه، ثم عدل عنه إلىٰ النثر. قال عالم بالأدب في جريدة البلاغ «استحدث البشري في أساليب العربية أسلوبًا فذًّا أضفىٰ عليه من روحه المرحة وعلمه الواسع وذوقه السليم ما تفرد به بين الكتّاب».

*** وظائفه التي تولاها:**

- ولي القضاء الشرعي في بعض الأقاليم المصرية.
- عُيِّن مراقبًا إداريًّا للمجمع اللغويّ إلىٰ أن توفي.

*** من مؤلفاته:**

- في المرآة. «جمع فيه مقالات كان ينشرها تحت هذا العنوان».
- المختار في الأدب (١/ ٢).
- قطوف (١/ ٢).

- التربية الوطنية.

*** وفاته:**

- توفي البشري في القاهرة سنة (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م)[١].

---

(١) انظر: الأعلام (٤/١٨).

## (٦) الدكتور أحمد ضَيْف
## أديب وباحث مصري

*** اسمه ونسبه:**

- أحمد بن علي بن إسماعيل ضيف، ويعرف بالدكتور أحمد ضيف.

*** مولده:**

- ولد في القاهرة سنة (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م).

*** وظائفه التي تولاها:**

- أستاذ في جامعة فؤاد الأول.

*** مؤلفاته:**

- مقدمة لدراسة بلاغة العرب.
- بلاغة العرب في الأندلس.

*** وفاته:**

- توفي في القاهرة سنة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)[١].

---

(١) انظر: الأعلام (١/ ١٨٣).

# مفهوم تاريخ الأدب العربي

إن تاريخ الأدب العربي مصطلح إضافي من ثلاث كلمات، لكل كلمة منهن معنىٰ علىٰ حِدَةٍ، وجميعهم يتعاون لإعطاء معنًىٰ لهذا المصطلح في النهايةِ، ولا بد من وقفة عند مفهوم هذه الكلمات منفرداتٍ عن بعضها البعض في اللغة والاصطلاح أولًا؛ للوصول لمعنىٰ اصطلاحي لتاريخ الأدب العربي.

## * أولًا- كلمة تاريخ:

بالرجوع إلىٰ معاجم اللغة نجد أن كلمة تاريخ يدور معناها حول التوقيت والتعريف والتحديد[1]، فكانوا يعرِّفون الشيء ويحددونه ويوقِّتونه بإسناده إلىٰ أمرٍ شائع ومشهور. كعام الفيل في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وتاريخ الإسكندر عند الرومان قديمًا، وميلاد المسيح عند النصارىٰ، وهجرة النبي محمد ﷺ عند المسلمين.

واصطلاحًا: تسجيل جملة الأحداث والأحوال التي يمرُّ بها كائن ما، ويصدق علىٰ الفرد أو المجتمع أو الظَّواهر الطَّبيعيّة ونحوها في نظام زمنيّ متتابع، وهو ما يعني إرجاع الأحداث إلىٰ أزمان وقوعها[2].

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٤)، ومختار الصحاح (١٦)، والقاموس المحيط (٢٤٨)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٨٢).

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٨٢).

### * ثانيًا- كلمة أدب:

كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بحياة الأمة العربية من البداوة إلىٰ الحضارة حتىٰ استقر معناها علىٰ المعنىٰ المرسوم في أذهاننا اليوم «الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلىٰ التأثير في عواطف القراء والسامعين سواء كان شعرًا أم نثرًا»، ففي بادئ الأمر كان أصلها يعود إلىٰ كلمة «مأدبة» بمعنىٰ الطعام الذي يدعىٰ إليه الناس[1]، ثم جاءت بمعنىٰ التهذيب الخُلقي في صدر الإسلام استنادًا إلىٰ قول النبي ﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[2] وفي عصر الأمويين أُطلقت علىٰ طائفة معلمي أولاد الخلفاء والأمراء، بينما في القرنين الثاني والثالث من هجرة النبي ﷺ قُصِد بها معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وفي زمان ابن خلدون لم يقتصر معناها علىٰ المعنىٰ السابق فحسب بل اتسع ليشمل جميع المعارف، والأخذ من كل علم بطرف[3] [4].

أما المعنىٰ الاصطلاحي له فعرفه الزيات قائلًا: «أدب اللغة ما أُثِر عن شعرائها وكُتَّابها من بدائع القول المشتمل علىٰ تصوُّر الأخيلة الدقيقة، وتصوير المعاني الرقيقة، مما يهذِّب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان».

وقد يُطلَق الأدب علىٰ جميع ما صُنِّف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكُتَّاب والشعراء[5].

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٢٠٦)، ومشارق الأنوار (١/ ٢٣)، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (١/ ٢١١)، والقاموس المحيط (١/ ٥٨)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٧٣).

(٢) ضعيف: قال ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرىٰ (٢ /٣٣٦): معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت، وأيده السخاوي والسيوطي فراجع كشف الخفاء (١/ ٧٠)، والسلسلة الضعيفة (١/ ١٧٣).

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦٣).

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (١-١٠).

(٥) انظر: تاريخ الأدب العربي للزيات (٣).

وكلمة «العربي» تخصيص وتحديد له عن تاريخ الأدب عند غير العرب.

وبعد الوقوف علىٰ معنىٰ هذه الكلمات في اللغة والاصطلاح كل واحدة منهن علىٰ حدة، ننتقل إلىٰ المعنىٰ المركب لمفهوم تاريخ الأدب العربي.

فتاريخ الأدب العربي هو: علم يبحث في أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنىٰ بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن، ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعضٍ بالفكرة والصناعة والأسلوب. ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو: وصف مسلسلٌ من الزمن لمّا دُوِّن في الكتب وسُجِّل في الصحف ونُقِش في الأحجار تعبيرًا عن عاطفة أو فكرة، أو تعليمًا لعلم أو فن، أو تخليدا لحادثة أو واقعة.

فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين، وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطَوْه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعًا أو تأخره[1].

---

(١) السابق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

**الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ومن والاه.**

**أما بعد؛** فقد أرادت وزارة المعارف أن تعيد النظر في مناهج الأدب العربي للمدارس الثانوية فعهدت إلينا في ذلك، وفي أن نضع كتبًا تلائم المناهج الجديدة، فنهضنا بهذا الأمر، ورفعنا إلىٰ الوزارة مناهج أقرتها، ونحن نقدم الآن هذا الكتاب شاملًا لمنهج السنة الثالثة، وقد توخينا فيه كما توخينا في المنهج الحرص علىٰ أن يحيط الطالب بما لا ينبغي أن يجهله الشاب المثقف، من تاريخ لغته وآدابها، وعمدنا إلىٰ السهولة في التعبير، والتبسط في البيان؛ لأننا رأينا أنَّ الإيجاز في هذا العلم لا يلائم عقل الشاب الذي لم تكن له في دراسة الأدب سابقة، علىٰ أنه كثيرًا ما يغرىٰ بالاستظهار، ويصرف عن التدبر والفهم، وإذا كان للتعليم في مصر آفة تفسده وتَحُول دون الانتفاع به؛ فإنَّما هي الاعتماد علىٰ الذاكرة، والانصراف عن النظر والتفكير، فإن رأىٰ المعلمون والطلاب في هذا الكتاب طولًا، فلا يروعنَّهم ذلك، فإنه من اليسر والوضوح بحيث يستطيع الطالب أن يُنْعِم النظر فيه[1]، فإذا هو ملم بما قصدنا إليه إلمامًا يكفي لتثقيفه وتأديبه. ومع أننا نعلم أن الحقائق الأدبية التي أثبتناها في هذا الكتاب لا تُدرَك حقَّ الإدراك إلا إذا عُزِّزت بشواهد كثيرة من الأدب العربي شعرًا ونثرًا قد اقتصدنا في إيراد هذه الشواهد اقتصادًا شديدًا؛ لأننا

---

(١) أطال الفكر فيه وتدبر. انظر: معجم متن اللغة (٥/ ٤٩٩)، والمصباح المنير (٢/ ٦١٣).

نرىٰ أن يوضع لها كتاب خاص يساير هذا الكتاب، وقد وضعناه ونرجو أن يكون بين أيدي الطلاب في وقت قريب.

وإذا وفقنا الله سبحانه فسيتلو هذا المؤلف (المجمل) كتاب (مفصل) من جزئين يلائم منهج السنتين الرابعة والخامسة، وآخر يجمع من متخيَّر القول ومصطفىٰ الكلام ما يمثل حياة الأدب العربي في مختلف العصور، ويطبع الملكات علىٰ صحيح البيان، ونحن نرجو أن يكون الله عزَّ شأنه قد وفقنا في هذا الكتاب، وأن يوفقنا فيما سيتلوه من الكتب إلىٰ أن نحبب الأدب العربي إلىٰ الشباب ونزينه في قلوبهم، فإنَّ رقي الأدب رهين بحب النَّاس له وإقبالهم عليه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# العصر الجاهلي

## الأمة العربية - موطنها - جنسها - لغتها - حياتها السياسية - والاجتماعية - والعقلية

# جزيرة العرب

في الجنوب الغربيِّ من آسيا إقليمٌ واسعُ الأرجاء، تبلغ مساحتُه ربعَ أوروبا تقريبًا، تساهل الأقدمون فسمَّوْه [جزيرة العرب] مع أنَّ الماء لم يُحِطْ به من جميع جهاته.

يتألف غربيُّ هذا الإقليم من جزئين شهيرين: الحجاز شمالًا، واليمن جنوبًا، أما الحجاز؛ فقطر فقير، قلَّتْ مياهُه، وأَجدبَتْ أرضه، واشتدَّت حرارته. يعتمد أهله علىٰ الأودية القليلة، والآبار الشحيحة، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيرًا بالماء الذي ينزل من السماء؛ لأنَّهم لم يبلغوا من الفنون مبلغًا يمكِّنُهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة إليه، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف.

وأمَّا اليمن؛ فقد اشتهر قديمًا بالغنىٰ والخصب والحضارة، كثُرَت أمطاره وسيوله، وعرف أهله بما أوتوا من فن، أن ينتفعوا بها، فأنشؤوا السدود يسيطرون بها علىٰ الماء جمعًا وتصريفًا، وأشهر مدنه صنعاء ونَجْران وعَدَن.

وهذان القطران -أعني: الحجاز واليمن- أبعد البلاد أثرًا في حياة العرب، وفي تاريخهم السياسي، والاقتصادي، والأدبي.

وإذا وقع نظرك علىٰ (مصوَّر) جزيرة العرب فأبْيَن ما ترىٰ فيها وأبعدُه؛ مدىٰ صحرائها في داخلها، وهي متنوعة في طبيعتها، فسهلة لينة حينًا، وصلبة

انتثرت فيها الحصباءُ[1] حينًا، ومفروشة بحجارة سوداء، تسمىٰ الحِرار حينًا، وهذه الصحراء في جملتها قَفْر، تسطع الشمس عليها في الحر، فتلفح أرضهَا وأهلها، ويعتمد ساكنوها علىٰ ما تُنْبِتُه بعضُ البقاع عقب المطر، فترعاه إبلُهم وشياهُهم، وهم يأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها.

(١) الحصىٰ وصغار الحجارة. انظر: مختار الصحاح (٧٤) المصباح المنير (١/ ١٣٨).

# نسب سكانها

اعتاد النَّسَّابون أن يقسموا الشعوب إلىٰ أجناس، ويسموا كلَّ جنس باسم خاصٍّ يجمعها؛ فاعتادوا أن يسمُّوا الجنسَ الذي منه العربُ الجنسَ الساميّ، نسبةً إلىٰ سام بن نوح عليه السلام، وعدُّوا من هذا الجنس البابليين والأشوريين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين والحبشيين، ولكنَّ هذا كلَّه لا يزال موضعَ خلافٍ بين علماء الأنساب، كما اختلفوا في أصل الجنس الساميّ نشأ في آسيا (في جزيرة العرب أو أرمينية أو علىٰ شاطئ الفرات) أو نشأ في أفريقيا، ثم نزح منها إلىٰ آسيا.

من قديم وهؤلاء العرب ينقسمون إلىٰ عرب الشمال (الحجازيين) وعرب الجنوب (اليمانيين)، ويذكر النسابون أنَّ عرب الشمال يرجعون في نسبهم إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويُسمَّوْن النزاريين نسبةً إلىٰ نَزار من نسل إسماعيل. وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويُسمَّوْن اليمانيين أو القحطانيين، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلىٰ أنَّ عربَ الحجاز تغلب عليهم عيشةُ البداوة، وعربَ اليمن يعيشون عيشةَ حضارة.

ولسنا نقصِد أنَّ عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها، بل نعني أن كلا من الحجازيين واليمانيين عنصرٌ يختلف في نسبه ودمه عن العنصر الآخر، ولكن كانت بين العنصرين صلات، ورحل قوم من كل فريق إلىٰ موطن الآخر لأسباب يطول

ذكرها، فكان في الحجاز عرب من اليمن، وكان في اليمن عرب من الحجاز.

## * وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلىٰ قبائل:

**فاليمانيون يتفرعون إلىٰ فرعين كبيرين:** شعب كهلان؛ وشعب حمِيرَ.

- **فشعب كهلان أشهر قبائله:** طَيئ، وهمدان، ولخم، وكندة.
- **وشعب حمير أشهر قبائله:** قُضاعة، وتَنُّوخ، وكَلْب.

**والحجازيون كذلك ينقسمون إلىٰ قسمين كبيرين:** ربيعة، ومُضَر.

- **فشعب ربيعة أشهر قبائله:** بكر، وتَغلب.
- **وشعب مضر أشهر قبائله:** قيس، وتميم، وهُذيل، وكِنانة، وقريش، وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلىٰ بطون وأفخاذ يطول عدُّها، وكان بين هذه القبائل -حتىٰ ما كان منها من أصل واحد، من الحروب والمنازعات والتهاجي- ما ملئت به كتب التاريخ والأدب.

# اللغة العربية

وإذ قد ذكرنا قبلُ أنَّ العرب، والعبرانيين، ومن إليهم يُعدُّون ساميِّين، فلغاتهم التي يتكلمون بها تسمىٰ لغات سامية، فاللغة العربية إحدىٰ اللغات السامية وقد عُرفت علىٰ النحو الذي نعلمه حول آخر القرن الخامس للميلاد.

ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات إلىٰ أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلىٰ اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية، نظرًا لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين إليها، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم[١].

وكما انقسم العرب إلىٰ حجازيين ويمانيين انقسمت لغتهم إلىٰ مُضَريَّة، وحِمْيريَّة وكانت هناك فروق بين اللغتين عظيمة في الألفاظ اللغوية، وفي الصيغ، وفي التراكيب، وفي اللهجات[٢]. ولكن حدث قُبَيْل الإسلام أنْ أَخذت لغةُ الحجاز -وبعبارة أدق: لغة قريش- تسود. وما زالت كذلك حتَّىٰ

(١) للوقوف علىٰ أصل اللغة ونشأتها وهل هي توقيفية أم تواضع واصطلاح؟ انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٤ ٣) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٤، ١٣).

(٢) طرق الاختلاف في اللهجات مرجعها إلىٰ هذه الأسباب: (الإبدال - أوجه الإعراب - أوجه البناء والبنية - التردد بين الإعراب والبناء - التصحيح والإعلال - الإتمام والنقص - الإدغام والفك - الترادف) انظرها بالتفصيل في الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٤).

ظفرت باللغة الحميرية، وحتىٰ صارت لغة قريش هي لغة جزيرة العرب جميعها، وقد دعا إلىٰ هذه الظاهرة أسبابٌ سياسية ودينية واقتصادية ستأتي الإشارة إليها بعد[1].

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٣).

# تاريخ الأمة العربية

ليس تاريخُ الأمة العربية قبل الإسلام معروفًا محققًا؛ لأنَّ أكثر الأمة كانوا أهلَ بدو، لم تمكنهم بداوتُهم من أن يدوِّنوا تاريخَهم أو ينقشوا حوادثهم، حتَّىٰ إن الذين تحضَّروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا علىٰ القليل من نقوشهم وآثارهم، وإنَّما يعتمد الذين يؤرخون العرب قبل الإسلام علىٰ هذا القليل من الآثار، وعلىٰ ما كتبه عنهم أهل عصرهم من الأمم الأخرىٰ كاليونان، والرومان، والمصريين، والعبريين، والحبشيين، وعلىٰ ما يستنبطون من بعض نصوص أدبية. ولنَقصِر الآن كلامنا علىٰ حالة العرب قبيل الإسلام، فإن اللغة العربية التي نُعنىٰ بأدابها وتاريخها، إنَّما عُرفت في هذا العصر.

هذا العصر سماه القرآن الكريم (الجاهلية) ونسبْنا إليه فقلنا العصر الجاهلي والأدب الجاهلي، وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد الحلم لِمَا كان يغلب فيه من السفه والفخر بالأنساب، والإمعان في سفك الدماء والعصبية الحادة، ونحو ذلك ممَّا كرهه الإسلام ونفَّر منه. وقد نُقِل إلينا كثيرٌ ممَّا يدل علىٰ حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأمثال وقصص، ولكنها كلها لم تدوَّن في الكتب إلا في القرن الثاني والثالث للهجرة، فكان بعضُها مَثارًا لنقد الناقدين. وأخذ العلماء والأدباء من قديم يمحصونها، ويصحِّحون بعضًا ويكذِّبون بعضًا، ولكن إلىٰ جانب ذلك ورد كثيرٌ

من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروي لنا الشيء الكثير عن هذه الحياة الجاهلية، ويكشف لنا من غموضها.

**يدلنا ما صحَّ من تاريخهم علىٰ أنه قد أنشىٰء علىٰ تُخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان:** إمارة الحيرة في العراق بجوار الفرس، وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الرومان، وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون في نظامهم نظام الدول المجاورة لهم؛ فإمارة الحيرة تتبع في كثير من شؤونها نظام الفرس، وإمارة الغساسنة تتبع في كثير من شؤونها نظام الرومان.

وكان سكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن في الجنوب يعيشون عيشة حضارة، يزرعون ويصنعون، وكثير من سادتهم مُتْرَفون: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥]، وقد رُوِي لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسنة في الشام، وعن حضارة الحيريين وما كان لهم من خَوَرْنق وسَدِير[١].

أما داخل الجزيرة والحجاز -إذا أنت استثنيت بعض سكان المدن المشهورة كمكة ويثرب والطائف- فكانوا أهل بدو يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة، ويعتمدون في معيشتهم علىٰ الإبل، ويوغلون بها في الصحراء يتطلبون منابت العُشب ومراعي الشجر وموارد الماء، ويأكلون ممَّا تخرجه الأنعام.

(١) قصران في نواحي العراق يُنسب بناؤهما إلىٰ الملك النعمان الأكبر بن امرئ القيس. انظر: المفصل فىٰ تاريخ العرب قبل الإسلام (٥/ ٢٠٠).

# حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل؛ فالقبيلة هي الوحدة التي يُبنىٰ عليها نظام حياتهم، وأفراد القبيلة ينتسبون إلىٰ أب واحد، وقلَّ أن ينتسبَ إليها من لم يساهمها في نسبها إلا عن طريق الحِلف أو الولاء[1].

تسود أفراد القبيلة فكرةُ العصبية؛ فكلٌّ فرد يتعصب لقبيلته ويُعنىٰ بحفظ نسبه ويفتخر به، ويحنو علىٰ من يشاركه فيه، ويسير علىٰ منهج قبيلته، أصابت أم أخطأت.

**وما أنا إلا من غَزِيَّة إن غَوَتْ — غَوَيْتُ وإن تَرْشَدْ غَزِيَّةُ أَرْشَدُ**[2]

والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنىٰ أحد عليه، ولكل قبيلة رئيس هو سيدها، وهو مرجع الأفراد في إقامة العدل بينهم علىٰ حسب عرفهم وتقاليدهم.

وعلاقة القبيلة بالقبيلة، علاقة عِداء، غالبا تُغير عليها وتغنَم من مالها ورجالها، والأخرىٰ تتربص بها الدوائر لتنتقم منها.

---

(١) كان الأسير من قبيلة أخرىٰ إذا لم يستطع فداء نفسه يَسِمُونه بِسِمَة القبيلة التي أسرته، ويسمىٰ حليفًا لها، وكانوا يجيزون استرقاق الأسرىٰ، فإذا أعتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتِق والمعتَق، وهذه الصلة تسمىٰ الولاء. [م].

(٢) البيت من الطويل وهو لدريد كما في ديوانه (٦١) والتذكرة الحمدونية (٩/ ١٩٩) والأصمعيات (١٠٧) ولابن عائشة في غريب الحديث لإبراهيم الحربي (١/ ٢٤٤).

يُغار علينا واترين فيُشتَفىٰ  بنا إن أُصِبنا أو نُغير علىٰ وتر[1]

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا  فما ينقضي إلا ونحن علىٰ شطر[2]

من هذا تعلم أن العرب في الجاهلية -عدا من ذكرنا قبلُ- لم تكن لهم حكومة تسيطر عليهم جميعًا وتشرف علىٰ شئونهم؛ لأنَّ شرطَ قيام الحكومة انتسابُ الأفراد إلىٰ المواطن لا إلىٰ القبائل، وانحلالُ العصبيات، وقيامُ الجامعة الوطنية أو الدينية مقامَ العصبية القبلية، وهي أمور لم تتوافر للعرب في جاهليتها.

كانت القبيلة تنقسم عندهم إلىٰ أسر، ونظام الأسرة كان في هذا الطَّوْر هو المعروف عند علماء الاجتماع: بطَوْر السُّلطة الأبوية؛ إذ كان الأبُ فيها واسعَ السلطان، نافذَ الكلمة علىٰ كل أفراد الأسرة، يتصرف في مالهم وفي شئونهم، ويقطع في الأمور دونهم، وهو المرجع الأعلىٰ لهم جميعًا، وكان بعض هذه الأسر يمتاز بصفات وأعمال تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم، وبيت أمية في قريش، وبيت زُرارة في تميم وهكذا.

(١) الواتر القاتل، والموتور الذي قُتل له قتيل فلم يأخذ بدمه، وواترين حال من الضمير في علينا [م].

(٢) البيتان من الطويل وهما لدريد انظر: ديوان الحماسة (١/ ٣٣٧) وشرحه للمرزوقي (١/ ٥٨٥) والتبريزي (١/ ٣٤١).

# أخلاقهم

رأيت أنَّ أكثر العرب أهل بدو، ولأهل البدو صفاتٌ خاصة يُمتدَحون بها، ويُكثِرون في شعرهم من ذكرها والتغني بها، ولعلَّ من خير ما يمثل هذه الصفات ما جاء في قول تَأَبَّطَ شرًّا(١) أحد الشعراء الجاهليين(٢) إذ يمدح ابن عمٍّ له بأنه قليلُ الشكوىٰ من الهمِّ ينزل به، بعيدُ الهمة واسعُ الأمل، يسلك له شتَّىٰ المسالك، حليفُ الصحراء، يصبح في مفازة ويمسي في أخرىٰ، يسير

---

(١) ثابت بن جابر بن سفيان بن عدي أبو زهير السهمي، من شعراء الجاهلية المعروف بتأبّط شرًّا المتوفىٰ في حدود سنة ٥٤٠م. انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ٨٠).

(٢)

| | |
|---|---|
| قليل التَّشكِّي للمهم يصيبُه | كثيرُ الهوىٰ شتَّىٰ النَّوىٰ والمسالِك |
| يظل بِمَوْمَاةٍ ويُمسِي بغيرها | جَحيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهورَ المهالِكِ |
| ويسبق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِي | بِمُنْخَرِقٍ من شدِّهِ المُتَدارِكِ |
| إذا حاص عينيه كرىٰ النوم لم يزل | له كالِئٌ من قلب شَيْحَانَ فَاتِكِ |
| ويجعل عينيه رَبِيئَةَ قلبه | إلىٰ سَلَّةٍ من حدّ أخلق صائك |
| إذا هزَّه في عَظْم قِرْنٍ تهلَّلَتْ | نواجِذُ أفواه المنايا الضواحكِ |
| يرىٰ الوحشةَ الأُنس الأنيس ويهتدي | بحيث اهتدت أمُّ النجومِ الشوابِكِ |

[م]. قلت والأبيات له كما في العقد الفريد (١/ ١٠٧).

الموماة المفازة التي لا ماء فيها، وجحيشًا: وحيدا، ويعروري ظهور المهالك: يركبها، مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس إذا ركبته عاريًا ليس عليه شيء، وَفْد الريح: أولها، والمعنىٰ: أنه يسبق الريح لخفته، والمنخرق: السريع، والمتدارك: المتلاحق، حاص: خاط، والشيحان: الحازم، والفاتك: الذي إذا همَّ بشيء فعله، ربيئة القلب: دَيْدَبانُه، ويريد بالسلة السيف الذي يستل، أم النجوم: الشمس [م].

وحيدًا لا يهاب، ويركب المهالك ولا يخشىٰ مواجهتها، عدّاء يسبق الريح السريعة، إن نام؛ فإنَّما تنام عينُه ولا ينام قلبُه، وإن صحا؛ كانت عينه دَيْدَبان قلبِه، وله سيف صارم، إن أصاب به قرنًا؛ استقبلته المنايا متهللة، لا يخشىٰ الوَحْدة بل يأنس بها، ويعرف مسالك الصحراء، فلا يضلُّ في سيره كما لا تضل الشمس، وهذه صفات كما ترىٰ هي المثل الأعلىٰ للبدويِّ لا للحضريِّ.

قد تمدَّحوا بالمروءة وأكثروا من ذكرها، وهو لفظ يجمع قانون الشرف، عماده الشجاعة والكرم والوفاء، وأكثر ما تتجلىٰ فيه الشجاعة عندهم؛ النزال والقتال، والدفاع عن الأهل والقبيلة، ونَجْدَة المستَصْرِخ، وأكثر ما يتجلىٰ فيه الكرم؛ إيقادُ النيران، ونحر الجَزور، وإضافة اللاجئ.

*** فأما الشجاعة فيمثلها في نظرهم قول عمرو بن مَعْدِ يكرب**[1]:

| | |
|---|---|
| لـمـا رأيـتُ نـسـاءنـا | يَـفْـحَـصْـنَ بـالـمَـعْـزَاء شـدًّا[2] |
| وبَـدَتْ (لـمـيـس) كـأنَّـهـا | بـدرُ الـسَّـمـاء إذا تـبـدَّىٰ |
| وبَـدَتْ مـحـاسِـنُـهـا الـتـي | تَـخْـفَـىٰ وكـان الأمـرُ جِـدًّا |
| نَـازَلْـتُ كَـبْـشَـهُـمُ ولـم | أرَ مِـن نِـزال الـكـبـش بُـدًّا[3] |
| هُـمْ يُـنْـذِرُون دمـي | وأُنْـذِرُ إن لَـقِـيـتُ بـأن أَشُـدًّا |
| كَـمْ مِـنْ أَخٍ لـي صـالـحٌ | بَـوَّأْتُـه بـيـدي لَـحْـدَا |
| مـا إن جَـزِعْـتُ ولا هَـلَـعْـتُ | ولا يَـرُدُّ بُـكـايَ زَنْـدَا |

---

(١) عمرو بن معد يكرب بن عبد الله الزبيدي المذحجي يكنىٰ أبا ثور، لُقِّب بفارس العرب، أسلم في حياة النبي ﷺ، وبعد وفاته ارتد عن الإسلام، ثم رجع إلىٰ الإسلام بعد ذلك وحسُن إسلامه، كانت وفاته في معركة نهاوند (٦٤٢م). انظر: منتخبات من أخبار اليمن لنشوان الحميري (٦٣، ٦٢) والبداية والنهاية لابن كثير (٤/٩٧، ٩٦).

(٢) المعزاء: الأرض الصلبة ذات الحجارة، ومعنىٰ يفحصن بالمعزاء شدا، أي: أنهن يؤثرن في الأرض الصلبة لشدة عدوهن[م].

(٣) كبش القبيلة رئيسها [م].

أَلْــبَـــسْــتُــــه أَثْــــوَابَـــه	وَخُـلِـقْـتُ يَـوْمَ خُـلِـقْـتُ جَـلْـدَا
أُغْـنِـــي غَــنَــاءَ الــذَّاهِـبِـيــن	أُعَــــدُّ لـــــلأعــــداء عَــــدَّا
ذهـــب الـــذيـــن أُحـــبُّـــهـــم	وبَـقـيـتُ مـثـلَ الـسَّـيْـف فَـرْدا[1]

* وأمَّا الكرم فمن خير ما يمثله في نظرهم قول عتبة بن بجير:

فـقـالـوا غَـريـبٌ طـارقٌ طـوحَـتْ بـه	متونُ الفيافي والخُطوبُ الطوائحُ[2]
فقمتُ ولـم أَجْثِمْ مكاني ولـم تَقُمْ	مع النفس عِلَّاتُ البخيلِ الفواضحُ
ونـاديَـتُ شِبـلا فـاسـتـجـاب ورُبَّـمـا	ضِمنًا قِرَىٰ عَشْرٍ لمن لا نُصافحُ[3]
فـقـام أبـو ضـيـفٍ كـريـمٌ كـأنَّـه	وقد جدَّ من فَرط الفُكاهة مازحُ[4]
إلىٰ جِـذْمِ مـالٍ قـد نَـهِـكْـنـا سَـوامـه	وأعـراضُـنـا فـيـه بـواقٍ صـحـائِـحُ[5]
جـعـلـنـاه دون الـذَّمِّ حـتَّـىٰ كـأنَّـه	إذا عُدَّ مالُ المكثرين المنائحُ[6]
لـنـا حـمدُ أربـابِ الـمـئـيـن ولا يُـرىٰ	إلىٰ بيتنا مالٌ مع الليل رائح[7] [8]

قد أحبوا كثيرًا، وشربوا الخمر، ولعبوا الميسر، وشغفوا بالصيد، وطربوا للغناء، وتاقوا إلىٰ السَّمَر، وكان هذا كلُّه مادةً لشعرهم وأدبهم.

---

(١) الأبيات له كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (١/ ١٣٢) والتبريزي (١/ ٥١) ولباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٢٠٣).

(٢) الخطوب الطوائح أي: المصائب المهلكة، وطوحت به: حملته علىٰ ركوب المهالك [م].

(٣) شبل: اسم ابنه وقرىٰ عشر أي ضيافة عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحته [م].

(٤) أبو ضيف: يريد نفسه [م].

(٥) إلىٰ جذم: متعلق بقام في البيت قبله، ويريد بجذم المال أصل المال وهو النوق التي قد نهكها [م].

(٦) المنائح جمع منيحة وهىٰ الناقة أو الشاة تدفع إلىٰ الجار؛ لينتفع بلبنها ما دام بها لبن [م].

(٧) يقول: إن ما لنا قليل فإبلنا باركة بفناء الدار؛ انتظارًا لضيف، وهىٰ ليست كثيرة حتَّىٰ تصير سارحة ورائحة، ومع ذلك؛ لنا من الحمد والثناء مثل ما للمكثرين أصحاب المئين [م].

(٨) الأبيات من الطويل وهي له كما في شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي (٣/ ٢٤٢) وحلية المحاضرة (١/ ١٤٢).

# دينهم

كان للعرب في الجاهلية دين؛ ولكنه دينٌ ضعيف، لا يُخلصون له ولا يصل إلىٰ أعماق نفوسهم، وحسبُنا دليلًا علىٰ ذلك؛ أنَّنا ننظر فيما بين أيدينا من شعرهم فنرىٰ فيه الصيد كثيرا، والخمر والنساء والميسر كثيرًا، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيرًا، ولكن قلَّ أن نرىٰ فيه شرحًا لعاطفة دينية، وقلَّ أن نرىٰ فيه ذكرَ الله وتمجيده، وقل أن نرىٰ فيه وصفًا لما كانوا يعبدون.

انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع جزيرة العرب؛ فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها يثرب وهي التي سميت بعدُ بالمدينة، وكانت اليهودية فيها آمنة مطمئنة، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية.

وانتشرت النصرانية في مَنَاذِرة الحيرة، وفي غساسنة الشام وسائر قبائله، وزاحمت اليهودية في اليمن، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة نَجْران، وكان القسيسون والرهبان يَرِدون أسواقَ العرب؛ يعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عَدِيٌّ بن زيد[1]

(١) عدي بن زيد بن حمّاد بن زيد العبادي التميمي، شاعر من دهاة الجاهليين، كان قرويًا من أهل الحيرة، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرىٰ، الذي جعله ترجمانًا بينه وبين العرب، فسكن المدائن ولما مات كسرىٰ وولي الحكم هرمز، أعلىٰ شأنه =

وقُسُّ بن ساعدة[1]، ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قِيسَتَا بالدِّين السائد في الجزيرة وهو الوثنية؛ فقد عبد العرب الأصنام، وعظَّموا الأوثان، ونصبوها في الكعبة، وقربوا لها القرابين، وكان من أشهر هذه الأصنام اللات والعزىٰ ومناة، وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب، وإن كان ثم أصنام أخرىٰ خاصة ببعض القبائل.

= ووجهه رسولًا إلىٰ ملك الروم طيباريوس الثاني في القسطنطينية، فزار بلاد الشام، ثم تزوج هندًا بنت النعمان، وَشَىٰ به أعداء له إلىٰ النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة (٣٦ق، هـ / ٥٨٧م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٦٨٧).

(١) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، كان أسقف نجران، ويقال: إنه أول عربي خطب متوكئًا علىٰ سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه (أما بعد)، وكان يفِد علىٰ قيصر الروم زائرا، فيكرمه ويعظمه، وهو معدود في المعمَّرين، طالت حياته وأدركه النبي ﷺ قبل النّبوَّة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك، فقال: يحشر أمة وحده كانت وفاته (٢٣ ق، هـ / ٦٠٠م) انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ١٩٦).

# ثقافتهم

كانت المدن علىٰ التخوم، واليمن متحضرة بعضَ تحضُّر؛ فالآثار التي عُثر عليها في اليمن والحيرة، وما نقل عن أهلها، يدل دلالةً صادقةً علىٰ إنَّهم كانوا علىٰ حظ من الفن والعلم غير قليل. فأهل الحيرة تسرب إليهم شيء من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم. والغساسنة في الشام تسرب إليهم شيء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم، واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان. ولها معهم جميعًا صلات -تجارية- أما ما عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلا.

وعلىٰ الجملة كان للعرب معرفة بالأنساب، ومعرفة بشيء من أخبار الأمم، ومعرفة بشيء من أخبار الأمم، ومعرفة بشيء من الطب، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يصل إلىٰ درجة يُسمَّىٰ معها علمًا؛ لأنَّه إنَّما يسمىٰ علمًا إذا نُظِّم ووُضِعت له القواعد العامة ودوّن في الكتب، وما كان عند العرب من ذلك لم يَعُد أن يكون معلومات عملية أولية، وتجارب ينقصها الاستقراء، ونظرات عامة يعوزها التعمق والاستقصاء.

أما من الناحية الأدبية؛ فكان لهم شعر وقصص وأمثال، وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التي أنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سترىٰ.

# الأدب الجاهلي

# معنى الأدب

يكون الكلام جيدًا إذا قرأته أو سمعته فأعجبك وأرضاك، وآنستَ من نفسك شغفًا به ورغبة، في أن تعيد قراءته أو تسمعه مرة أخرىٰ.

وإنما يعجبك الكلامُ ويرضيك؛ لأنَّه يلائم ذوقك، ويوافق طبعك، ويصوِّر لك الأشياء كما تجدها أنت حين تخلو إليها وتفكر فيها.

وملاءمة الكلام لذوقك، وموافقته لطبعك، قد تأتيان من المعاني التي يدل عليها هذا الكلام، وقد تأتيان من المعاني والألفاظ جميعًا.

تكون في المعاني قوة أو رقة فتعجبك لهذه القوة أو الرقة، وتكون الألفاظ فخمة جزلة، أو عذبة سهلة، فتعجبك لهذه الفخامة والجزالة، أو لهذه العذوبة والسهولة، وتجتمع هذه الصفات كلُّها أو بعضُها في ألفاظ الكلام ومعانيه فيعجبك الكلام كله، ويبعث في نفسك الرضا والاطمئنان، ومتىٰ كان الكلامُ جيدًا علىٰ هذا النحو، فهو الذي اعتاد القدماء والمُحْدَثون أن يجمعوه ويقيِّدوه في الذاكرة أو في الكتب، ويسمُّوه (أدبا).

# تقسيم الكلام إلى شعر ونثر

## * والأدب ينقسم قبل كل شيء إلىٰ قسمين:

**أحدهما**: كلام منظوم يعتمد في لفظه علىٰ الوزن[1] والقافية[2]، وفي معانيه علىٰ الخيال. **والعرب تسمي هذا النوع من الكلام**: «شعرًا».

**والثاني**: لا يعتمد في ألفاظه علىٰ وزن ولا قافية، وإنَّما هو مطلق حر لا يلتزم صاحبه قيدًا من هذه القيود التي تُلتَزَم في الشعر، ولا يعتمد في معانيه علىٰ الخيال وحده، وإنَّما أكثر اعتماده علىٰ التفكير الصحيح، والمنطق المستقيم. **والعرب تسمي هذا النوع من الكلام**: «نثرًا».

---

(١) الوزن: هو الإيقاع الحاصل من الناتجة عن كتابة البيت الشعري كتابة عروضية، أو هو الموسيقىٰ الداخلية المتولدة من الحركات والسَّكَنات في البيت الشعري. والوزن هو القياس الذي يعتمده الشعراء في تأليف أبياتهم ومقطوعاتهم وقصائدهم وهي ستة عشر وزنًا، وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي خمسة عشر منها ووضع الأخفش وزنًا واحدًا. انظر: المعجم المفصل في علم العروض والقافية والفنون والشعر (٤٥٨).

(٢) القافية: هي الحرف الأخير من البيت وقيل: هي الكلمة الأخيرة منه. انظر: التعريفات (١٧١). ووضع علم القافية لبيان ما يلتزم في أواخر أبيات القصيدة من لوازم؛ حتَّىٰ يكون لها نظام واحد فلا تضطرب موسيقاها ولا يفسد ترتيبها، انظر اللباب في العروض والقافية (١٢).

والناس إذا تحدَّث بعضُهم إلىٰ بعض في حاجاتهم ومصالحهم، لم ينظموا الكلامَ ولم يلتمسوا له القوافي، لكنهم يرسلونه إرسالًا علىٰ سجيِّتهم، وعلىٰ ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة؛ فهذا النحو من الكلام الذي نسميه (لغة التخاطب) ليس شعرًا. وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يُحفظ ويُروىٰ ويُتَأَدَّب به، والذىٰ هو أحدُ قِسمي الأدب، وإنَّما هو غالبا كلام عاديّ لم يقصِد أصحابُه فيه -غالبا- إلىٰ الإجادة ولا إلىٰ الجمال الفنيِّ، وإنَّما أرادوا تأدية ما في نفوسهم من المعاني، وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض[1].

---

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ أقسام الكلام عند العرب؛ انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢١).

## أسبقية الشعر

**فعندنا الآن نوعان من الأدب:** شعر، ونثر فنيّ.

والشعر أسبق قسمي الأدب إلىٰ الظهور؛ لأنَّه -كما قدمنا- يعتمد في معانيه علىٰ الخيال الحرّ، علىٰ حين يعتمد النثر الفني علىٰ المنطق والتفكير، والخيال يسبق التفكير في حياة الأفراد والجماعات؛ فالطفل يتخيل قبل أن يفكر، ونحن نجد عند الجماعات الساذجة التي لم تتحضر بعدُ كلامًا له وزنٌ وقافية دون أن نجدَ عندها نثرًا فنيًّا صحيحًا خليقًا بالجمع والتقييد. ولأنَّ الشعرَ متصل بالغِناء، فالنَّاسُ يُغنُّون شعرًا قبل أن يغنُّوا نثرًا؛ لأنَّهم يجدون في الشعر أوزانًا تلائم تقطيع الغناء وأنغامه. ومن هنا بدأت الآداب القديمة كلُّها بالشعر، ولم يظهر فيها النثر الفنيُّ إلا بعد أن أخذت الجماعات بحظٍّ قليل أو كثير من الحضارة والرقيِّ العقليِّ، وبعد أن ظهرت فيها الكتابة، واستطاع النَّاس أن يتخذوها أداةً للعلاقات فيما بينهم.

# تاريخ الشعر

والأمة العربية كغيرها من الأمم القديمة الراقية، لها أدبٌ ممتع فيه الشعر الرائع والنثر البديع، وهي كغيرها من الأمم القديمة الراقية، قد قالت الشعر وبرعت فيه قبل أن تقول النثر الفني وتجيد كتابته.

ولا سبيل إلىٰ أن نعرف متىٰ ظهر الشعر في الأمة العربية؛ لأننا نكاد نجهل كلَّ شيءٍ من تاريخ هذه الأمة العربية في عصورها الأولىٰ.

وقد كان القدماء من علماء العرب يجهلون أوليَّة الشعر العربي، وينكرون ما يرويه القُصَّاص من الشعر الذي يُنسب إلىٰ عادٍ وثمود وطَسْم وجَدِيس وغيرها من القبائل البائدة، وكانوا يُسلِّمون بأنَّ أكثرَ الشعر العربي قبل الإسلام، قد ضاع ولم يصل إليهم منه إلا الشيء القليل، وكانوا يظنُّون أنَّ ما صحَّ عندهم من شعر العرب في العصر الجاهلي، لا يمكن أن يؤرَّخ بأكثرَ من قرنٍ ونصفِ قرن قبل ظهور الإسلام. **والواقع**: أنَّ أكثر الشعراء الجاهليين الذين نعرف لهم شعرًا صحيحًا، قد أدركوا عصرَ النبيِّ ﷺ، ومنهم من مات قُبيل البعثة، ومنهم من مات بعدها بقليل دون أن يُسْلِم، وكثير منهم دخل في الإسلام وعُمِّر فيه عمرًا طويلًا أو قصيرًا.

**وربما كان من الحقِّ أن نقول**: إنَّ أكثر هؤلاء الشعراء عاشوا في القرن السادس للمسيح. ومعروف أنَّ النبيَّ ﷺ ولد في آخر الربع الثالث لهذا القرن.

والقدماء من علماء العرب لا يتفقون -كما قدمنا- علىٰ أولية الشعر[1]، كما أنَّهم يختلفون في الشاعر أو الشعراء الذين حملوا لواء هذه النهضة.

**فبعضهم يقول**: إنه امرؤ القيس بن حُجرٍ الكِندِي[2].

**وبعضهم يقول**: إنه مهلهِل بن ربيعة التغلبي[3].

**وآخرون يقولون**: إنه عمرو بن قمِيئة البكري[4].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٤٤)، وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٦).

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب علىٰ الإطلاق، اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلىٰ (دمّون) بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره، فأقام زهاء خمس سنين، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلىٰ أن ثار بنو أسد علىٰ أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيرًا وحمَّلني دمَه كبيرًا، لاصحو اليوم ولا سكر غدا! اليوم خمر وغدا أمر! ونهض من غده فلم يزل حتَّىٰ ثأر لأبيه من بني أسد. كان مولده (١٣٠ق، هـ/٤٩٧م) ووفاته (٨٠ق، هـ/ ٥٤٥م) انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ١١).

(٣) أبو ليلىٰ عدي بن ربيعة بن مرّة بن هبيرة من بني جشم من تغلب، من أبطال العرب في الجاهلية من أهل نجد، وهو خال امرئ القيس الشاعر، قيل: لقب مهلهلًا، لأنَّه أول من هلهل نسج الشعر، أي رققه، وكان من أصبح النَّاس وجهًا ومن أفصحهم لسانًا، عكف في صباه علىٰ اللهو والتشبيب بالنساء، فسمَّاه أخوه كليب (زير النساء) أي جليسهن، ولما قتل جساس بن مرة كليبًا، ثار المهلهل، فانقطع عن الشراب واللهو، وآلىٰ أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب، التي دامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة، وأمَّا شعره فعالي الطبقة. كانت وفاته (٩٤ق، هـ/ ٥٣١م). انظر: معجم الشعراء العرب (٨٤٧).

(٤) عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك الثعلبي البكري الوائلي النزاري، شاعر جاهلي مقدَّم، نشأ يتيمًا وأقام في الحيرة مدة وصحب حُجرًا أبا امرئ القيس الشاعر، وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلىٰ قيصر، فمات في الطريق فكان يقال له (الضائع) وهو المراد بقول امرئ القيس (بكىٰ صاحبي لما رأىٰ الدرب دونه)، إلىٰ آخر الأبيات. كان مولده (١٧٩ق، هـ/٤٤٨) ووفاته (٨٥ق، هـ/ ٥٤٠م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٨٢٠).

واختلافهم هذا فيه وجه من وجوه الاتفاق هو الذي يَحْسُن أن نحتفظ به، ونتخذه وسيلة لتعرُّف أول النهضة الشعرية عند العرب الشماليين، فهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سميناهم كانت مواطن قبائلهم في العراق ونجد، وفي العراق ونجد التقت في القرن الخامس والسادس للمسيح قبائل من عرب الشمال وأخرىٰ من أهل اليمن، واختلط أولئك وهؤلاء بالفرس؛ فليس غريبًا أن يكون هذا الاختلاطُ وما نشأ عنه من جهادٍ وخصومةٍ وتنافسٍ، مصدرَ نهضةٍ قويةٍ كان الشعرُ من أقوىٰ مظاهرها.

ومهما يكن من شيءٍ، فقد شاع من هذه الناحية وامتد حتَّىٰ شمل نجدًا والحجاز فكثر فيهما الشعراء، ولم تبق قبيلة من قبائل العرب النازلة في هذين الإقليمين ولا مدينة من المدن القائمة فيهما إلا ولها شاعر أو شعراء يذكرون مآثرها، ويتغنَّون بمفاخرها، ويناضلون عن حقوقها، ويذودون عنها حين تحتاج إلىٰ الدفاع.

# مسلك الشعر العربي

وقد سلك الشعر العربي منذ نهضته هذه سبيلًا خاصةً لم يسلكها غيره من الشعر الأجنبي القديم، فقد بدأ الشعر الأجنبي القديم دائمًا قصصيًّا يتناول حياة الآلهة والأبطال في قصائد طويلة، فيصفها وصفًا دقيقًا مفصلًا، ويصوِّر ما كان بين أولئك الآلهة والأبطال من حرب وسلم، ومن خوف وأمن، وكانت هذه القصائد الطّوال شعرًا اجتماعيًّا، بمعنىٰ أنَّها كانت مِرآةً لحياة الجماعات، لا يكاد يظهر فيها شخصُ الشاعر المنشئ لها، وكان أصحابها ورواتها ينتقلون بها في المدن ينشدونها أمام الجماعات في شيء من الغِناء، وعلىٰ نحوٍ من التوقيع.

حتىٰ إذا تطوّرت الحضارة، وتغيرت نظم الحياة، وظهرت شخصية الأفراد وقويت حقوقهم، أحسَّ الشعراء أنفسهم، وأنشؤوا شعرًا جديدًا يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم، وهذا الشعر هو الشعر الغنائي. كان الشعراء أول الأمر يتغنَّوْن به أمام الجماعات معتمدين فيه علىٰ التوقيع الموسيقي، وقد يعتمدون مع الموسيقىٰ علىٰ الرقص أيضًا، وهذا الشعر الغنائي هو الذي أنشأ المدح والهجاء، والرثاء والغزل والفخر وما إليها من هذه الفنون التي تصوِّر حياة الفرد تصويرًا قويًا.

ثم تطوَّرت عندهم الحضارة بعد ذلك، وخطا الإنسانُ خُطوةً أخرىٰ بعيدة في سبيل الحرية الفردية والاجتماعية، فنشأ نوعٌ من الشعر جديد يصف حياة

الجماعات كما هي، أو كما كانت، أو كما يجب أن تكون، وهذا الشعر يعتمد علىٰ الحوار والحركة والغناء معًا. كان يوضع في شكل قصة ملهية أو محزنة تُمَثَّل أمام النَّظَّارة في الملاعب وهو الشعر التمثيلي، هذه هي السبيل التي سلكها الشعر القديم عند اليونان والرومان، ثم سلكها شعر القرون الوسطىٰ في أوربا، ثم سلكها الشعر الحديث علىٰ شيء من التطور والاختلاف، وهذه السبل نفسُها سلكها الشعر الآري في الشرق كالهند، فقد نشأ قصصيًا ثم استحال غِنائيًا، ولكنه لم يصل إلىٰ التمثيل.

أما الشعر العربي -كما نعرفه- فقد سلك سبيلًا خاصة، فلسنا نعرف فيه شعرًا قصصيًا بالمعنىٰ الذي قدمناه، وإنَّما أول عهدنا بالشعر العربي الشعر الغنائي، أي هذا النوع الذي يصف حياة الفرد وعواطفه وميوله وأهواءه، والذىٰ إن وصف حياة الجماعات، فهو لا يهمل في هذا الوصف شخصية الشاعر ولا عواطفه وميوله، فالشاعر فيه مرآة للجماعة، في حين أنَّ الجماعة في الشعر القصصي مرآة للشاعر.

ولم يعرف الشعر العربي فنَّ التمثيل، وإنَّما ظلَّ غنائيًا إلىٰ الآن، وتطور في حدود النوع الغنائي لم يتجاوزها، وقد تناول الشعر العربي منذ العصر الجاهلي الفنون التي يتناولها الشعر الغنائي عادة؛ ففيه الفخر بالمآثر الفردية ومآثر القبيلة، وفيه المدح للأفراد النابهين وللقبائل، وفيه الرثاء وفيه الهجاء وفيه الغزل. ولكن حظوظ هذه الفنون من القوة والكثرة ليست متشابهة في هذا العصر، فمنها ما كان ضعيفًا قليلًا لم يَقْوَ ولم يكثُر إلا بعد الإسلام.

# الشعر العربي

والشعر العربي -في هذا العصر الجاهلي وغيره من العصور الأدبية العربية- قصير بالقياس إلىٰ غيره من الشعر الأجنبي، قِوامه القصيدة، وهي مقدارٌ من الأبيات يطول حتَّىٰ يبلغ المائة أو يتجاوزها بعض التجاوز، ويقصر حتَّىٰ لا يبلغ العشرة، وربما قصُر نَفَسُ الشاعر فلم يزد علىٰ سبعة أبيات، فسمىٰ شعره (مقطوعة) والقصيدة أو المقطوعة وَحْدة مستقلة تتناول موضوعًا بعينِه أو موضوعاتٍ يتصل بعضُها ببعض، **ولها مشخصات ثلاثة**:

**أولها**: المعنىٰ أو الموضوع، وهو الغرض الذي يحاول الشاعر السعي إليه وتصويره بما يقول من شعر: مدح في هذه القصيدة، وفخر في هذه، ورثاء في تلك، وهكذا.

**والثاني**: القافية؛ وهي حرف يلتزمه الشاعر في قصيدته أو مقطوعته، يختم به أبياته كلَّها لا يتجاوزه ولا يضع مكانه حرفًا آخر[1]، فَمُطَّولَةُ امرئ القيس لاميةٌ؛ لأنَّ صاحبها التزم اللام في آخر أبياتها جميعًا، ومطولة طَرَفة[2] داليَّة،

(١) أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهللُ بن ربيعة التَّغْلبي في قتل أخيه كليب؛ فهو أول من رويت له قصيدة قوامها ثلاثين بيتا وتبعه الشعراء مثل امرئ القيس وعلقمة بن عبيد: ممن أخرجوا لنا الشعر في صورته الحاضرة، الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٤٤).

(٢) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، أبو عمرو، البكري الوائلي، شاعر جاهلي من الطبقة الأولىٰ، كان هجاءًا غير فاحش القول، تفيض الحكمة علىٰ لسانه في أكثر شعره، اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلىٰ المكعبر عامله علىٰ البحرين وعُمان يأمره فيه بقتله، =

ومطولة زُهَيْر[1] ميمية، ومطولة عمرو بن كُلْثوم[2] نونية، وعلىٰ هذا النحو.

**والثالث:** الوزن؛ وهو نوع من النظام الموسيقي يتألف من أجزاء علىٰ نحوٍ خاص. والشاعر يلتزمه في القصيدة أو المقطوعة كما يلتزم القافية، بحيث متىٰ ابتدأ قصيدةً علىٰ نحو من الوزن لم يجُزْ أن يعدِل عنه إلىٰ نوع آخر حتَّىٰ يَفرُغ من قصيدته.

وقد عرف العرب في العصر الجاهلي أوزانًا مختلفة نظموا عليها الشعر، ووضع أدباؤهم بعد الإسلام لها أسماء تمايز بينها، منها الطويل والكامل والوافر والخفيف والرجز وغيرها، فمطولة امرئ القيس من الطويل، ومطولة عمرو بن كلثوم من الوافر، ومطولة الحارث بن حِلِّزَةَ[3] من الخفيف، ومطولة لَبِيد[4] من الكامل وعلىٰ هذا النحو.

---

= لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شابًا سنة (٦٠ق، هـ/ ٥٦٤م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٥٢٤).

(١) زهير بن أبي سلمىٰ ربيعة بن رباح المزني، من مُضَر، حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضّله علىٰ شعراء العرب كافة.
قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره: كان أبوه شاعرًا، وخاله شاعرًا، وأخته سلمىٰ شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة، قيل: كان ينظم القصيدة في شهر، وينقحها ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمّىٰ (الحوليات)، أشهر شعره معلقته التي مطلعها: (أمن أم أوفىٰ دمنة لم تكلم) ويقال: إن أبياته في آخرها تشبه كلام الأنبياء، كانت وفاته (١٣ق، هـ /٦٠٩م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٣٢٨).

(٢) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب، أبو الأسود، من بني تغلب، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولىٰ، كان من أعز النَّاس نفسًا، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتًىٰ وعمّر طويلًا وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند، أشهر شعره معلقته التي مطلعها: (ألا هبي بصحنك فاصبحينا) ويقال: إنَّها في نحو ألف بيت وإنَّما بقي منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب، مات في الجزيرة الفراتية (٣٩ق، هـ/ ٥٨٤م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٨٢١).

(٣) الحارث بن حِلِّزَة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي، شاعر جاهلي من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات، كان أبرص فخورًا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، جمع بها كثيرًا من أخبار العرب ووقائعهم حتَّىٰ صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلّزة، كانت وفاته (٥٤ق، هـ/ ٥٧٠م). انظر: معجم الشعراء العرب (٦٠٣).

(٤) لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من =

والشاعر العربي إذا أراد أن يقول الشعر في غرض من الأغراض لم يهجُم علىٰ غرضه منذ أول القصيدة عادة، وإنَّما يسعىٰ إليه في رفق وعلىٰ مَهَل، فيبدأ بذكرياته الخاصة فيتغنىٰ بها في أبيات تطول أو تقصُر، كأنَّه يريد أن يستجمع قواه، وأن ينبه السامعين ويُعِدِّهم لما سيقول، وأكثر ما يهتمُّ به الشاعر من ذلك ذكر صاحبته أو امرأته، وأطلال الدَّار التي كانت تسكنها، وقد يُعْنَىٰ بالدار وأطلالها أكثر ممَّا يعنىٰ بأهلها، حتَّىٰ إذا أرضىٰ حاجته من ذلك، ذكر نفسه وما تعود من سفر ورحلة، وربما ألهاه عن نفسه وصفُه للناقة التي يعتمد عليها في سفره، وللطريق التي يقطعها علىٰ هذه الناقة، ثم ينتقل من ذلك إلىٰ ما يريد فجاءة في أكثر الأحيان، وفي شيء من التخلُّص والحيلة أحيانًا، وهذا النحو من تكوين القصيدة أَلَّفه العرب الجاهليون؛ لأنَّه كان ملائمًا لحياتهم وبيئاتهم الخاصة، ثم أصبح دستورًا للشعراء بعد ظهور الإسلام يلتزمونه في أكثر الأحيان علىٰ أنَّه أصلٌ من أصول الفنِّ الشعريّ، وإن لم يكن بينه وبين حياتهم وبيئتهم صلة.

---

= أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام، ووفد علىٰ النبي ﷺ، يعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتًا واحدًا، وسكن الكوفة وعاش عمرًا طويلًا، كانت وفاته (٤١هـ/ ٦٦١م)، انظر معجم الشعراء العرب (١٩٢٧).

# أغراض الشعر

وأغراض الشعر العربي في العصر الجاهلي يسيرة ساذَجة، لا تعقيد فيها ولا تكلف؛ فالشعر كان في ذلك العصر مرآةً لحياة أصحابه، وحياةُ العرب في العصر الجاهلي لم تكن معقدةً تعقيدَ الحياة عند الأمم الممعنة في الحضارة؛ فكثيرٌ من هؤلاء العرب كانوا يعيشون عيشةً بدويةً خالصةً، وبعضهم كان يبلغ حظًّا من الحضارة، ولكنها حضارةٌ لم تخلُص بعدُ من شائبة البداوة، ومن هنا سُهلت أغراض الشعر العربي في هذا العصر، فكان الشعراء ينظمون الشعر ليصفوا ما يقع تحت حسهم من مظاهر الحياة الطبيعية في بلاد العرب، يصفون الصحراء وما فيها من حيوان، ويصفون إبلهم، ويصفون ما يرَوْن من نجوم السماء، ويصفون الخيل والسلاح والصيد وأدوات الحرب، وكانوا يقولون الشعر يصفون به ما يلقَوْن من شدة في حياتهم وفي جهادهم المتصل لكسب الأمن والحياة، وكانوا يقولون الشعر لمدح السادة والرؤساء ورثائهم، وهجاء خصومهم، والفخر بمآثر الأفراد والقبائل، وكانوا يقولون الشعر يصفون فيه النساء وما يُثِرْن في النفوس من لوعةٍ وهوىٰ، وما يُسبِغن عليها أحيانًا من نعمةٍ ورضا، ولم يَكادوا يتجاوزون هذه الأغراض.

وكانوا إذا عرضوا لها قصدوا إلىٰ تأديتها من طريق المعاني السهلة اليسيرة المألوفة في بيئاتهم، لا يتكلفون ولا يشقُّون علىٰ أنفسهم في التماس المعاني الدقيقة العويصة، كما أنَّهم كانوا يؤدون هذه المعاني بألفاظ متخيَّرة،

فيها جمال وروعة، وفيها متانة ورصانة، ولكنها غيرُ ممعِنة في الغرابة والوحشيّة، ولا سيَّما إذا لاحظنا أنَّ أولئك الشعراء إنَّما كانوا ينظمون الشعر لبيئاتهم وجماعاتهم، لا لبيئاتنا وجماعاتنا، فلا ينبغي أن نتخذ آذاننا مقياسًا لآذانهم، فإذا شقَّ علينا لفظٌ من ألفاظهم أو أنكرناه فليس معنىٰ ذلك أنَّ هذا اللفظَ قد كان شاقًّا منكَرًا في البيئة التي كان يعيش فيها الشاعر ويقول لها الشعر، علىٰ أنَّ كثيرًا ممَّا بقي لنا من الشعر العربي الجاهلي سهلٌ سائغ في متانةٍ وشدةِ أَسْر، نسمعه فلا نضيق به ولا ننفِر منه، وربما كان الشعر الجاهلي المسرف في الغرابة، والشعر الجاهلي المسرف في السهولة أبعدَ شيء عن الجاهليين، قد وُضِع عليهم في عصور متأخرة[1].

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ أغراض الشعر انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٤٦) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٨).

## أشهر شعراء الجاهلية

وقد اشتهر من الشعراء في العصر الجاهلي قومٌ كثيرون من قبائل مختلفة، وفي أقاليم متباينة، ولكنَّ القدماء من العرب -بعد الإسلام علىٰ الأقل- كانوا مجمعين علىٰ تفضيل أربعة من هؤلاء الشعراء يعدُّونهم زعماء الشعر وقادته، وأساتذة النابغين فيه، وهم: امرؤ القيس بن حُجر، وزياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني[1]، وزُهير بن أبي سُلمىٰ، وقيس بن ميمون المعروف بالأعشىٰ[2]، وكان القدماء يختلفون في تقديم بعض هؤلاء الشعراء علىٰ بعض، وكان لكلٍّ واحدٍ منهم أنصار من أهل البادية والحاضرة ومن

(١) النابِغَة الذُبياني: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولىٰ، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشىٰ وحسان والخنساء ممن يعرض شعره علىٰ النابغة، كان حظيًا عند النعمان بن المنذر، حتَّىٰ شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب منه النعمان، ففر النابغة ووفد علىٰ الغسانيين بالشام، وغاب زمنًا، ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه، شعره كثير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو، عاش عمرًا طويلًا، كانت وفاته (١٨ق، هـ/ ٦٠٥م). انظر: معجم الشعراء العرب (٨٥٣).

(٢) الأعشىٰ: ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشىٰ قيس، ويقال له أعشىٰ بكر بن وائل والأعشىٰ الكبير، من شعراء الطبقة الأولىٰ في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، كان غزير الشعر، يسلك فيه كلَّ مسلك، وليس أحدٌ ممن عرف قبله أكثر شعرًا منه، وكان يُغنّي بشعره فسمّي (صناجة العرب)، عاش عمرًا طويلًا وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشىٰ لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره، كانت وفاته (٧هـ/ ٦٢٨م). انظر: معجم الشعراء العرب (٥٤٤).

العلماء، يقدمونه ويرونه زعيم الشعر، وكانوا يقدمون بعد هؤلاء الشعراء جماعات أخرىٰ نذكر منها: طَرَفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وعنترة بن شداد العبسي[١]، والحارث بن حلزة اليشكري، وعبيد بن الأبرص[٢].

واختار القدماء بعد القرن الأول للهجرة عشر قصائد لهؤلاء الشعراء العشرة سَمَّوْها (المطولات) ثم سميت بعد ذلك بالمعلَّقات، والناس يُعْنَوْن بهذه القصائد العشر عناية خاصة، فيجمعونها ويفسرونها، ويُفردون لها الكتب، ويحفظونها، علىٰ أنَّ هناك شعراءَ آخرين ليسوا أقلَّ من هؤلاء العشرة حظًّا من الشعر ولهم نباهةُ شأنٍ فيه، وليس هنا مكان الوقوف عند شعراء العصر الجاهلي للدرس المفصَّل والتحليل الدقيق، وإنَّما الذي نقصِد إليه؛ إنَّما هو أن نعطي من الشعر في هذا العصر صورةً صحيحةً موجَزة بقدر الاستطاعة، تُتخذ نموذجًا لما كان شائعًا فيه من الشعر.

---

(١) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولىٰ، كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا، يوصف بالحلم علىٰ شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، كان مغرمًا بابنة عمه عبلة فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها، اجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلًا، وقتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي سنة (٢٢ق، هـ/ ٦٠١). انظر: معجم الشعراء العرب (١٨٢٦).

(٢) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، أبو زياد، من مضر، شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وهو أحد أصحاب المجمهرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات، عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمّر طويلًا حتّىٰ قتله النعمان بن المنذرسنة (٢٥ق، هـ/٥٩٨م) وقد وفد عليه في يوم بؤسه. انظر: معجم الشعراء العرب (١٦٧٧).

## نموذج من الشعر الجاهلي[1]

*** ولنختر ثلاث قصائد لثلاثة من هؤلاء العشرة وهي قصيدة لبيد التي مطلعها:**

عفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها بِمنًىٰ تأبَّد غَولُها فرِجامُها[2]

*** وقصيدة طرفة التي أولها:**

لخولةَ أطلالٌ بِبُرقةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كباقي الوشم في ظاهِرِ اليد[3]

---

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من الشعر الجاهلي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٦٣، ٢٥) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٥٢) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٢).

(٢) انظر: ديوان لبيد (١٠٧) والمنتخب من أدب العرب (٢٧٩، ٢٩) ط، عالم الأدب، وقوله: (عفت): أي درست واندثرت، (المحل): مكان الحلول، و(المقام): حيث طال المكوث، (منىٰ): جبل أحمر عظيم يشرف علىٰ ما حوله من الجبال وهو قريب من طخفة في بلاد كلاب، و(تأبد): توحَّش، و(الغول): اسم موضع، و(الرجام): جبل مستطيل بناحية طخفة وفي أصله ماء عذب تشرب منه بنو جعفر قوم لبيد.

(٣) انظر: ديوان طرفة (٩) والمنتخب من أدب العرب (٢٩١، ٣٩) ط، عالم الأدب، وقوله (خولة): اسم امرأة كلبية، (الطلل): ما شخص من رسوم الدار، (البرقة والأبرق والبرقاء): مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصىٰ، (ثهمد): موضع، تلوح: تلمع، (الوشم): غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (٨٩).

* **وقصيدة زُهير التي أولها:**

**أَمِـن أُمِّ أَوْفَـىٰ دِمـنـةٌ لـم تـكـلَّـمِ بِحَـوْمَـانَـةِ الـدَّرَّاجِ فـالـمـتـثـلَّـمِ**[1]

## ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لا نعرف إلا القليل من حياة هؤلاء الشعراء الثلاثة:

* **فأما لبيد بن ربيعة:**

- فكان عامريًا، من قبيلة قيس، عاش دهرًا في العصر الجاهلي، وكانت عيشتُه عيشةَ الشعراء الفُرسان الأغنياء، وقال كلُّ شعره أو أكثره في هذا العصر، ثم أدرك الإسلام ودخل فيه، وشُغِل بحفظ القرآن وتلاوته عن الشعر، وعاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة رجلٍ وادعٍ كريم، يبذل ما ملك ليُعين الضعفاء ويُطعم الجائعين، حتَّىٰ كان بعضُ أمراء الكوفة يطلب إلىٰ المسلمين أن يعينوه علىٰ مروءته، ويقال إنه عُمِّر في الإسلام نحو نصف قرن.

* **وأمَّا طرفة بن العبد:**

- فكان بكريًا من ربيعة، لا نكاد نقطع من أمره إلا بأنه مات شابًا، كانوا يسمونه ابن العشرين، وكانوا يختلفون بعد ذلك في تحقيق سنه حينما قتل، وكانوا يرون أنه نادم النعمان بن المنذر مع خاله المُتَلَمِّس الشاعر، ثم ساءت الصلة بين الملك والشاعرين لأسباب يختلف فيها الرواة، فدفع الملك إلىٰ كل منهما كتابًا إلىٰ أحد عُمَّاله، وخَيَّل إليهما أنه يأمر عامله في كتابه هذا بأن يعطي

---

(١) انظر ديوان زهير بن أبي سلمة (٤) والمنتخب من أدب العرب (٢٦٨) ط، عالم الأدب. وقوله (أم أوفىٰ): زوجة زهير الأولىٰ وهي غير أم كعب وبجير، و(الدمنة): ما اسودّ من آثار الديار بالرماد وغير ذلك، و(الحومانة): الأرض الغليظة، و(الدراج) و(المتثلم): موضعان بالعالية. انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (٢٣٨، ٢٣٧).

كلا منهما جائزة، فانصرف الشاعران حتَّىٰ إذا كانا في طريقهما شكَّ المتلمس في كتابه، فأقرأه غلامًا من أهل الحيرة، فإذا فيه أمرٌ بقتل الشاعر فألقىٰ كتابه في النهر، وهرب إلىٰ الشام، وأنفق حياته في هجاء النعمان والتأليب عليه، وأبىٰ طرفة أن يُقْرِئ كتابه أو أن يشك فيه، ومضىٰ حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ عامل النعمان فقتله، ومهما يكن من أمر هذه القصة، فقد مات طرفة شابًّا، وبقي لنا من شعره شيءٌ قليل ولكنه علىٰ قلته قيِّم ممتع، يمثِّل نفسًا قوية أبيَّة، كانت علىٰ حداثتها تنظر إلىٰ الحياة، وتحكم عليها حكم المجربين.

*** وأمَّا زُهير بن أبي سلمىٰ المُزَني:**

- فقَيْسيٌّ مُضَري، اشتهر بمدحه الجيد الكثير لرجل يقال له هَرِم بن سِنان، كان سيدًا غنيًا توسَّط مع صاحب له يقال له الحارث بن عوف في الإصلاح بين قبيلتَيْ عبس وذُبْيان، فعصماهما من الحرب وآلامها، واحتملا الديات عمن وقع بينهما من القتلىٰ، فأدياها من مالهما الخاص فمدحهما بذلك زهير، وانقطع لهَرِم فوقف عليه كثرة شعره، وكان زهير رجلًا حكيمًا طيِّب النفس، مؤثرًا للخير، محبًا للسلم داعيًا إليه، مات بعد أن أدرك عصر النبي ﷺ، وترك ابنين أسلما وحسُن بلاؤهما في الإسلام، وكان لهما فيه شعر كثير.

# تحليل لثلاث قصائد

في شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة أصدق صورة يمكن أن يعطيها الشعر القديم لحياة العرب في آخر العصر الجاهلي، ولما كانت تضطرب به هذه الحياة من أمل أو يأس، ومن رجاء أو قنوط، ومن اطمئنان وإذعان أو طموح إلىٰ مثل أعلىٰ بعيد المنال.

*** تحليل قصيدة لبيد:**

فأما قصيدة لبيد؛ فمتينة اللفظ والأسلوب، فيها ضخامة وصلابة حتَّىٰ في أبياتها السهلة اليسيرة، وهي تمثل الحياة البدوية العادية وما يطمح إليها الرجل الكريم النبيل من مجد وسُؤْدُد وبعد صيت، بدأها لبيد بذكر الديار وخلوِّها من أصحابها، وتعرُّضها للرياح والأمطار تعبَث بها وتمحو معالمها فلا تُبقي منها إلا الشيء القليل. وانتقل من الديار إلىٰ صاحبته فألَمَّ بذكرها إلمام اليائس من لقائها فقال:

**مُـرِّيَّـةٌ حـلَّـتْ بِـفَـيْـدَ وجـاورت أهل الحجازِ فأين مِنك مَرامُها**[1]

---

(١) انظر: ديوانه (١٠٩) وقوله: (مرية): منسوبة إلىٰ بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض، و(فيد): بلد معروفة، و(مرامها): مطلبها، و(الحجاز): ما بين تثليث إلىٰ جبلي طيئ، و(المرام): مرتفع بمن. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١/١٧٨) وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (١/٥٣٣).

ولم يطل الحديث عنها لأنَّه صاحبُ جِدٍّ وحزم ولا يضيع وقته وجهده فيما لا سبيل إليه، فهو يتركها إلىٰ ناقته التي يعتمد عليها حين يريد أن يسلي الهموم عن نفسه بالأسفار البعيدة الشقة فيقول:

**بِطَليح أسفارٍ تَركْنَ بَقِيَّةً   مِنها فأحْنَقَ صُلْبُها وسَنَامُها**[1]

ثم يأخذ في وصف هذه الناقة وصفًا دقيقًا، يصف خَلْقَها وهيئتها، ولكنه يُعنىٰ بسرعتها عناية خاصة، وتُلهمه هذه العناية تشبيهاتٍ ثلاثة خصبة ممتعة، فيشبِّه ناقته بالسحابة الخفيفة تندفع بها الريح في سرعة قوية، ويشبِّه ناقته بالأتان الوحشية المرِحة النشيطة الجادة في العدو يطاردها قرينها، ويشبه ناقته بالظبية الرؤوم راعها الصائد وكلابه فَجَدَّت في العدْو، ثم لم تجِد بُدًّا من أن تَثبُت للكلاب فجاهدتها وأبلت في جهادها بلاءً حسنًا، وهو يتخذ هذه التشبيهات وسيلة إلىٰ أن يفصل من أمر حُمُر الوحش والظباء الشيء الكثير، حتَّىٰ إذا فرغ من هذه التشبيهات عاد إلىٰ نفسه فوصفها بالإباء والشمم فقال:

**تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرْضَها   أو يرتبط بعضَ النفوس حِمامُها**[2]

وأعطانا صورًا من حياته الهادئة والمضطربة. فأما إذا هدأت حياته واطمأنت بها السلم فهو صاحب لهو وعبث، يشرب الخمر ويغالي في ثمنها، ويسمع للغناء ويلذ لسماعه، وهو كريم جواد يطعم الجائعين، ويؤوي البائسين، ويحمي أهل الفاقة من شدة الزمان وعسف[3] الخطوب[4]، وهو

(١) انظر: ديوانه (١٠٩) وقوله: (بطليح أسفار) معناه بناقة كالة معيية؛ فيقال للبعير المعيي الكال: طليح وطلح، و(الأسفار): جمع سفر، وقوله (تركن بقية) معناه لم تأكل الأسفار لحمها أجمع، أي لها كدنة وبقاء علىٰ طول السفر، و(أحنق): ضمر، وقال أبو جعفر: معنىٰ البيت: فاقطع لبانته بناقة معتادة للسفر قد طلحها مرة بعد أخرىٰ، وقد هانت عليها الأسفار. انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (١/ ٥٣٣).

(٢) انظر: ديوانه (١١٣).

(٣) العَسْفُ: السّيُر علىٰ غير هُدىٰ، وركوب الأمر من غير تدبير، وركوب مفازة بغير قصد، ومنه التعسف: أي التكلف. انظر: معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١/ ٣٣٩).

(٤) جمع خطب وهو: الأمر أو الشأن. انظر: لسان العرب (١/ ٣٦٠) وتاج العروس (٢/ ٣٧٠).

مقامر مسرف في المقامرة. ولكنه لا يبتغي بمقامرته إلا التنفيس علىٰ الفقراء والمعوزين، فهو يقامر ليشبعوا من جوع ويهدؤوا بعد اضطراب وجزع، وهو علىٰ هذا كله شديد المِرَّة عظيم البأس، إن دهمته الحرب أسرع إليها شجاعًا باسلًا مخاطرًا، وهو ينتهز هذه الفرصة ليصف فرسه فيحسن الوصف في إيجاز واقتصاد، حتَّىٰ إذا قضىٰ حاجته من الفخر بنفسه فىٰ الحرب والسلم فخر بعشيرته، فوصف قومه بالنجدة والبأس والعزة والكرامة، وبالجود والسخاء وبالأمانة والوفاء.

**مِن معشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤُهم ... ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها**[1]

وعلىٰ هذا النحو من الحياة التي يصورها لبيد كانت حياة الأفراد والجماعات في البادية آخر هذا العصر، ولستَ تجد في قصيدة لبيد هذه غُلُوًّا ولا إسرافًا ولا كذبًا، وإنَّما هو شاعر قوي يستمد قوته من صدقه وإخلاصه وشدة إيمانه بجمال هذه المُثُل الخلقية التي يسمو إليها.

## * تحليل قصيدة طرفة:

وقصيدة طرفة تشبه قصيدة لبيد في تأليفها وفي متانة ألفاظها، وإن كانت تُكثر من الغريب في بعض المواضع، وتَسهُل جدًّا في مواضعَ أخرىٰ، ولكنَّ بين الرجلين فرقًا ظاهرًا لا شك في أنه كان يميز جماعة من العرب المثقَّفين ويرفعهم عن عامة الناس، وسندلك علىٰ هذا الفرق بعد قليل. فلننظر كيف تتألف القصيدة وعلام تشتمل. أما أولها؛ فمشبِه لأول قصيدة لبيد، فالشاعر يذكر الديار كما ذكرها صاحبه، ولكنه لا يطيل الكلام في الديار ووصفها المادي، وإنَّما يشبه أطلالها بما بقي من الوشم في ظاهر اليد.

(١) انظر ديوانه (١١٦) ومراده هنا: أنه من قوم سَنّت لهم أسلافهم كسب رغائب المعالي واغتنامها، ثم قال: ولكل قوم سنّة وإمام سنّة يؤتم به فيها، انظر شرح المعلقات السبع للزوزني (٢٠٠).

لـخـولـة أطـلال بِـبُـرقَـةِ ثَـهـمَـدِ  تلوح كباقِي الوشم في ظاهِرِ اليدِ[1]

*** ثم يفرغ لنفسه وما تجد من حزن وأسىٰ لفراق من تحب:**

وُقُوفًا بِها صَحْبِي على مَطِيَّهم  يقولون لا تهلك أسًىٰ وتجلدِ[2]

*** ثم يصف صاحبته وصفًا موجزًا جميلًا وينتقل فجاءة إلىٰ ناقته التي يسلي بها الهم إذا حضره:**

وإني لأمْضِي الهمَّ عِند احتِضارِهِ  بِعوجاءَ مِرقالٍ تروح وتغتدِى[3]

*** ثم يصفها ويطيل في وصفها متناولًا أعضاءها عضوا عضوا، ثم هيئتها ساكنة وسائرة في بطء أو إسراع.**

وهو في هذا الوصف يُؤْثِر الألفاظ الغريبة والمعاني الغامضة أكثر من لبيد، حتَّىٰ إنك لتسأل نفسك وأنت تقرأ هذا الوصف: أليس من الممكن أن يكون صاحبه تعمد الإغراب؟ ويفرغ الشاعر لنفسه كما فعل لبيد، فيصفها في السلم والحرب كما وصفها لبيد، ولكن بين الشاعرين هذا الفرق الذي أشرنا إليه آنفًا، فلبيد يلهو ويَنعم في السلم، ويُبْلي ويخاطر في الحرب، لأن في هذا كله مثله الأعلىٰ. أما طرفة؛ فيلهو ويخاطر لأنَّه لا يدرىٰ ماذا يستطيع أن يصنع

(١) تقدم صـ (٣٤).

(٢) انظر: ديوان طرفة، (١٩) وقوله: (وقوفًا) منصوب علىٰ الحال، و(الصحب): جمع صاحب، و(المطي): المراكب، واحدتها مطية، سميت مطية؛ لأنَّه يركب مطاها أي ظهرها، وقيل: بل هي مشتقة من المطو وهو المد في السير، فسميت به لأنَّها تمد في السير، ونصب (أسىٰ)؛ لأنَّه مفعول له، يقول: قد وقفوا عليّ أي: لأجلي أو علىٰ رأسي وأنا قاعد عند رواحلهم ومراكبهم، يقولون لي: لا تهلك من فرط الحزن وشدة الجزع وتجمل بالصبر، وتلخيص المعنىٰ: إنَّهم وقفوا عليه رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (٣٨، ٣٧) وشرح القصائد العشر للتبريزي (٥٦).

(٣) انظر: ديوانه (٢٠) وأمضي الهم أي أذهبه عني، يريد: فإذا نزل بي هم سليته عني وأمضيته بأن أرتحل علىٰ هذه الناقة العوجاء، وهي الضامرة التي قد لحق بطنها بظهرها والتي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها، و(الإرقال): ما بين السير والعدو (تروح وتغتدي): تواصل سير الليل بسير النهار وسير النهار بسير الليل. انظر: شرح القصائد العشر للتبريزي (٦١) وشرح المعلقات السبع للزوزني (٩٣).

غير هذا، ولأنه قد يئس من الحياة وأنكر قيمتها وعرف أنه غير مخلدً فهان عليه كل شيء، وآثر أن يبادر الموت بما ملكت يده.

**ألا أيُّهذا الزاجِرِي أحضرَ الوَغَىٰ      وأَنْ أَشْهَدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخلِدِي**

**فإن كنتَ لا تَسْتطِيعُ دَفْعَ منِيَّتي      فدعني أبادِرْها بما ملكتْ يدِي(١)**

وأهون علىٰ طرفة الحياة لولا لذات ثلاث يجد فيهن متعة تنفره من الموت بعض التنفير؛ وهي لذة الخمر، والحب، والنجدة.

*** ثم يمضي الشاعر مفاخرًا بنفسه عائبًا علىٰ ابن عمٍّ له، زاهدًا في الحياة يائسًا منها، حتَّىٰ يختم قصيدته بهذا البيت المشهور:**

**ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهِلًا      ويأتِيكَ بِالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ(٢)**

## * تحليل قصيدة زهير:

أما قصيدة زهير فقد تشبه في أول الأمر شعر صاحبيه، ولكنها لا تلبث أن تنقطع الصلة بينها وبين شعر لبيد، وأن تبقىٰ بينها وبين شعر طرفة صلةٌ ضئيلة دقيقة ولكنها قيِّمة، ولنلاحظ أنَّ زهيرا لم ينشئ قصيدته للوصف والفخر كما فعل لبيد وطرفة، وإنَّما أراد أن يمدح، فهو إذن خَليق أن يُفْني شخصيته في شخصية من يمدحه، ومع ذلك ظهرت شخصيته قوية جذابة مؤثرة كما سترىٰ بعد حين.

بدأ زهير قصيدته كما بدأ لبيد وطرفة قصيدتيهما، فذكر الديار وشبهها بالوشم ووصف ما بقي منها، وذكر حزنه حين وقف عليها بعد عشرين سنة وتَعَرَّفها بعد مشقة:

---

(١) انظر: ديوانه (٢٥) ومعنىٰ البيت ألا أيهذا الزاجري في حضور الحرب لئلا أقتل وفي إنفاق مالي لئلا أفتقر، ما أنت مخلدي إن قبلت منك، فدعني أنفق مالي ولا أخلفه، وأبادر المنية بإنفاق ما ملكت يدي في لذاتي. انظر: شرح المعلقات التسع المنسوب لأبي عمرو الشيباني (٦٤).

(٢) انظر: ديوانه (٢٩)، والمعنىٰ: ستطلعك الأيام علىٰ ما تغفل عنه وسينقل إليك الأخبار من لم تزوده. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٢٠).

**وقفتُ بها مِن بعد عِشرِين حِجةً فَلَأْيا عرفتُ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ**

**فلما عرفتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِها ألا انْعِمْ صباحًا أيها الرَّبعُ واسْلَمِ**[(١)]

ثم ينتقل من الدار إلىٰ النساء اللاتي ارتحلن عنها، فيتبعهن ببصره كئيبًا محزونًا، ولكن حزنه هادئ مطمئن، ويصف طريقهن التي سلكنها، وإبلهن التي ركبنها، وهوادجهن التي استظللن بها، ويصف الآثار التي يتركنها إذا نزلن منزلًا للراحة ثم رحلن عنه. كل ذلك في لفظ سهل عذب فيه كثير من الجمال والظرف، حتَّىٰ إذا فرغ من قصته وانتهىٰ بصاحباته إلىٰ حيث كن يُرِدْن، وأنزلهن علىٰ الماء الذي أردن النزول عنده، انتقل في غير تخلص ولا حيلة إلىٰ صاحبيه هِرم بن سِنان والحارِث بن عوف فمدحهما.

**يميناً لَنِعْمَ السيِّدان وُجدتُما علىٰ كل حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبْرَمِ**[(٢)]

ولكنه في مدحه هادئ مطمئن مؤثِّر، كما كان في وصفه للديار والنساء، وهو يُؤْثِر القَصَصَ في المدح كما آثره في الوصف، فيذكر سعي صاحبيه إلىٰ الإصلاح بين العشيرة بعد أن أفسدت الدماء ما بينها من ود وصفاء وإخلاص، ثم يشتد ويحتد، وإذا هو ينكر الحرب وآلامها وما تجُرُّ علىٰ النَّاس من شرٍّ ونُكْر.

---

(١) انظر: ديوان زهير بن أبي سلمة (٧) وقوله (حجة) أي: سنة و(الّلأيُ): الجهد والمشقة فهو لم يعرف داره ولم يتثبت منها إلا بعد تعب وجهد ومشقة لبعد العهد بها ودروس أعلامها (انعم صباحًا): أي طاب عيشك في صباحك، من النعمة وهي طيب العيش، وخص الصباح بهذا الدعاء؛ لأن الغارات والكرائه تقع صباحًا، وفيها أربع لغات: انعم صباحًا، بفتح العين من نَعِمَ ينعَم مثل علم يعلم، والثانية: انعِم، بكسر العين، من نَعِمَ ينعِم مثل حسب يحسب، ولم يأت علىٰ فَعِلَ يفْعِل من الصحيح وغيرهما، والثالثة: عَمْ صباحًا، من وَعَمَ يَعَمُ مثل وضع يضع، والرابعة: عِمْ صباحًا من وَعَمَ يَعِمُ مثل: وعد يعد. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٣٥، ١٣٤).

(٢) انظر: ديوانه (١٤) قوله: (يمينًا) أي: حلفت حلفًا، و(السيدان) أي: هرم بن سنان والحارث بن عوف، و(وجدتما علىٰ كل حال) أي: لقد وجدتما كاملين مستوفيين لخلال الشرف في حال يحتاج فيها إلىٰ ممَّارسة الشدائد وحال يفتقر فيها إلىٰ معاناة النوائب، و(سحيل) أي: المفتول علىٰ قوة واحدة، و(مبرم) أي: المفتول علىٰ قوتين أو أكثر، ثم يستعار السحيل للضعيف والمبرم للقوي. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٣٩).

**متىٰ تبعثوها تبعثوها ذِميمة     وَتَضْرَ إذا ضَريتموها فتضرَمِ**[1]

ثم يعود إلىٰ صاحبيه فيمضىٰ في مدحهما قويا هادئا في لفظ متين ولكنه سهل يسير، حتَّىٰ إذا قضىٰ لصاحبيه وعشيرتهما حقهم من المدح واللوم والنصح استراح قليلا ثم تجاوز هذين الحيين من عبس وذبيان وارتفع عنهما وعن صاحبيه وعن نفسه إلىٰ الإنسانية كلها فقال:

**سَئِمْتُ تكالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ     ثمانينَ حَوْلًا، لا أبا لكَ، يَسْأَمِ**[2]

*** ومضىٰ في طائفة من الحكم منها الإنساني الشامل كقوله:**

**وَمَنْ هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ     ولو رام أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ**[3]

*** ومنها ما يصور طورًا من أطوار الحياة العربية الخاصة كقوله:**

**وَمَنْ لم يَذُدْ عن حوضهِ بِسِلاحِه     يُهدمْ ومن لا يظلمِ النَّاس يُظْلَمِ**[4]

ولكنها كلَّها -وهنا تظهر الصلة التي أشرنا إليها بينه وبين طرفة- تُمثِّل نفسًا زاهدةً في الحياة، كارهة لها، ضيقة بها، لا لأنَّ الشاعر شيخ قد بلغ الثمانين كما يقول، بل لأنَّ هناك شيئًا قد بغَّض الحياة إلىٰ زهير الشيخ كما هوَّن أمرها علىٰ طرفة الشاب، وهذا الأمر هو أنَّ الحياة لغز لم يستطع طرفة ولا زهير أن يتبينا سره:

**رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ     تُمتْهُ وَمَنْ تُخْطئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ**

---

(١) انظر: ديوانه (١٩) قوله: (تبعثوها): تثيروها، و(ذميمة): مذمومة، ويروىٰ (دميمه) أي حقيرة، و(تضر) تُعود وتدرب، و(تُضرم) أي تُشعل، انظرك شرح القصائد العشر للتبريزي (١١٧).

(٢) انظر: ديوانه (٢٩) قوله: (سئمت) مللت وال (تكاليف): المشاق والشدائد (لا أبا لك): كلمة جافية لا يراد بها الجفاء وإنَّما يراد بها التنبيه والإعلام. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٤٩).

(٣) انظر: ديوانه (٣٠).

(٤) السابق وقوله (يزد) الزود: الكف والردع والمعنىٰ: ومن لا يكفّ أعداءه عن حوضه بسلاحه هدم حوضه، ومن كف عن ظلم النَّاس ظلمه الناس، يعني ومن لم يَحْمِ حريمه استبيح واستعار الحوض للحريم. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٥١).

**وأعلمُ عِلَم اليوم والأمسِ قبلَه ولكنني عن عِلمِ ما في غدٍ عَمِ**[(١)]

هان أمر الحياة علىٰ طرفة فانصرف إلىٰ اليأس واللذة، وهان أمر الحياة علىٰ زهير فلم ييأس ولم يتهالك علىٰ لذة أو لهو، ولكنه كان يُحِسُّ شيئًا من الأمل لا يستطيع هو أن يبينه، ولا نستطيع نحن أن نتبينه واضحًا صريحًا. إنَّما هو شيء غامض، خلاصته -فيما يظهر- أنَّ هذه الحياة مضطربة قلقة، لا تطمئن إليها النفس المستبصرة، وما زال القليلون من أمثال زهير وطرفة في البيئة العربية يَرَوْن مثل هذه الآراء ويتحدثون بمثل هذه الأحاديث، حتَّىٰ جاء الإسلام فحقق أمل الآملين، ومحا يأس اليائسين، وأخرج الأمة العربية كلَّها من ظلمتها القديمة إلىٰ نوره الجديد.

---

(١) انظر: ديوانه (٢٩) قوله: (الخبط): الضرب باليد، (العشواء): تأنيث الأعشىٰ، وجمعها عُشْو، والعشواء: الناقة التي لا تبصر ليلًا، ويقال في المثل: هو خابط خبط عشواء، أي قد ركب رأسه في الضلالة كالناقة التي لا تبصر ليلًا فتخبط بيديها علىٰ عمىٰ، (ومن تخطئ) أي ومن تخطئه، فحذف المفعول، وحذفه سائغ كثير في الكلام والشعر والتنزيل، (يُعَمَّرْ): المراد تطويل العمر، والمعنىٰ: رأيت المنايا تصيب النَّاس علىٰ غير نسق وترتيب وبصيرة، كما أنَّ هذه الناقة تطأ علىٰ غير بصيرة، ثم قال: من أصابته المنايا أهلكته ومن أخطأته أبقته فبلغ الهرم. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٤٩).

# النثر الجاهلي

كثيرٌ جدًّا ما يُروىٰ من الشعر الجاهلي، ومنه الصحيح وغير الصحيح، وهذا الشعر الكثير ليس شيئًا بالقياس إلىٰ ما ضاع من شعر العرب في العصر الجاهلي؛ لأنَّه لم يُكتب، فذهب به النسيان وموت الرواةِ، أما النثر الذي يروىٰ عن العصر الجاهلي؛ فقليلٌ جدًّا لا يكاد يُذكر إلىٰ جانب الشعر، وكان القدماء يعللون قلة النثر وكثرة الشعر بأنَّ وزن الشعر وقافيته يُسهِّلان حفظه وروايته، علىٰ حين أن حرية النثر وانطلاقه من القيود يجعلان حفظه عسيرًا وروايته أعسر.

وقد تكون هذه العلة صحيحة في نفسها، ولكن ما قدمناه من أنَّ الشعر أسبق إلىٰ الظهور من النثر الفني لأنَّه لغة العاطفة والخيال، والنثر الفني لغة العقل والتفكير، يكفي لتعليل قلة ما يروىٰ من النثر، وكثرة ما يروىٰ من الشعر عن العصر الجاهلي، فقد كان العرب إلىٰ ظهور الإسلام أميين في كثرتهم، ويستطيع الشعر أن يعيش مع الأمية ولا يستطيع النثر الفني أن يعيش معها.

**ومن الحق**: أنَّ أفرادًا من العرب كانوا يكتبون ويقرؤون ويتخذون الكتابة أداةً لمعاملاتهم الاقتصادية في آخر العصر الجاهلي. ولكن الكتابة لم تكن شائعة إلىٰ الحد الذي يمكن من تدوين الشعر والنثر.

# الخطابة في الجاهلية

ومما لا شك فيه أنَّ العرب قد عرفوا في هذا العصر الجاهلي شيئًا من الخطابة دعت إليه حياتهم الاجتماعية والسياسية، وكان لهم خطباء مشهورون نذكر منهم: أَكْثَم بن صَيْفِي التمِيمِي، وقُسَّ بن ساعِدة الإيادِي، ولكننا لا نعرف من هؤلاء الخطباء إلا أسماءهم وشهرتهم، ونُتَفا ضئيلة جدا مِن أقوالهم. فمن العبث إذن، أن يُدرَس النثرُ الجاهلي؛ لأنَّه قد ضاع إلا القليل.

## الأمثال الجاهلية

وإذا لم يكن بُدٌّ من الكلام علىٰ النثر في هذا العصر؛ فليكن هذا الكلامُ عن الأمثال، فقد كان للعرب في جاهليتها أمثال شَعْبية كثيرة، وكان كثير من هذه الأمثال قد شاع في صيغة نثرية غير منظومة، وإذا لم نستطع أن نتخذ هذه الأمثال القصيرة مقياسًا للنثر العربي في ذلك العصر لقصرها واقتضابها، فنحن نستطيع علىٰ كل حال أن نرىٰ فيها العقلية العربية والخُلق العربي. كما نستطيع أن نرىٰ في كثير منها الجملة العربية قويةً ممتازة بحظٍّ عظيم جدًا من ظرف التعبير، وإِصابة المعنىٰ، وإتقان التشبيه، وحسن الإيجاز.

**والواقع**: أنَّ العرب قد أجادوا في هذا النوع من الأدب وخلّفوا لنا منه الشيء الكثير، وكان يمثِّل حياتهم الاجتماعية في بيئاتهم المختلفة أكثر ممَّا يمثلها الشعر؛ لأنَّ الأمثال تنبع من الشعب علىٰ اختلاف طبقاته. فإذا نبع المثل من طبقة راقية كان راقيًا، وإذا نبع من طبقة وضيعة كان وضيعًا، علىٰ عكس الشعراء وهم -عادة- أرقىٰ من مستوىٰ العامة.

ولكن هذه الأمثال الجاهلية اختلطت بغيرها من الأمثال الإسلامية، فكثيرا ما يصعب التمييز بين المثل الجاهلي والمثل الإسلامي، وإن كان هناك أحيانًا دلائلُ تدلنا علىٰ نوع المثل، كما إذا قيل في حادثة تاريخية، أو عُرف قائله إذا كان جاهليًا أو إسلاميًا.

ومهما يكن من شيء؛ فإنَّ الذين يريدون أن يدرُسوا النثرَ العربي، ويحدِّدوا مكانته الأدبية، ويتعرفوا حظه من الجمال الفني، لا ينبغي أن يلتمسوا هذا النثر قبل ظهور الإسلام، وإنَّما ينبغي أن يلتمسوه فيما صحَّ من الحديث النبوي وخُطَب الخلفاء والأمراء أولًا، ثم في آخر العصر الأموي وفي عصر بني العباس حين أصبح النثر صناعة فنية.

# مكة

## مركزها التجاري

من أهم مدن الحجاز كما أسلفنا مكة، والذي نعرفه عنها أنَّها كانت قبل القرن الخامس للميلاد بلدة صغيرة، وظلت تنمو حتَّىٰ كانت في النصف الثاني من القرن السادس مدينة عظيمة، وترجع عظمتها ونموها السريع إلىٰ أسباب:

- **أولها**: أنه كان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة أهمها لنا هنا طريق يبدأ من حضرموت، وتسير محاذية للبحر الأحمر متجنبة صحراء نجد وهجيرها، ومتجنبة هضاب الشاطئ ووعورتها، وعلىٰ هذه الطريق تقع مكة.

كانت مكة محطًا لأصحاب القوافل الآتية من جنوبَيْ جزيرة العرب تحمل بضائع الهند واليمن إلىٰ الشام ومصر، ينزلون بها ويَسْتَقون من بئرٍ شهيرة بها تسمىٰ بئر زمزم، ويأخذون منها حاجتهم من الماء.

وكانت التجارة قديمًا في أيدي اليمانيين، ولكن غلبهم عليها الرومانيون في البحر الأحمر، فضعفت تجارة اليمن، وانحطَّ شأنها، ولما حُفَّ طريق البحر بالأخطار، التجأ التجار إلىٰ البر يسلكونه، فعَظُم شأن المدن التي عليه، وأهمها مكة، وضرب الحجازيون بسهم كبير في التجارة فكانوا يشترون السلع من اليمن والحبشة، ثم يبيعونها في أسواق الشام ومصر، وكان العرب يؤمون الحجاز من أطراف الجزيرة، يجدون فيه حاجتهم ممَّا تُخرجه بلادهم، ومن

السلع الأجنبية. وكانت تقام فيه الأسواق كل سنة، ومن أشهرها سوق عُكاظ، وكانت تقام علىٰ مقربة من مكة، ولهذه الأسواق أثر كبير في الأدب العربي، فقد كان يحضرها شعراؤهم ينشدون ويتناظرون، وكان التجار يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة، حتَّىٰ ذكر الطبري في تاريخه أنَّ قافلةً من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير، وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة في هذه القوافل مرتين: مرةً وسِنُّه اثنتا عشرة سنة إلىٰ بَصْرىٰ، ومرةً وسنه خمسٌ وعشرون.

كان لهذه التجارة أثرٌ كبير في أهل مكة، فقد أَثْرَىٰ كثيرٌ منهم واقتنوا الأموال والضِّياع والعبيد، وفشا بينهم التعامل بالربا ونحو ذلك ممَّا عرض له الإسلام بعدُ. وفوق هذا، كان لرحلة المكِّيين إلىٰ الشام ومصر أثر كبير في عقولهم؛ فقد رأَوْا أنواعًا من الحضارة اقتبسوا منها ما استطاعوا، وأثر كبير في لغتهم؛ فقد كان منهم بحكم التجارة من يعرف اللغات السائدة في الشام ومصر، فأدخلوا منها في لغتهم ما رأوا أنفسهم في حاجة إليه.

# مركزها الديني

- **والسبب الثاني في نموِّ مكةَ وعظمتها:** سببٌ ديني؛ ذلك أنَّ في مكة الكعبة، وهي بيت الله الحرام يقصدها العرب من جميع أنحاء الجزيرة. ولأهلها من الحرمة في نفوس العرب ما ليس لغيرهم. وكان ذلك أحدَ الأسباب التي دعت إلىٰ نجاح قريش في التجارة. فقد كان الطريق التجاري في الجزيرة مُهدَّدا بالسلب والنهب، ولكنَّ حرمة العرب للكعبة وقريش جعلتهم يخشَوْن بأسهم، ويؤمِّنون تجارتهم.

* **يقول الله تعالىٰ:**

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:١-٤].

# قبيلة قريش

أهم قبيلة كانت تسكن الحجاز وخاصة مكة قبيلة قريش، وقريش لقبٌ لِفهر، وهو من نسل مَعْد بن عدنان الذي ينتسب إلىٰ إسماعيل عليه السلام، وكان فهر هذا يعيش في القرن الثالث الميلادي -علىٰ ما يُظَنُّ- وسُميت القبيلة التي نَسَلها باسمه، فقيل (قبيلة قريش)، وقد فخرت قريشٌ بنسبها وحسبها وخدمتها للكعبة علىٰ سائر القبائل، حتَّىٰ عدت أنبلها، وظهر من بينها علىٰ توالي العصور رجال زادوا في عظمتها مثل قُصَيٍّ الذي أطعم الحاجَّ وسقاهم، وبنىٰ دار الندوة قرب الكعبة يجتمع فيها مع كبار قومه يتشاورون في شؤونهم، وعاش -علىٰ ما يظهر- في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وجاء الإسلام وقريش هي صاحبة السلطان علىٰ مكة، وموضع الإجلال من العرب. قد وزعت مصالح الحكم والولاية علىٰ رؤساء البيوت الظاهرة فيها.

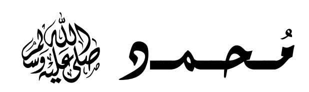
# لغة قريش

كان للقبائل العربية المختلفة لغاتٌ مختلفة؛ فلأهل اليمن لغة، ولهوازِن لغة، ولأهل عُمَان لغة، وللخزرج لغة وهكذا، وكلها تسمىٰ لغات عربية، وتختلف فيما بينها باختلاف الكلمات أحيانًا، فبعضهم يستعمل في المعنىٰ الواحد كلمة، علىٰ حين أنَّ قبيلة أخرىٰ تستعمل في هذا المعنىٰ لفظًا آخر، فمثلًا كِندة تستعمل (فجاجًا)، وقريش تستعمل بدلها (طرقًا) ولخم تستعمل (إملاقًا) وقريش (جوعًا) وقبيلة تستعمل (نكص) وأخرىٰ تستعمل (رجع) وقبيلة تستعمل (اِحْتَنَكَ) وأخرىٰ (استأصل) وهكذا، كذلك تختلف فيما بينها في اللهجات، وذلك كأنْ تُدْغِم قبيلة حيث تفكُّ أخرىٰ، فقبيلة تقول (اُشْدُدْ) وأخرىٰ (شُدّ) وقبيلة تُميل وأخرىٰ لا تميل، علىٰ نحو ما تراه في القراءات المختلفة للقرآن الكريم.

وقد امتازت لغة قريش من بين لغات العرب بوفرة كلماتها، وسهولتها، وحسن لهجتها، وخلوها من عيوب كانت في لغات أخرىٰ، كعَجْعَجةِ قُضاعة، وعَنْعَنَة تميم[1]. ويرجع ذلك إلىٰ السببين اللذين ذكرناهما قبل، فاشتغال القرشيين بالتجارة بينهم وبين الأمم الأخرىٰ من ناحية، وبينهم وبين قبائل العرب من ناحية أخرىٰ، جعلهم يُدخِلون في لغتهم ألفاظًا جديدة يرَوْن أنفسهم

(١) العجعجة: قلب الياء المشددة جيما فيقولون في (عليّ) (علج) وفي (كرسي) (كرسج). والعنعنة: قلب الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة عينا، فيقولون في (أن) (عن) [م].

مضطرين إليها، فلمَّا رأوا الإسْتَبْرقَ مثلا ولا كلمة عندهم تدل عليه، أخذوا لفظه من الفرس، وكذلك كلمتا السُّندس والكافور، كما أخذوا كلمات أخرىٰ عن الرومية والحبشية والقبطية والسريانية، أضف إلىٰ ذلك؛ أنَّ التجارة وكثرة الرحلات، ومخالطة الأمم المتحضرة، رققت ذوقهم وجعلتهم ينفرون من الكلمات الغليظة، واللهجات المستهجنة، وقُل مثلَ ذلك في السبب الديني، فحجُّ العرب إلىٰ الكعبة من كلِّ فَجٍّ عميق، مكَّن القرشيين من سماع اللغات العربية الأخرىٰ يتخيرون ألطفها، وحسْبُك دليلًا علىٰ سعتها ورقتها؛ أنَّ القرآن الكريم نزل بها، وهذا الذي ذكرنا من سعتها ورقتها، هو الذي جعلها تسود اللغات العربية الأخرىٰ في الحجاز وغير الحجاز، فكما كان الذين يحجون إلىٰ الكعبة ويقصدون إلىٰ الأسواق يُمِدُّون لغة قريش بخير ما في لغتهم، كانت قريش تمدهم بلغتها ولهجتها حتَّىٰ زاحمتها وغلبت عليها، **وحتىٰ كان ممَّا يستوقف النظر**: أنَّ ما نُقل إلينا من شعر الشعراء وخطب الخطباء وجيد الأمثال، إنَّما نُقل بلغة قريش، ولو لم يكن قائله قرشيًّا ولا حجازيًّا.



# حياته الأولىٰ

*** في مكة التي ذكرنا، وفي بيت من خير بيوت قريش وُلد محمدٌ بنُ عبدِ الله بنِ عبد المطَّلب في سنة ٥٧٠م.**

تزوج عبدُ الله بنُ عبد المطلب الهاشمي القرشي بسيدةٍ قرشية كذلك هي السيدة آمنةُ بنتُ وَهْب بنِ عبد مَناف، وبعد قليل من زواجه توفِّي شابًا في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وكان خارجًا في تجارة إلىٰ الشام، ولم يترك إلا خمسة من الإبل، وقطيعًا من الغنم وجارية، وبعد وفاته بأيام وضعت آمنة غلامًا سماه جده (محمَّدا)، وكان من عادة الأشراف من نِساء العرب ألَّا يُرضِعن أولادهنَّ بأنفسهنَّ، بل يدفعنهم إلىٰ المراضع، وكثيرًا ما يقع اختيارهنَّ علىٰ المرضعات من أهل البدو؛ لينشأ الأطفال في البادية أفصح لسانًا، وأجْلَد جسمًا، وأبْيَن حريةً، وكذلك نشأ (محمد)؛ فقد دُفِع إلىٰ حليمة من بني سعد بن بكر من هوازن، فأخذته بعد تلكُّؤ؛ لفقره ويُتمه، فأقام عندها بين بني سعد في البادية نحو خمس سنوات كان لها أثرٌ كبير في فصاحة لسانه، وقوة جسمه، وعظيم جَلَدِه، قال له مرة أبو بكر ما رأيتُ أفصحَ منك! فقال رسول الله ﷺ: «**وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرْضِعتُ في بني سعد**»، وكان يقول لأصحابه: «**أنا أعربكم، أنا قرشيٌّ واستُرْضِعت في بني سعد**».

وماتت أمه بعد سنة من عودته، ومات جده عبد المطلب وهو ابن ثمانٍ، فكان في كفالة عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثيرَ العيال فقيرَ المال.

نشأ (محمد) ﷺ محبًا للعزلة حتَّىٰ لَيَرْوُون أنه لما قدِمت به حليمة مكة وسنه خمس سنوات افتقدته فلم تجده، فأرسل عبد المطلب مَن يبحث عنه فإذا هو بأعلىٰ مكة، ومحبًا للحرية حتَّىٰ ليذكرون أنه كان يوضع لعبد المطلب فِراش في ظل الكعبة، فكان بَنُوه يجلسون حول فراشه، فإذا خرج لم يبقَ أحدٌ من بنيه علىٰ الفراش إجلالًا له إلا محمدًا، فيأتي أعمامه ليؤخروه فيقول لهم عبد المطلب دعوه.

ولما بلغ الخامسة والعشرين تزوج السيدة خديجة بنتَ خُويْلِد وهي في الأربعين من عمرها، وكانت من أشراف قريش وأغنيائها وتجارها، فأعانته بعطفها وإخلاصها علىٰ ما يحب من عزلة وتفكير، وشجعته بعدُ علىٰ ما يلاقي من أعدائه في سبيل دعوته، ووقفت بجانبه في أحرج ساعاته تثبته وتؤيده.

## بعثته ﷺ

وقد اعتاد أن يقضي شهرًا كلَّ عامٍ في غارٍ قرب مكة يسمىٰ (غار حراء) يتعبَّد فيه، ويعيش عيشةً روحية، ففي ليلةٍ -وقد بلغ الأربعين- وهو نائمٌ نزل عليه الوحي، ثم أمر بتبليغ ما أوحي إليه، ومِن ثَمَّ بدأت حياته في دعوة النَّاس إلىٰ الإسلام، وتركِهم عبادة الأصنام، وأدائهم حقوق الله وحقوق الناس.

وكان من أسرع النَّاس قبولًا لدعوته زوجُه خديجةُ وابن عمِّه عليٌّ بن أبي طالب، وأبو بكر، وهم أكثر النَّاس كانوا خُلْطَة به، ومعرفة بصدقه وأمانته.

فلمَّا شرع يدعو قومه أخذوا يسخرون منه وقالوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩] فلمَّا جدَّ في دعوتهم جدُّوا في اضطهادهم له ولمن آمن به، وأمعنوا في تعذيبهم والتضييق عليهم، فنصح رسولُ الله لبعض أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة، وقد قال أحدُهم للنجاشِيِّ لمَّا سألهم عن حالهم: [كنَّا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل المَيْتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجِوار، يأكل منا القويُّ الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتَّىٰ بعث الله رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة،

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا . . . فعَدَا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان. فلمَّا قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلىٰ بلادك].

فلمَّا يئس محمد ﷺ من إيمان قومه وجَّه نظره إلىٰ قومٍ آخرين لعلَّهم يكونون أقبل لدعوته، فدعا أهلَ الطائف فكانوا أقسىٰ من قريش، أَغْرَوا به سفاءهم فرجموه بالحجارة حتَّىٰ اخُتِضبت نعلاه بالدماء، ثم عرض دعوته علىٰ القادمين من يثرب في موسم الحج فآمنت طائفةٌ منهم، وآمنت أخرىٰ بعدها في الموسم التالي وبايعوه علىٰ نُصْرة دينه.

# هجرته ﷺ

وفي سنة ٦٢٢م هاجر من مكة مع أبىٰ بكر يريد يثربَ متخفيًّا من قومه لأنَّهم يريدون قتله، وبعد ثلاثة أيام وصل إليها فأحسنوا لقاءه وفشا الإسلام في أكثر بيوتهم.

وكان أهل يثرب من قبيلتين متعاديتين (الأوس والخزرج) فألَّف رسول الله بينهما وسُمُّوا (الأنصار) كما سمي الذين جاءوا من مكة مع النبي وبعده (بالمهاجرين) وآخىٰ رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار، وسميت يثربُ من ذلك الحين بالمدينة -أي: مدينة الرسول- وأرَّخ المسلمون بعدُ بهذه الهجرة[1].

من ذلك الحين كان رسول الله داعيًا إلىٰ الإسلام ورئيسًا للدولة الإسلامية الناشئة معًا، فكان يُشرِّع لهم ويصلح من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية بما أوحىٰ الله إليه، وكان بين أهل المدينة يهود ظلوا متمسكين بدينهم، فكتب رسول الله عهدًا وَادَعهم فيه، وأقرَّهم علىٰ دينهم وأموالهم، واشترط عليهم ألا يعينوا أعداء المسلمين عليهم. وأن يدافعوا عن المدينة كما يدافع المسلمون، وعلىٰ اليهود نفقتهم، وعلىٰ المسلمين نفقتهم.

---

(١) كانت الهجرة في سبتمبر، وقد أرخ بها المسلمون بعد ١٧ عامًا من حدوثها فىٰ عهد عمر بن الخطاب، وقد كان ذلك يوافق ربيعا الأول، فبدأ عمر التاريخ الهجري من أول السنة التي حصلت فيها الهجرة أعني من محرم تلك السنة [م].

# حياته ﷺ بالمدينة

وبنىٰ بالمدينة مسجدًا يعبد الله فيه هو وقومه، وهو أحد الحرمين الشريفين، لم يكن ضخمًا في بنائه، فقد بني باللَّبِن وجعلت عمده من جذوع النخل، وسُقِّف بالجريد، ولكن كان يدعمه إيمان قوي ومبادئ قويمة.

وقد عادىٰ أهلُ مكة النبيَّ وأصحابَه وأهلَ المدينة لحمايتهم له ولهم، فبدأ القتال بين الفريقين، وانتهىٰ بأن كانت كلمة الذين كفروا السفلىٰ، وكلمة الله هي العليا، وفتح النبي مكة سنة ٦٣٠م ووقعت قريش في يده فعفا عنهم وقال: «**يا معشر قريش؛ إنَّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتَعظُّمَها بالآباء، النَّاس من آدم وآدمُ من تراب**»، ثم قال: «**يا معشر قريش ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم؟**»، قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطُلقَاء**»، ودخل الكعبة فأزال ما بها من أصنامٍ، وصور وتماثيل، وأسلم في ذلك اليوم أكثر قريش، ولم يتخلف منهم إلا قليل، وقد كانت قريش في نظر العرب هُم حماةُ الدين القديم وأنصاره، فلمَّا أسلموا تبعهم من أصرَّ علىٰ دينه من القبائل الأخرىٰ، وسميت السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود) فكان العرب يأتون من أنحاء الجزيرة يدخلون في الإسلام وكان النبيُّ يُعلِّم مَن وفد إليه ويرسل معهم مَن يُعلم قبيلتهم أمور دينهم.

ويذكر الرواة أنه ﷺ أرسل من قِبله رسلًا إلىٰ الملوك، ومنهم ملك الروم وملك فارس فإنه أرسل يدعوهما إلىٰ الإسلام ويحمِّلهما تبِعة قومهما إذا لم يجيبا الدعوة، فردَّ الأول الدعوة في لطف، ومزَّق الثاني الكتاب المرسل.

# حَجة الوداع

وفي سنة ٦٣٢م حجَّ رسول الله ﷺ إلىٰ الكعبة حجة الوداع وقد دخل النَّاس في دين الله أفواجًا، فكان معه في حَجته أكثرُ من مائة ألف دانوا بدينه، وخطب في النَّاس خطبته المشهورة التي جاء فيها: «**أيُّها النَّاسُ اسْمعوا قولي، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا، أيُّها النَّاسُ، إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلىٰ أنْ تلقَوْا ربَّكم كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا، وإنكم ستلقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلىٰ من ائتمنه عليها، وإنَّ كل رِبًا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تُظْلمون. واستوصوا بالنساء خيرًا . . . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدًا أمرًا بيِّنًا، كتاب الله وسنة نبيه، أيُّها النَّاسُ اسمعوا قولي وافعلوه، تَعْلَمُنَّ أنَّ كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم**»(١).

ولما عاد ﷺ من مكةَ ظلَّ يعمل فيما أُرسل من أجله من قضاء علىٰ الوثنيين ونشر الدعوة الإسلامية. ونزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، ثم لم يلبث قليلًا

---

(١) صحيح: أخرجه أبي داود (١٩٠٥) وابن خزيمة (٢٨٠٩) وأبي عوانة في مستخرجه (٣٤٦٢) وصححه الألباني.

حتَّىٰ أخذ يشكو المرض من حُمّىٰ اشتدّت به، فلمَّا كان يوم ١٣ربيع الأول سنة ١١ هجرية ٨ يونيه سنة ٦٣٢ ميلادية توفي ﷺ بعد أن رأىٰ في حياته ما وفقه الله له من اجتماع العرب علىٰ دينه، وما وصلوا إليه من رقي ديني وخلقي واجتماعي، ورأىٰ أن دعوته أخذت تشِعُّ علىٰ الممالك الأخرىٰ حوله، وذهب أبو بكر يخبر النَّاس بموته فقال: «أيُّها النَّاسُ مَن كان يعبد محمدًا؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حيٌ لا يموت، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]»[١].

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٦٨).

## شيء من أخلاقه

وهكذا خُتِمت حياةٌ حافلة بجليل الأعمال، ونُبْل الخصال، حب للحق يَهب له حياته وقوة إيمان، فلو اجتمع النَّاسُ كلُّهم ووضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله علىٰ أن يحولوه عن دعوته ما استطاعوا، واحتقار لنعيم الدنيا وحُطامها، حتَّىٰ لقد مات ودِرْعه مرهونة لنفقة عياله، والدنيا تساق إليه بحذافيرها وتترادف عليه فتوحها، وأدب وحياء وتواضع، حتَّىٰ لقد كان موضع الحب والإجلال والإعجاب من كل من اتصل به، وقدَّم كثيرٌ منهم نفسه وماله وولده دفاعًا عنه وعن عقيدة تَلَقَّوْها منه، ولا تزال الإنسانية علىٰ مرور القرون والأجيال، مدينة له بما أتىٰ من دين وإصلاح ودعوة إلىٰ الخير العام.

وبعدُ فقد كان ﷺ في فصاحة قوله وبلاغة لسانه(١) بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزَع، وإيجاز مقطَع، وفصاحة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع العلم؛ وخُصَّ ببدائع الحِكم وعِلْم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها ... ومن أقواله ما لا يوازي فصاحة، ولا يباري بلاغة كقوله: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعىٰ بذمتهم أداناهم، وهم يَدٌ علىٰ من سواهم)(٢)، (الناس كأسنان المشط، لا خير في صحبة من

---

(١) عن الشفاء للقاضي عياض [م].

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٤٧٣٤) والحاكم في المستدرك (٢٦٢٣) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في المشكاة (٣٤٧٥).

لا يرىٰ لك ما لا ترىٰ له)[1]، (الناس معادن)[2]، (ما هلك امرؤ عرف قدره)، (المستشار مؤتمن[3] وهو بالخيار ما لم يتكلم)، (ورحم الله من قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم)[4]، (اتقِ الله حيث كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق النَّاس بخلق حسن)[5]، (لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين)[6]، (والسعيد من وُعظ بغيره)[7].

وقد قالت أمُّ مَعبد في وصفها له: حُلْو المنطق فَصْلٌ، لا نَزَرَ ولا هَذَرَ كأنَّ منطقه خَرَزاتٌ نُظِمْنَ[8].

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الدولابي في الكنىٰ والأسماء (٩٤٩) والقضاعي في مسند الشهاب (١٩٥) وضعفه جدًا الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٩٦).

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (١٩٩/٢٥٢٦).

(٣) صحيح: أخرجه أبي داود (٥١٢٨) وابن ماجة (٣٧٤٥) الدارمي (٢٤٩٣).

(٤) أخرج البيهقي في الشعب قريبا من هذا وعزاه للأصمعي (٤٧١٧).

(٥) حسن: أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وأحمد (٢١٥٢٦) وحسنه الألباني في المشكاة (٥٠٨٣).

(٦) متفق عليه: البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٦٣/٢٩٩٨).

(٧) موقوف علىٰ ابن مسعود: أخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٣٨) وفي الأوسط (٧٨٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٦) والبيهقي في الاعتقاد (٢٣٢).

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥) والبغوي في شرح السنة (١٣/٢٦٣) والآجري في الشريعة (١٠٢٠).

# القرآن الكريم

# نزوله منجمًا على حسب الحوادث

القرآن كتاب الله الذي أنزل علىٰ رسوله، وقد نزل مُنجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة، تبتدئ من يوم أنزل عليه الوحي بغار حِراء، وتنتهي بوفاته ﷺ، وكان بَدء ما نزل عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]، وآخر ما نزل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزل (أكثر) سور القرآن والنبي ﷺ في مكة قبل أن يهاجر إلىٰ المدينة، فقد كان فيها داعيًا نحو ثلاث عشرة سنة، ونزل (بعضُه) في المدينة بعد الهجرة، وظل ينزل فيها نحو عشر سنوات، وكان ما نزل منه بالمدينة -باتفاق- عشرين سورة، واختلف في موطن نزول اثنتي عشرة سورة، وما عدا ذلك مكيّ باتفاق.

كان ينزل القرآن علىٰ الرسول بطريق الوحي، وكان ينزل علىٰ حسب ما يعرِض من الحوادث، فكان بعضها يستدعي الآية أو الأكثر، وبعضها يستدعي السورة بأجمعها، فمثلا: يخرج النبي ﷺ في غزوة من الغزوات فينزل عليه من القرآن ما يتصل بها من تعاليم، ويُسأل عن حكم الله في الميراث، فتنزل الآية أو الآيات توضح أحكامه، وهكذا.

وكان إذا نزل عليه شيء من القرآن تلاه علىٰ من حضر من أصحابه فيحفظه بعضهم، فهذا يحفظ جملة من الآيات، وذلك يحفظ آيات أخرىٰ

وهكذا، وفوق ذلك كان للنبي ﷺ كتبة يكتبون ما ينزل من الآيات يُسمَّوْن كتبة الوحي، فكانوا يكتبونه في سعف النخل، أو في حجارة رقيقة، أو عظام مسطحة، وقد توفي رسول الله ﷺ والقرآن ليس مجموعًا في مصحف واحد، وإنَّما كان محفوظًا في صدور الصحابة أو مكتوبًا في الرقاع.

## جمعه في الرقاع

وفي عهد أبي بكر كانت حروب الردَّة، وقد تفرَّق الصحابة في البلدان وكثر فيهم القتل، وخاصة في وقعة اليمامة، فخاف عمر أن يذهب بعض الآيات بقتل بعض الصحابة فأشار علىٰ أبي بكر بجمع الرقاع المكتوبة، وكتابة ما لم يُكتب من صدور الرجال، وعهِد أبو بكر في هذا العمل إلىٰ زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي للنبي ﷺ ومن خير الأنصار دينًا وعلمًا وصدقًا، فتتبع زيد القرآن يجمعه من الرقاع ومن صدور الرجال، وكان يكتب ما لم يكن مكتوبًا بعد التحري الدقيق، وجمعت الصحف كلها ورُبطت بخيط بعضها مع بعض، وحُفظت في بيت أبىٰ بكر مدة حياته، فلمَّا توفي حفظت في بيت عمر، فلمَّا توفي حفظت في بيت حفصة زوج النبىٰ وبنت عمر[1].

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي للزيات (٨٨) وما بعدها.

# كتابة المصاحف

وفي عهد عثمان انتشر القُرَّاء في حواضر الأمصار كالعراق والشام ومصر، وقد احتاج المسلمون إلىٰ مصحف يجتمعون عليه ولا يشِذُّ أحد عنه.

فأرسل عثمان إلىٰ حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، وعهِد عثمان إلىٰ زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيرهما في أن يكتبوه، فلمَّا نسخوا الرقاع في المصاحف أرسل إلىٰ كل مصر من الأمصار المشهورة مصحفًا وألزمهم القراءة علىٰ حسب ما فيه، وكانت هذه المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة، فلمَّا اخترع الشكل بعدُ نُقطت المصاحف ثم شُكلت علىٰ النحو الذي نراه اليوم(١).

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٠١) وما بعدها وتاريخ الأدب العربي للزيات (٨٨).

# أغراضه ومعانيه

قدمنا أن في القرآن آياتٍ وسورًا مكية أي إنَّها نزلت بمكة، وأخرىٰ مدنية أي إنَّها نزلت بالمدينة، فإذا نظرنا إلىٰ السور المكية لاحظنا أن أوضح غرض فيها هو دعوة النَّاس أن يتركوا عبادة الأصنام والأوثان، ويعبدوا الله وحده، ومنهج القرآن الكريم في هذه السبيل ذكر الله وبيان صفاته وتوضيح آثاره في الكون، وسِير الأمم السابقة، وكيف كانت عاقبة المؤمنين والكافرين، وبإزاء هذا كله ذكر الأصنام وكل ما يُعبد من دون الله، وبيان أنَّها لا تسمع ولا تعقل، وأنها لا تملك لمن يعبدها نفعًا ولا ضَرًّا، وأكد القرآن الكريم في مواضع عدة من هذه الآيات عاقبة المؤمنين وما أعده لهم من جنات النعيم، ووصف الجنة أبلغ وصف وأشده ترغيبًا، وما أعد للكافرين من جحيم، ووصف النار أبلغ وصف وأشدُّه ترهيبًا، وعرض لرؤساء مكة الذين كانوا يقفون في سبيل الدعوة فسخَّف آراءهم، وندَّد بهم وبأعمالهم.

## * ويمكننا أن نلخص المبادئ التي تشتمل عليها السور المكية فيما يأتي:

الدعوة إلىٰ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمد رسول الله، وأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ هناك حياةً أخرىٰ وراء هذه الحياة يلقىٰ فيها كلٌ جزاءَ عمله، فإمَّا

عملٌ صالح جزاؤه الجنة ورضوان من الله أكبر، وإما عمل سيئ جزاؤه النار وسخط الله وغضبه.

أما السور المدنية؛ فترىٰ فيها -زيادة علىٰ ما تقدم- الاشتراع الديني والاجتماعي والسياسي؛ وذلك لما علمت من أنه بعد الهجرة قد توطدت دعائم الإسلام وأصبح محمد ﷺ نبيًا ورسولًا ورئيس أمة. فشرع في المدينة الصوم والزكاة والحج وقوانين الزواج والطلاق والميراث. وشرع قتال من ناهض دعوته، ولم يكن في المدينة صناديد لحماية الأوثان والدفاع عنها كما كان الشأن في مكة، إنَّما كان في المدينة يهود يقاومون الدعوة، ومنافقون يبطنون الكفر ويُظهِرون الإسلام، فتعرَّض القرآنُ لتبيين موقفهم ورد كيدهم[1].

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي للزيات (٨٦، ٨٥).

# أسلوبه

وللقرآن أسلوب عجيب يخالف ما كانت تنهجه العرب في نظمها ونثرها؛ فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلىٰ درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يملُّ قارئه، ولا يخلَق بترديده، يسجَع أحيانًا ولا يلتزم السجع، ويوازن أحيانًا ولا يلتزم الموازنة، قد امتاز بسهولة ألفاظه حتَّىٰ قل أن تجد فيها غريبًا، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة، ولا تحس فيها لفظًا نبا عن أخيه، فإذا أضفتَ إلىٰ ذلك سموَّ معانيه، أدركتَ سرَّ بلاغته وإعجازه.

ونلاحظ أن أسلوب القرآن كان يتبع موقف النَّاس إزاء الدعوة؛ فهو في أكثر السور المكية كسورة (ص) و(ق) قصير الآيات، قوي المقاطع، قوي المعاني في تهديد ووعيد.

وهو في السور المدنية في غير الغزوات، طويل الآيات، هادئ المقاطع، يفيض لِينًا ورحمة يبعثان الأمل، ويذهبان باليأس.

وهو في شدته ولينه، وطول مقاطعه وقصرها لا يُبارَىٰ، قد تحدَّىٰ العرب أن يأتوا بمثله بل بعشر سورٍ مِثِلِهِ مُفْتَرَيات بل بسورة من مثله فما فعلوا ولا قدروا.

وقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في حفظ اللغة العربية ونمو علومها، ورقي آدابها؛ فقد سحر النَّاس بيانُه، فعكفوا عليه يحفظونه، ويقتبسون منه ويحاكونه، ويتأثرون أساليبه وألفاظه وتراكيبه، وعكف قومٌ علىٰ تدوين العلوم كالبلاغة والنحو خدمةً له، ومحاولةً لفهم أسراره، ولمَّا دخلت الأمم المختلفة في الإسلام رأوا تعلُّم اللغة العربية وسيلةً من وسائل فهم الدين، فأقبلوا عليها وعدُّوا تعلمها دينًا، وهجر كثير منهم لسانهم ولغتهم من أجلها، ولما اختلفت الأمم في اللهجات، وأصبح لكل أمة لغة عامية، يتخاطبون بها ظلت اللغة الأدبية والكتابية بينهم مشتركة، وكان أكبرُ الفضل في ذلك للقرآن[1].

(١) انظر: المنتخب (٣٠٥، ٤٩) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٩٨-١٠٠) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٨٦).

# الحديث

# تدوينه

يراد بالحديث ما ورد عن رسول الله ﷺ من قولٍ قاله، أو حكاية فعلٍ فعله، وقد أضيف إلىٰ ذلك بعضُ أخبار حُكيت عن الصحابة.

وهذا الحديث لم يدوَّن في حياة النبي ﷺ كما دُوِّن القرآن، بل كان يرويه الصحابة من ذاكرتهم غالبًا، فكانوا يَرْوُون أنَّ النبيَّ ﷺ قال كذا أو فعل كذا بناءً علىٰ ما شاهدوه أو سمعه بعضهم من بعض، ومضىٰ العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعًا، إنَّما كانوا يروونه شِفَاهًا وحفظًا. نعم، إنَّ بعضَ الصحابة كعبد الله بن عمرو كان يدون ما يسمع، ولكنه كان يدونه لنفسه لا ليكون مؤلَّفًا عامًا للناس، وفي القرن الثاني الهجري شرع النَّاس يجمعون الحديث ويدونونه في الكتب.

## أغـراضـه

وللحديث منزلة دينية عظيمة تلي منزلة القرآن، فهو يبين ما ورد في القرآن مجملًا، فمثلا أمر القرآن بالصلاة، ولكنه لم يبين كيفياتها ولا أوقاتها. وفرض القرآن الزكاة ولم يبين مقدارها، ولا نوع المال الذي تجب فيه الزكاة والذي لا تجب، فجاء الحديث فأَوْضَح ذلك كلَّه، وجاء الحديث في الأغراض التي جاء من أجلها القرآن متمما له شارحًا لما أُجمل منه، مفصِّلا لما ورد فيه.

## بلاغته ﷺ[1]

وقد كان رسول الله ﷺ من الفصاحة بالمكانة التي رأيتَ، فلا غرو أنْ كان ما روي عنه من الحديث في منزلة عالية من البلاغة مع ما قد علمت من أنَّ الرواة كانوا يعتمدون علىٰ ذاكرتهم، فكثيرا ما يوضع لفظ مكان لفظ وجملة مكان جملة، بل قد أجاز قوم رواية الحديث بالمعنىٰ، فلم يكونوا يتقيدون التقيد التام بألفاظ الرسول ﷺ.

(١) لمزيد من الاطلاع حول بلاغة النبي ﷺ؛ انظر: المنتخب (٣٧٨، ٨٥) ط، عالم الأدب.

## أثره في اللغة والآداب

كان للحديث فضلٌ علىٰ اللغة والآدب فقد وسِع المادةَ اللغوية بإدخال ألفاظ فقهية ودينية لم تكن معروفة في هذه المعاني من قبل، وكان للنبي ﷺ تعبيرات جديدة فنية مثل (الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ)[1]، (هُدْنَةٌ عَلَىٰ دَخَنٍ)[2]، (وهذا يوم له ما بعده)[3]، (وإنَّ من البيان لَسِحْرًا)[4] وكثير من أمثال ذلك ممَّا عُدَّ ذخيرة أدبية قيمة.

وقد عاون الحديث القرآن الكريم في حفظ اللغة وانتشارها، وكان لتضافر العلماء علىٰ الحديث يجمعونه ويشرحونه ويستنبطون منه أثرٌ كبير في نشر الثقافة العلمية والأدبية[5].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦/ ١٧٧٥).

(٢) حسن: أخرجه أبي داود (٤٢٤٦) وابن حبان في صحيحه (٥٩٦٣) وحسنه الألباني.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٤٦).

(٥) انظر: تاريخ الأدب العربي للزيات (٩٠-٩٤) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٠٢-١٠٣).

# وحدة الأمة العربية

# أثر الفتوح في انتشار اللغة

## * الفتوح:

رأيتَ قبلُ أنَّ رسول الله ﷺ توفي وكان الإسلام قد انتشر في جزيرة العرب، ولكنه لم يكن جاوزها، ثم تتابعت الفتوح علىٰ أيدي الخلفاء من بعده، ففتح العراق، وفُتحت فارس، وفتح الشام، وفتحت مصر. وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبُخارَىٰ وخوارزم وسمرقند إلىٰ (كشغر) وفتحت كذلك الأندلس.

كانت هذه البلاد ذات مدنية عظيمة، ووارثة لحضارات الأمم القديمة، فالعراق وارث الحضارة البابلية والآشورية، والشام وارث الفينيقيين والأموويين والكنعانيين، ومصر وارثة الحضارة المصرية القديمة واليونانية والرومانية، وكانت هذه الممالك تتكلم لغات مختلفة فارسية وقبطية وسريانية وعبرية ويونانية وهكذا، وهي مكونة من أجناس مختلفة سامية وحامية وآريّة، وتدين بأديان مختلفة سماوية وغير سماوية، ولها عقليات مختلفة هي نِتاج بيئاتهم وحضاراتهم.

# انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة

جاء الإسلام فأخضع هذه الأمم جميعًا لحكمه، ونشر فيها تعاليمه، وكان العرب -بحكم الفتح وبحكم أنَّهم ناشرو الدعوة- هُم العنصر السائد في هذه الممالك، وهم القابضون علىٰ زمام الحكم، وهم الولاة والقضاة، ورؤساء الجند.

اختلط العرب بغيرهم من الأمم المفتوحة في السُكنىٰ وفي التزاوج وفي كل مرافق الحياة، ولم تعد الأمة الإسلامية أمةً عربيةً فقط، بل أُممًا مختلفة لها نزعات مختلفة ولغات مختلفة، وكان من نتائج هذا؛ أنْ أصبحت رقعة البلاد الإسلامية مَعرضا تعرض فيه كلُّ أمةٍ ما كان لها من لغة وعلم ونُظُم سياسية واجتماعية، وأحسَّ العربُ -وهم في هذا المعرض- أنَّهم دون غيرهم من الأمم علمًا وفلسفةً ونُظُما اجتماعية واقتصادية، فلم يأنفوا من اقتباس ذلك منهم وصبغهِ بصِبْغتهم، وإلقاء مَسْحَة عليه من روحهم، وتعديله علىٰ حسب مِزاجهم، ولكنهم أحسوا -بجانب ذلك- أنَّ لهم دينًا ولغةً أعلىٰ شأنًا وأعزُّ مكانًا، وأنَّ لهم الحق أن يفخروا بهما ويدعوا إليهما، وقد نجحوا فعلًا في هذه الدعوة، وظل هذا النجاح حليفَهم إلىٰ اليوم، فقد ساد الإسلام هذه الأقطار، وقلَّ مَن ظل متمسكًا بدينه القديم، وسادت اللغة العربية فاجتاحت ما صادفته أمامها من لغة قبطية في مصر إلىٰ لغة سريانية وعبرانية في الشام والعراق، وزاحمت اللغة الفارسية في فارس، وانتشرت هذه اللغة العربية في أنحاء آسيا وأفريقيا

وبعض أنحاء أوروبا انتشارًا يدعو إلىٰ الإعجاب وفَنِيَت -أو كادت- جميعُ فروع اللغات السامية الأخرىٰ، وأصبحت اللغة العربية هي الأداة لنشر الثقافة والحضارة بين هذه الأمم المختلفة الأصقاع المتنائية الأطراف، وذلك بعد أن اقتبست من اللغات المقهورة ما رأت نفسها في حاجة إليه، وبعد أن زادت في مادة لغتها وتراكيبها وأساليبها ما دعا إليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران، وأصبح الأدب العربي هو أدب الفرس والمصريين والشاميين والمغاربة والأندلسيين وغيرهم، وزاده ثروة؛ أنْ صار نِتاجا لهذه الأمم جميعًا.

# الحياة الإسلامية
# مظاهرها الدينية والاجتماعية والسياسية

## المظاهر الدينية

دعا الإسلام إلىٰ عبادة إله واحد، هو إله كل شيء في الوجود، له ما في السموات وما في الأرض، وهو عالم بكل شيء، قادر علىٰ كل شيء، كما دعا إلىٰ أنَّ وراء هذه الحياة حياةً أخرىٰ يكافَئ فيها كلُّ إنسانٍ علىٰ ما أتىٰ من خير وشر، وقرر أن لا قيمة لإنسان إلا بعمله، فليس خيرُ النَّاس أكثرَهم مالًا وأعزَّهم نفرًا، ولكن أكرم النَّاس أتقاهم.

وهذه التعاليم تخالف مخالفة كبيرة ما كان عليه العرب في جاهليتهم من عبادة أوثان، وتكاثر بالمال والبنين، ومناداة بالعصبية، فالإسلام يهدم القبيلة ويُحِلُّ محلها الرابطة الدينية ويقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وفي الحديث: «**ليس منَّا مَن دعا إلىٰ عصبية أو قاتل عصبية**»[(١)].

كان للإسلام أثر كبير في حياة العرب؛ فقد نقلهم من عبادة صنم أو وثن لا يضر ولا ينفع إلىٰ عبادة إله واسع السلطان، واسع العلم، ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، كذلك ألف بين قبائل العرب المختلفة المتحاربة، ودعاهم إلىٰ أن يكونوا كلُّهم كتلة واحدة ويتناسَوْا ما بينهم من إِحَن وأحقاد.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبي داود (٥١٢١) والبيهقي في الآداب (١٧٠) والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٣) وضعفه الألباني في المشكاة (٤٩٠٧).

قوّم الإسلام الأخلاق من جديد، فعدَّ رذيلة بعضَ ما كان يعدُّه الجاهليون فضيلة كالخمر والميسر والانتقام، وعدَّ فضيلةً بعضَ ما كانوا يعدُّونه رذيلةً كالصفح والمسالمة وردع الظالم عن ظلمه، ولو كان من أقرب النَّاس إليك، ووضع للحياة مثلا أعلىٰ غير المثل الأعلىٰ الجاهلي، فقد كان ذلك في الجاهلية الشهامة التي لا حد لها، والكرم إلىٰ حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر، فجاء الإسلام يقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

**مع هذا**؛ فالنزعات الجاهلية لم تُمْحَ محوًا تامًّا، فالعصبية الجاهلية -مثلا- كانت تظهر في كثير من البيئات، وزادت نموًّا في الدولة الأموية، فكان النزاع بين القحطانيين والعدنانيين في كل قُطر، وكان النزاع بين بني هاشم وبني أمية، وأثرت هذه العصبية في الأدب الأموي، فقد انحاز الشعراء إلىٰ قبائل ثم أخذوا يشِيدون بذكر قبائلهم ويهجون غيرهم -كما سترىٰ- ولكنَّ هذا كله لا يغير ما قررنا من أن الإسلام صبغ الناس، إلىٰ حد كبير، صِبغة جديدة ووجَّه نزعاتهم ورغباتهم إلىٰ وجهة جديدة، وكانت الحياة الدينية من عبادة ومدارسة للقرآن والحديث ونحو ذلك متجلية في أكثر البيئات.

# المظاهر الاجتماعية والسياسية

نقل الإسلام العرب إلىٰ طَور اجتماعي جديد فكوّن منهم أمة إسلامية واحدة تدين بدين واحد، وتتكلم بلغة واحدة، وتخضع لنظام واحد، هو الشرع الإسلامي وأخذ العرب يتحضرون وأصبح كثيرٌ منهم ينتمون إلىٰ المواطن بدل انتمائهم إلىٰ القبائل، فكانوا يقولون جند (قنَّسْرِين) وجند (دمَشق) وكانوا يستنكفون من الرجوع إلىٰ البداوة.

أصلح الإسلام كثيرا ممَّا كانوا عليه في الجاهلية من النظم الاقتصادية، كانوا يتعاملون بالربا ويفرطون فيه، فجاء الإسلام يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وكان منهم من يحاول أن يبتز الأموال من أي طريق، فإذا باع نقص الوزن، وإذا اشترىٰ زاد فيه، فجاء الإسلام يقول: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، وكانوا يتلاعبون بالديون فيؤخرون آجالها أو يقدمونها أو يضيفون إليها، أو ينكرونها بتاتًا. فنزل القرآن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلىٰ كثير من أمثال ذلك.

كذلك تعرَّض لكثير من النظم الاجتماعية فأصلحها؛ فقد كان كثيرٌ منهم يتزوج غير مقيَّد بعدد، فحصر الإسلامُ الزواج في عدد محدود ونصَّ علىٰ أنَّ الزوج إذا لم يستطع العدل بين الزوجات، وجبَ عليه ألا يزيدَ علىٰ واحدة:

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وزاد الإسلام في حرية المرأة فجعل لها من حقوق التصرف في أموالها ما للرجل، وشرع توريث المرأة، وما كانت ترث من قبل؛ لأنَّ نظام الإرث في الجاهلية كان مبنيًا علىٰ العصبية والذَّوْد عن القبيلة والأسرة، فكانوا لا يورِّثون إلا من يلاقي العدو ويقاتل في الحرب، وليس للمرأة مجال في شيء من ذلك، وهذه الأنواع من الإصلاح ونحوها رفعت مستوىٰ العرب الخلقي والاجتماعي حتَّىٰ وصلوا في ذلك إلىٰ شأوٍ بعيد.

وثَمَّ شيء آخر؛ وهو أنه كان من أثر هذا الاتحاد، وقوة العقيدة، وخضوع العرب لحكومة تنظم أمورهم أنَّهم لما وُجِّهوا إلىٰ نشر الدعوة وفتح الممالك أَتَوْا من ذلك بما أدهش التاريخ، فتغلبوا علىٰ الفرس وأزالوا دولتهم، واقتطعوا جزءًا كبيرًا من الدولة الرومانية.

وهذا الفتح الكبير جعل مدنية الفرس ومدنية الروم تحت أعين العرب، فتسربت مدنيتهما إلىٰ المسلمين، فامتزجت العادات الفارسية والرومانية بعادات العرب، وكذلك الشأن في كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية. وأصبحت الأمة الإسلامية مكونة من عناصر مختلفة، وتزاوجت الأفكار والنظم والقوانين والعادات، كما امتزجت الدماء، وكانت هذه الممالك غنية بطبيعة أرضها وبكثرة خيراتها ورقي صناعتها، فنَعِم العرب أيضًا بهذا الغنىٰ، واقتنوا الأموال والضياع والعبيد وعاش كثير منهم عيشة ترف ونعيم. وكان لذلك أثر كبير في حياتهم الاجتماعية، وكما اقتبس العرب من الفرس والرومان كثيرًا من نظمهم السياسية كتدوين الدواوين وتنظيم الجيوش، أخذ كثير من الفرس والرومان عن العرب، الدين واللغة فدخلوا في الإسلام أفواجًا، وتعلموا اللغة العربية وحذقوها وتأدبوا بآدابهم، كما أسلفنا.

# الأدب الإسلامي

# تطور الشعر

بينما كانت حياة العرب الأدبية علىٰ الحال التي وصفناها آنفًا، ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع للمسيح فأثَّر ظهورُه في هذه الناحية من الحياة العربية كما أثر في غيرها من أنحاء الحياة أشد تأثير وأبلغه، أو قُل إنه إنَّما أثر في الحياة الأدبية فغيّرها وصورها صورةً جديدة؛ لأنَّه أثر في نواحي الحياة الأخرىٰ فبدّل الكثير منها تبديلًا، فقد رأيتَ أنَّ الإسلام شرع للعرب نُظُما اجتماعية وسياسية واقتصادية لم يكن لهم بمثلها عهد من قبل. قاوموها أوَّل الأمر مقاومةً تختلف قوةً وضعفًا باختلاف الظروف والبيئات، فما هي إلا أن أذعنوا لها حتَّىٰ أثرت في حياتهم العقلية والشعرية شيئًا فشيئًا.

وإذا كان الأدب مرآةَ العقل والشعور، فليس غريبًا أن يكون الأدب العربي بعد ظهور الإسلام مغايرًا قليلا أو كثيرا للأدب الجاهلي؛ لأنَّه يصف حياة غير الحياة الجاهلية، ويصوِّر عقلًا غيرَ العقل الجاهلي، وشعورًا غير الشعور الجاهلي، علىٰ أن تأثير الإسلام في الحياة الأدبية للعرب لم يحدث فجاءة، ولم يتم مرة واحدة، وإنَّما حدث قليلًا قليلًا، وظهر شيئًا فشيئًا، وقضىٰ العرب عصرًا مستمسكين بأدبهم القديم لا يعدِلون أو لا يكادون يعدلون عنه إلىٰ غيره.

وقد بدأ عصر الانتقال هذا بشيء من الحيرة حين تلي القرآن عليهم فأنكروه وأكبروه. لأنَّه جاءهم بنحو من القول غريب لم يكونوا يألفونه، لا من

جهة أغراضه ومعانيه ولا من جهة أساليبه وتفصيل آياته وإحكامها، إنَّما كانوا يألفون هذا النوع الأدبي القديم وهو الشعر يعبرون به عن أغراضهم ويصورون به خواطر نفوسهم ودخائل قلوبهم، قد ألفوا أوزانه وقوافيه وتقطيعاته، وألفوا فنونه ومعانيه وموضوعاته يتصرفون فيها علىٰ النحو الذي صورناه لك منذ حين، فإذا هم يسمعون كلاما يتحدث إليهم في الدين وما يستتبعه من جدال ونضال، ومن نذير وتبشير. ومن اشتراع في أمور الحياة علىٰ اختلافها، في أسلوب لا هو بالموزون المقفَّىٰ، ولا هو بالمرسَل المطلق، ولكنه قد فُصِّلَ تفصيلًا وانسجم انسجامًا جديدًا يطول حينًا ويقصُر حينًا آخر، فأنكروا هذا كله أول الأمر، ثم تدبروه فبهرهم جماله، وقهرتهم قوّته، فأحبوه واطمأنوا إليه، وما هو إلا أن يمضي ربع قرن حتَّىٰ تؤمن به الأمة العربية كلُّها وتتخذه لها نظامًا وقانونًا ومثلًا أعلىٰ في حياتها الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية.

وليس من شكٍّ في أنَّ إنكار بعض العرب للقرآن وإكبار بعضهم، وإجلالهم إياه منذ البعثة إلىٰ أنْ قُبض النبيُّ ﷺ هما الظاهرتان اللتان تختصران الحياة الأدبية للعرب في عصر النبوَّة، فقد انقسم العرب الذين وصلت إليهم الدعوة الإسلامية وتلي عليهم القرآن إلىٰ فريقين؛ فريق يُكبره ويذود عنه، وفريق آخر ينكره ويقاومه، وظهر أثر ذلك كله في الشعر، فنهض جماعة من الشعراء يذودون عن النبي ودينه، وظهرت جماعة أخرىٰ يناضلون عن الدين القديم ويعادون النبي وأصحابه.

**ومهما يكن من شيء**؛ فقد كان هذا الشعر الذي صوَّر الخصومة بين قريش وأنصار النبي جاهليًا في ألفاظه ومعانيه، وفي أساليبه وأغراضه، ولكنه علىٰ هذا كله اشتمل علىٰ أشياء لم يكن يشتمل عليها الشعر من قبل، فتناول معانٍ دينية قلَّما كان عربُ الحجاز يُعْنَون بها أو يلتفتون إليها، وكثرت فيه ألفاظٌ لم تكن تتردد علىٰ ألسنة الشعراء من قبل، وإنَّما ظهرت لأنَّ القرآن استعملها وأذاعها بين الناس، فذُكِرت الجنة والنار، وذكر الإيمان والكفر، وذكر الثواب والعقاب والصلاة والزكاة والصيام وما يشبه هذه الألفاظ

والمعاني، وتفاوتت حظوظ الشعراء من استعمال هذه الألفاظ والقصد إلىٰ هذه المعاني، فمنهم من كان يكثر من ذلك ويلح فيه كعبد الله بن رَواحة[1] من شعراء الأنصار، ومنهم من كان يذكره حينًا ويعرض عنه حينًا آخر كحسان بن ثابت[2]، ومنهم من كان لا يلم به إلا لِماما كشعراء قريش المعارضين للنبي ودينه الجديد.

وقد استتبعَتْ هجرةُ النبيِّ إلىٰ المدينة حروبًا بينه وبين قريش وحلفائها، ونشأت عن هذه الحروب ظروف دعت إلىٰ قول الشعر والإكثار منه، ودعت إلىٰ الفخر والمدح والرثاء والهجاء، وليس من شك في أنَّ الشعر العربي قد نهض في هذا العصر من حياة النبي ﷺ نهضة لم يعرفها في العصر الجاهلي الخالص، وآية ذلك؛ أنَّ الشعر كثر في قريش ولم تكن قريش تُعرف بالشعر وكثرته قبل ظهور الإسلام، وقبل اشتداد الخصومة بينها وبين النبي وأصحابه، ثم جمع الله كلمة العرب علىٰ الإسلام وقُبِض النبي وثارت العرب مرة أخيرة في حروب الردة، فاضطرها أبو بكر رضي الله عنه إلىٰ الإذعان للدين الجديد، ثم دفعها إلىٰ الفتح، ومضىٰ علىٰ سنته الخلفاء من بعده، فانقطعت المعارضة للإسلام في بلاد العرب، وزالت الخصومة الدينية في الحجاز.

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري، من الخزرج، أبو محمد: صحابي، يعد من الأمراء والشعراء الراجزين، كان يكتب في الجاهلية، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر وشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبيّة، واستخلفه النبي ﷺ علىٰ المدينة في إحدىٰ غزواته، وصحبه في عمرة القضاء، وله فيها رجز، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة فاستشهد فيها (٨هـ/ ٦٢٩م). انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ٨٦).

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة، واشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، وعمي قبل وفاته، لم يشهد مع النبي (ﷺ) مشهدًا لعلة أصابته، فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيين في الإسلام، وكان شديد الهجاء، فحل الشعر، كانت وفاته في المدينة سنة (٥٤هـ/ ٦٧٤). انظر: معجم الشعراء العرب (١١٤٢) والأعلام للزركلي (٢/ ١٧٦).

واشتد عمر علىٰ الذين كانوا يذكرون الخصومة القديمة ويروون ما قيل فيها من الشعر أيام النبي ﷺ حتَّىٰ نهىٰ حسان في بعض الأحيان عن إنشاد شعره في مسجد النبي، فضعُفت العناية بالشعر بعض الضعف، وانصرف النَّاس عن الإنتاج الفني إلىٰ الحروب والفتوح وتأسيس الدولة وتمصير الأمصار واستقبال هذا السلطان العظيم الذي بسطه الله للعرب علىٰ الأرض، ضعفت العناية بالشعر بعض الضعف، ولكن العرب لم تنصرف عنه الانصراف كله، وإنَّما ظل فيها شعراء يقولون علىٰ النحو الجاهلي القديم، يمدحون ويُرثون ويهجون ويفخرون ولا سيَّما بالغزو والفتوح، ظلَّ الحُطَيئةُ[1]، وكعب بن زُهير[2]، والشماخ بن ضرار[3]، والنابغة الجعدي[4]، وغيرهم يقولون الشعر

(١) الحطيئة: اسمه جرول بن أوس بن مالك بن جؤيّة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس العبسيّ الشّاعر المشهور يكنىٰ أبا مليكة. قال أبو الفرج الأصبهانيّ: من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، وكان يتصرّف في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسب، ويجيد في جميع ذلك، وكان ذا شرّ وسفه، وكان كثير الهجاء حتَّىٰ هجا أباه وأمه وأخاه وزوجته ونفسه، وهو مخضرم، أدرك الجاهليّة والإسلام، وكان قد أسلم في عهد النبي ﷺ، ثم ارتدّ، ثم أسر وعاد إلىٰ الإسلام، ولقب بالحطيئة لقصره وقال حماد الراوية: لقّب الحطيئة لأنَّه ضرط ضرطة بين قوم فقيل له: ما هذا؟ قال: إنَّما هي حطأة، فلقّب الحطيئة، كانت وفاته (٤٥هـ/ ٦٤٦م). انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٥٠).

(٢) كعب بن زهير بن أبي سلمىٰ، المازني، أبو المضرَّب، شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ، وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ، دمه فجاءه كعب مستأمنًا وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» فعفا عنه النبي ﷺ، وخلع عليه بردته، وهو من أعرق النَّاس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمىٰ، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوّام كلهم شعراء، وقد كَثُر مخمّسو لاميته ومشطّروها وترجمت إلىٰ غير العربية، كانت وفاته (٢٦هـ/ ٦٤٦م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٩١١).

(٣) الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقًا، وكان أرجز النَّاس علىٰ البديهة، جمع بعض شعره في ديوان، شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان (٢٢هـ/ ٦٤٢م). انظر: معجم الشعراء العرب (٧١٠).

(٤) النابغة الجعدي الشاعر المشهور أبو ليلىٰ، له صحبة ووفادة، وهو من بني عامر بن صعصعة، فعن عبد الله بن صفوان قال: عاش النابغة مائة وعشرين سنة، ومات بأصبهان، وروي أن النابغة قال =

كما كانوا يقولونه من قبل، وربما كان من الحق أن نلاحظ أنَّ جماعة من الشعراء انصرفوا أو كادوا ينصرفون عن الشعر بعد وفاة النبي كحسان ولبيد، وأنَّ قومًا آخرين مضوا فيه لم يتأثروا بهذه الحياة الجديدة أو تأثروا بها كارهين كالحطيئة الذي ظل فيما كان فيه من هجاء وإيذاء وتكسُّب بالشعر في غير مروءة ولا تعفف عن المسألة والإلحاف فيها حتَّىٰ اضطر عمر إلىٰ حبسه في ذلك، وكضابئ بن الحارث البرجمي[1] الذي أقذع في الهجاء حتَّىٰ اضطر عثمان إلىٰ حبسه فمات في السجن، هؤلاء الشعراء احتفظوا بجاهليتهم احتفاظًا شديدًا في حياتهم الخاصة وفي تفكيرهم، وفيما كانوا ينظمون من شعر، ولكنهم مع هذا تأثروا في ألفاظهم وبعض معانيهم بالقرآن والحياة الإسلامية الجديدة، فظهرت في شعرهم ألفاظٌ ومعانٍ لم تكن مألوفة من قبل، والناس جميعًا يذكرون قول الحطيئة في هجاء الزِّبْرِقان بن بدر.

**مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يُعدَم جَوازيه ... لا يذهب العُرْفُ بينَ الله والنَّاسِ[2]**

= هذه الأبيات:

**المرء يهوىٰ أن يعيـ ... ـش وطول عمر قد يضرُّه**

**تَفْنَىٰ بَشَاشَتُه ويَبْـ ... ـقَىٰ بعد حُلو العيش مُرُّه**

ثم دخل بيته فلم يخرج حتَّىٰ مات سنة (٦١هـ/ ٥٧٠م).

(١) ضابئ بن الحارث بن أرطأة بن غالب بن حنظلة البرجمي، شاعر له شعر في الأصمعيات، أدرك النبي ﷺ، وكان قد استعار كلبًا من بني جرول فطال مكثه عنده فطالبوه به فامتنع ثم عرضوا له فأخذوه، فغضب ورماهم بهجاء شنيع، فحبسه عثمان بن عفان، فلم يزل بحبسه إلىٰ أن مات سنة (٣٠هـ/ ٦٥٠م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٥٠٨).

(٢) البيت من البسيط وهو له كما في ديوانه (٥٣).

# تكوُّن الأدب الإسلامي

وانقضت خلافة أبىٰ بكر وعمر وشَطْر من خلافة عثمان في حربٍ وفتحٍ وبسطٍ لسلطان الإسلام علىٰ بلاد الفرس والروم، فكان شباب الأمة العربية وأولو البأس منها منصرفين عن القول إلىٰ العمل، وكان شيوخ هذه الأمة وذوو الرأي منصرفين إلىٰ تدبير الدولة والعناية بسياستها، وكان جماعة من شيوخ البادية محتفظين في باديتهم بحياتهم الجاهلية خاضعين للنظام الجديد، منهم من يحبه ويطمئن إليه، ومنهم من يكرهه وينفر منه، وهم يقولون الشعر ويرددونه ويتخذون قوله وروايته سَمَر الليل ولهو النهار، وفي أثناء هذا كله كانت الأحداث تنشأ ويتلو بعضها بعضا، وكان نشؤها وتعاقبها يُغيِّران من حياة هذا الجيل العربي، ويكوّنان الجيل الناشئ تكوينًا جديدًا، فلم تكد تنتهي خلافة عثمان حتَّىٰ كانت الحروب والفتوح وما أفاء الله علىٰ المسلمين من فيء، وما امتلأت به أيدىٰ العرب من مال، وما نشأ عن هذا من اختلاط العرب بالأمم الأجنبية اختلاطًا شديدًا، قد أخذت تعمل في حياة العرب عملها، وتُحدِث فيها آثارها الطبيعية، فظهر التنافس واشتد، وعظُم الجهاد بين العرب، وانصرفت سيوفهم عن العدو إلىٰ أنفسهم، وكانت بينهم فتن سياسية ودينية سُفكِت فيها دماء الآلاف من المسلمين، وقُتِل عثمان وعلي، ونشأت خصومة عنيفة قسمت هذه الأمة إلىٰ أحزاب وشيع، بعد أن كان الإسلام قد وحّد رأيها وجمع كلمتها وأخضعها لسلطان واحد وهو سلطان الخلافة، وكما أنَّ الخصومة التي كانت بين النبي وقريش أنطقت الشعراء بكثير من الشعر

وبعثت فيهم روحًا قويًا، أنطقت الخصومةُ التي نشأت بين المسلمين في أيامِ عثمانَ وعليٍّ الشعراءَ بكثير من الشعر أيضا، وظهر فيه هذا الروح القوي الذي يظهر عادة في الآثار الأدبية شعرًا ونثرًا كلما اشتدت الخصومة وعظُمَ الجهاد بين الأحزاب.

ثم استقر الأمر بعد ذلك لخليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان زعيم الأمويين نحو عشرين سنة، هدأت فيها ثائرة الخصومة وعادت فيها كلمة المسلمين إلىٰ الاجتماع، ولكنه إنَّما كان هدوءًا مؤقَّتًا، هدوءَ مَن يستجمع قواه ليُحسن الوثوب، فما كاد يموت معاوية سنة ٦٠ للهجرة حتَّىٰ عاد العرب إلىٰ ما كانوا فيه من خصومة وصراع لا يشبههما إلا ما كانوا عليه من الشر قبل ظهور الإسلام، فكثُرَت أحزابهم السياسية، واشتدت الحروب بين هذه الأحزاب بالسيف واللسان، وكثر الفساد، واضطرب أمر الدولة، وطمع فيها الأجنبي، واستيئس النَّاس من الأمن والعافية، وظهر في هذا الاضطراب أمرُ الشعر قويًا كما كان إبَّان الفتن الأولىٰ بين علي ومعاوية، ولكنَّ الشعر الذي ظهر قويًا في هذا العصر مخالف مخالفة شديدة للشعر الذي نعرفه عن الجاهليين قبل الإسلام وإبَّان ظهوره وأيام الخلفاء الراشدين؛ ذلك لأنَّ عصر الانتقال كان قد انقضىٰ، وكان هذا الانتقال قد تمَّ، وكان الجيل العربي الذي أدرك الجاهلية والإسلام قد انقرض أو كاد، ونشأ مكانه جيل آخر إسلامي خالص، ولد في الإسلام ونشأ في ظله وأخذ بآدابه وأصوله ونُظُمه، ولم يشهد من الحياة الجاهلية شيئًا، ولم يعرف من أمرها إلا ما كان يَقُصُّه عليه الآباء والأمهات، ورأىٰ حياةً جديدة فيها سعةٌ في العيش ولين، وفيها نعمة ويسر، واتصل بأجيال من النَّاس لم يكن آباؤه يتصلون بهم، اتصل بالفرس والروم ورعايا الفرس والروم، ونشأ علىٰ هذا كله نشأةَ العزيز المتسلط وقد دانت له الأرض وذلَّت له الأمم، فليس غريبًا أن يكون لهذا الجيل الجديد عقل جديد مخالف لعقل الجيل الذي سبقه، وشعور مغاير لشعور هذا الجيل، وليس غريبًا

أن تكون لهذا العقل الجديد والشعور الجديد مرآةٌ جديدة هي هذا الأدب الذي نسميه بالأدب الإسلامي، وهو أدب إسلامي حقًّا؛ لأنَّه كما رأيتَ قد نشأ نشأة إسلامية خالصة. ومن هذا تعوَّد القدماء من علماء المسلمين إذا ذكروا الشعر الجاهلي أن يدلوا بهذا اللفظ علىٰ كل الشعر الذي قيل منذ العصر الجاهلي إلىٰ أن ظهر هذا الجيل الجديد من شعراء الإسلام، وعلىٰ هذا الجيل الجديد وحده كانوا يطلقون لفظ الشعراء الإسلاميين.

## صورة من الحياة العربية الجديدة

ولأجل أن تفهم هذا الشعر الإسلامي علىٰ وجهه، وتضعه من الشعر العربي كله في موضعه، وتتبين الأغراض التي كان يقصد إليها، والألفاظ والأساليب التي كان يصطنعها، لأجل أن تفهم تطور الشعر الجاهلي إلىٰ هذا الطور الجديد، يَحْسُن أن نعطيك صورةً موجزة صحيحة بقدر الاستطاعة من الحياة العربية الجديدة التي كان يصورها الشعر العربي الجديد، فقد بَعُد عهدُ العرب بتلك الحياة القديمة التي كان السلطان فيها للقبيلة ورؤسائها، وخضعت الأمة العربية كلُّها لسلطان سياسي واحد منظم قائم علىٰ أسس جديدة، وأصبح العربي لا يكسب حياته من الغزو والغارة كما كان يفعل من قبل، وإنَّما يكسبها من طرق أخرىٰ يجهلها في أكثر الأحيان قبل الإسلام فُشرِعت له بعده، ومُهِّدت له السبل إليها، منها التجارة ومنها استثمار الأرض، ومنها الجندية وما كانت تضمن لصاحبها من عطاء في بيت المال، ومنها أعمال الدولة علىٰ اختلافها في السياسة والإدارة والقضاء، واتسع أفق الحياة أمام العربي فتجاوز بلاد العرب إلىٰ البلاد الإسلامية التي بعُدت حدودُها في الشرق والغرب، واشتملت علىٰ أمم كان لها قبل الإسلام البأس والقوة، وأصبحت منذ الفتوح خاضعة مغلوبة تدين لهذه الأمة الفاتحة، وتنفق ما تملك من جهد وقوة فتملأ خزائنها بالمال وتمكِّنها من الحياة اليسيرة اللينة، وبعد أن كان العرب المقيمون في العراق خاضعين أو كالخاضعين لسلطان الفرس أصبحوا سادةً لهؤلاء الفرس، وبعد أنْ كان العربُ المقيمون في مشارف الشام خاضعين

أو كالخاضعين لسلطان الروم أصبحوا سادة للشام، وأصبح الروم المقيمون في الشام رعايا لهم، وبعد أن كان العربي لا يزور مصر إلا لِماما، استقر سلطان العرب في مصر واندفعت إليها أفواجهم يقيمون ويستعمرون، ثم تجاوزوها إلىٰ إِفْرِيقِيَة الشمالية، ثم عبروا المضيق إلىٰ إسبانيا فاستقروا فيها سادةً منتصرين، كل هذا غيّر من نفوس العرب وأخلاقهم وحياتهم، ثم لم تلبث هذه الأمة كما قدمنا أن ظهر فيها التنافس في السلطان، فانقسمت أحزابًا وشيعًا، يجاهد بعضها بعضًا، وينصِب بعضها الحرب لبعض.

*** وقد كانت بعد أن مات معاوية منقسمة إلىٰ أحزاب قوية نستطيع أن نسميها ونحصيها:**

- **فحزب**: التف حول بني أمية في الشام يناصرهم ويريد أن يثبت لهم الملك.
- **وحزب**: قد التف حول عبد الله بن الزبير في الحجاز يذود عنه ويعينه علىٰ ما يطمع فيه من سلطان.
- **وحزب**: قد التف حول أهل البيت النبوي من بني هاشم في العراق يدعو إلىٰ أن تكون لهم الخلافة.
- **وحزب**: رابع ينكر هذه الأحزاب كلها ويرميها بالكفر، ويصفها بالمروق من الدين، ويُشِبُّ عليها أشدَّ الحروب نُكْرا، وأقبحَها أثرًا، وهو حزب الخوارج الذين ينكرون أن تكون الخلافة في قبيلة أو شعب دون شعب، ويريدون أن يكون الأمر كله شورىٰ بين المسلمين.

وكان الجهاد بين هذه الأحزاب الأربعة متصلًا عنيفًا منكَر الأثر، ولا سيَّما بعد أن مات معاوية واضطرب الأمر علىٰ يزيد، وبعد أن مات يزيد ابن معاوية بنوع خاص، وكان الأدب أداة من أدوات هذا الجهاد، لكل حزب

شعراؤه وخطباؤه، ثم انتصر حزب الأمويين علىٰ حزب الزبيريين فمحاه محوًا، وانتصر علىٰ الشيعة فاضطرها إلىٰ معارضة تظهر متىٰ استطاعت وتخفىٰ متىٰ اشتدَّ البأس، ولكنَّها قائمةٌ علىٰ كل حال لها أنصارُها ولها شعراؤها، وخطباؤها، ولم يثبت لبني أمية إلا حزب الخوارج يجاهدهم جهادًا عنيفًا، حتَّىٰ إذا انتصروا عليه لم يضعف أمره إلا ريثما يقوىٰ مرة أخرىٰ.

## مواطن الأدب الإسلامي

* **وعلىٰ كل حال**: قد انبسط سلطان الأمويين علىٰ أقطار البلاد الإسلامية وعادت وحدة الدولة العربية أيام عبد الملك بن مروان وبنيه إلىٰ شيء يشبه ما كانت عليه أيام معاوية، وأصبحت مراكز القوة العربية منذ ذلك الوقت ثلاثة:

- **الشام**: وفيها الخلافة وما تستتبعه من جلال وبأس وسطوة.
- **والعراق**: وفيه الشيعة والمعارضة، وفيه فريق من الذين كانوا ينصرون ابن الزبير، وفيه كثرة من الفرس وأخلاط من أمم أخرىٰ، وفيه مال كثير وأرض خصبة، وفيه لهذا كله اضطراب متصل ومعارضة مستمرة، وصراع بين الآراء السياسية والدينية لا يكاد ينقطع.
- **والحجاز**: وهو مهد الإسلام وفيه مكة موطن قريش والمدينة موطن الأنصار، وقد اقتضت سياسة بني أمية أن يصبح موطنًا للشباب من أبناء المهاجرين والأنصار، يقيمون فيه لا يتركونه إلا بإذن من الخليفة، وقد فُرضت لهم من بيت المال أرزاق ضخمة، وأخذ الخلفاء أنفسهم بالتوسعة عليهم في العطاء، وورثوا عن آبائهم الفاتحين أموالًا لا تكاد تحصىٰ، فهم أهل نعمة وترف وفراغ وفيهم فصاحة ولَسَن، ولهم شعور رقيق، وحِس دقيق، وعواطف

ملتهبة، وفيهم شيء من اليأس والامتعاض[1] والسخط علىٰ الدولة القائمة يُظهِرونه متىٰ وجدوا إلىٰ إظهاره سبيلًا، ويخفونه حين لا يكون من إخفائه بُدّ، واختلف حال الأدب في هذه المراكز الثلاثة باختلاف شؤونها السياسية والطبيعية والاقتصادية.

(١) الامتعاض: الغضب الشديد والألم النفسي من التصرفات السيئة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢١١٠).

## الأدب في الأمصار

فأما الشام؛ فلم يكن فيه أدب إلا ما كان يُنقل إليه مع الوافدين علىٰ الخلفاء من أهل العراق والحجاز؛ لأنَّ كثرة العرب التي كانت تقيم به كانت يمانية لا حظَّ لها من فصاحة ولا لَسَن، وليس لها ما للعرب العدنانية من هذا المِزاج المنتج الذي نراه فيما ورثنا عنهم من أدب جاهلي وإسلامي، وأمَّا العراق؛ فكان بطبيعة ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية موطنًا لهذا الأدب المضطرب الخصيب الذي كان في غليان مستمر، وإنتاج متصل، فيه معارضة سياسية، ونضال بين الأحزاب، ففيه إذن خطابة سياسية وشعر سياسي، وفيه جهاد بين القبائل وتنافس بين الأفراد علىٰ نحو ما كان يقع بين العرب في جاهليتهم، ففيه إذن شعرٌ يكثر فيه الهجاء للأفراد والجماعات ويكثر فيه الفخر، ويكثر فيه المدح أيضًا، وأمَّا الحجاز؛ فكان -بحكم ظروفه التي قدمناها- موطنًا لشيئين متناقضين أشد التناقض؛ كان موطنا للنُّسك والتقوىٰ والجد في درس العلوم الدينية وتحصيلها لمكان مكة والمدينة من ذلك، وكان موطنا للَّهو والعبث والمجون لمكان هؤلاء الأشراف من قريش والأنصار وثروتهم واضطرارهم إلىٰ الفراغ.

## أغراض الشعر الإسلامي

كل هذا يعطيك صورة من الحياة العربية في أواسط القرن الأول للهجرة، وهو في الوقت نفسه يبين لك الأغراض التي كان يقصِد إليها الشعر الإسلامي في ذلك العصر، فقد احتفظ بفنونه القديمة التي كان يصطنعها في الجاهلية. احتفظ بالمدح والهجاء والرثاء وما إليها، وأضاف إليها فنونًا لم تكن. كما غيَّر بعض الفنون القديمة تغييرًا قويًا أو ضعيفًا.

# الغَـزَل

فمن الفنون التي قويت في هذا العصر الغزَل، ولم يكن حظُّ الجاهليين منه إلا شيئًا يسيرًا إذا قيس بحظ الغزل في هذا العصر، وذلك أنَّه لما كانت الحياة الإسلامية الجديدة، وكثر ترف الأشراف في الحجاز، ورق مِزاج أهل البدو من هذا الإقليم بتأثير القرآن والحياة الجديدة، ظهر هذا الفنّ في الحجاز علىٰ أنَّه فنٌّ يُقصد لنفسه، ويصف عواطف الشاعر وما يعبَث بنفسه وقلبه من الأهواء والميول، واختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين في هذا الفن باختلاف بيئاتهم، فأما أهل البادية منهم؛ فكان شعرُهم عُذْرِيًّا عفيفًا لا إثمَ فيه ولا فجور، ولا تجاوز للمألوف من أخلاق النَّاس، وإنَّما هو الحبُّ الطاهر القوي الحاد، يتسلط علىٰ قلب الشاعر ونفسه فيملك عليه أمره، ويرقىٰ به إلىٰ طورٍ من أطوار النفس يشبه الهيام، فيصوَّر هذا الطور في شعر عذب لذيذ لا حرج في قراءته علىٰ أحد، وفي قراءته لذة لكل إنسان، وزعيم هؤلاء الغَزِلِين من أهل البادية جميلُ بنُ مَعْمَر الذي اشتهر (بصاحب بثينة)[1]، والذىٰ تغنَّتْ باديةُ الحجاز بغزله عصرَ بني أمية، ورُوِي لنا من شعره الشيءُ القليل نجده متفرقًا في كتب الأدب.

---

(١) جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو، شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل النَّاس أخبارهما، وشعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر، كانت منازل بني عذرة في وادي القرىٰ من أعمال المدينة ورحلوا إلىٰ أطراف الشام الجنوبية، فقصد جميل مصر وافدًا علىٰ عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلًا ومات فيه سنة (٨٢هـ/ ٧٠١م). انظر: معجم الشعراء العرب (١٠٨٧).

وأمَّا أهل المدن في مكة والطائف والمدينة؛ فكان منهم كما قدمنا أصحاب ثروة ضخمة ولهو كثير، وكان شعرهم يصف حياتهم هذه وصفًا صادقًا، ويصور ما فيها من لهوٍ تصويرًا دقيقًا، فظهر فيه شيء من الإثم والعبث يختلف باختلاف مِزاج الشعراء. ومن هؤلاء الأحوص بن محمد الأنصاري[1] الذي ما زال به إسرافه في اللهو والتعرُّض لأهل بلده وولاة المدينة حتَّىٰ عُذب ونفي أيام سليمان بن عبد الملك، وكالعرجي[2] في الطائف ومكة وقد كان فاتكًا مسرفًا في الفتك والتعرض لولاة مكة والسخط علىٰ خلفاء دِمَشق حتَّىٰ عذب وحبس ومات في السجن.

---

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري، من بني ضبيعة، لقب بالأحوص لضيق في عينه، شاعر إسلامي أموي هجّاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر ونصيب، وكان معاصرًا لجرير والفرزدق، وهو من سكان المدينة، وفد علىٰ الوليد بن عبد الملك في الشام فأكرمه ثم بلغه عنه ما ساءه من سيرته فردّه إلىٰ المدينة وأمر بجلده فجلد ونفي إلىٰ دهلك (وهي جزيرة بين اليمن والحبشة) فبقي بها إلىٰ ما بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وأطلقه يزيد بن عبد الملك، فقدم دمشق ومات بها سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٣م). انظر: معجم الشعراء العرب (٥١١).

(٢) عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، أبو عمر، شاعر، ولقب بالعرجي لسكناه قرية (العرج) في الطائف، غزل مطبوع، ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة، كان مشغوفًا باللهو والصيد، وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين، وسجنه والي مكة محمد بن هشام في تهمة دم مولىٰ لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن إلىٰ أن مات سنة (١٢٠هـ/ ٧٣٧م). انظر: معجم الشعراء العرب (٧٤٠).

# عمر بن أبي ربيعة

وكعمر بن أبي ربيعة وهو زعيم هؤلاء الغزِلين من أهل المدن بل زعيم الغزلين في هذا العصر بوجه عام، وقد يصحُّ أن نعتبره زعيمَ الغزلين في الشعر العربي إلىٰ هذا العصر الذي نعيش فيه، فلا بد من وقفة قصيرة عنده نلم فيها بشيءٍ من شعره إلمامًا.

أما أخباره؛ فكثيرة مبثوثة في الكتب، جمع منها صاحب الأغاني مقدارًا لا بأس به، منها الصحيح ومنها المخترَع، والمعروف أنه ولد في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ ومات سنة٩٣هـ ونشأ في أسرة غنية من بني مخزوم في مكة نشأة حسنة، فيها ترف ونعمة، وكان أخوه الحارث بن أبي ربيعة رجلًا صالحًا تقيًّا، وكان من ولاة عبد الله بن الزبير علىٰ البصرة، ولما شبَّ عمر بن أبي ربيعة انصرف إلىٰ الشعر عن كل شيء إلا حياة المترفين، وكان فيما يقول الرواة يقضي عامه بمكةَ في لهو وقول الشعر، حتَّىٰ إذا كان موسمُ الحجِّ خرج من مكة في زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة، وتعرض لنساء العظماء وبناتهم حتَّىٰ يراهن، ولم يكن يتحرج أن يرقُبهنَّ في أثناء الطواف بالكعبة حتَّىٰ إذا انصرفن عن مكة قال فيهن الشعر، وظل كذلك إلىٰ أن مات.

وليس من شك في أنَّ عمر قد ابتدع في الشعر فنًا جديدًا بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنًىٰ، فقد جعل الغزل غرضا يقصد لنفسه لا لشيء آخر،

كما جعله الشعراء الغزلون من أهل البادية، وسلك إلىٰ هذا الغرض طُرقًا مختلفة ولكنها كلها طريفة، وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنَّها كانت قصصية، فلم يكن عمر يتحدث عن النساء كما تعوَّد الشعراء أن يتحدثوا عنهنَّ، وإنَّما كان يتحدث عن نفسه، ويقصُّ ما وقع له معهن، أو ما تخيل أنه قد وقع له معهن، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية قصيرة، ولكنها من العذوبة والرقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحس والقلب بحيث تملؤك إعجابًا بها واطمئنانًا إليها.

ولم يكن في أكثر حالاته يقصُّ كما يقصُّ غيرُه من الشعراء، وإنَّما كان يبعث في قصصه حياة قوية، فيُنطِق الأشخاصَ ويُحدِث بينهم من الحوار الدقيق ماَ يلَذُّ ويَسْحَر، ولو أتيح له أن يطيل وينوع لوصل إلىٰ اختراع الشعر التمثيلي من بعض النواحي، وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك في أنه لا يجمع كل ما قال عمر.

# تحليل قصيدة لعمر

ولنأخذ من هذا الديوان الضخم قصيدةً مشهورة يتخذها الأدباء عنوانًا لشعره، وإن كان من شعره الكثير ما قد يكون أجمل منها وألذ موقعًا في النفس، وفي هذه القصيدة يتمثل روح عمر وما فيه من خفة وظَرْف، كما يتمثل حظه الغريب من تيسير الشعر وتسهيله، واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التي لا تبلغ بها السهولة إلىٰ الإسفاف، ولا تصل بها القوة إلىٰ الغلظة والغرابة، والتي تمثل أحسن تمثيل لغة قريش في هذا العصر، ولغة النساء من قريش بنوع خاص، وهذه القصيدة قصة صغيرة ولكنها ممتعة مؤثرة، فقد بدأها الشاعر بذكر صاحبته (نُعْم) وسؤال نفسه أهو منصرف عنها في يوم من الأيام؟ ثم يذكر حاجته إليها وكَلفَه بها، وتعذُّر الاتصال بينه وبينها، واستحالة سُلُوِّ عنها، وعجزه عن الصبر عن لقائها.

**تهيم إلىٰ نُعْمٍ فلا الشملُ جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا القَلْبُ مُقْصِرُ**

**ولا قُرْبُ نُعمٍ إنْ دَنَتْ لكَ نافِعٌ ... ولا نأيُها يُسلِي ولا أنتَ تَصْبِرُ**[1]

وأحب أن تلاحظ تكرار (نُعْم) والإلحاح في التكرار، لا في هذين البيتين وحدهما، بل فيهما وفيما قبلهما من الشعر، فهو لم يكثر من ذكر هذا الاسم عبثًا، وإنَّما هو اسم حبيب إليه، كريم عليه، فهو يردده لأنَّه يجد في ترديده لذة وراحة، ثم يذكر الشاعر أنَّ هناك عقبةً دون ما يريد من حب (نُعْم) لو عرضت

(١) البيتان من الطويل وهما له كما في ديوانه (٩٢).

لغيره لانتهىٰ عن هذا الحب إلىٰ يأس مريح، ولكنه لا يرعوي ولا يزدجر، ولا يفكر فيما يعترض حبَّه من صعاب، وهذه العقبة هي أنه لا يستطيع أن يزور نُعْمًا أو يدنو منها حتَّىٰ يحس من ذي قرابة لها بغضًا له وحقدًا عليه ومكرًا به وتهيُّئًا لإيذائه، وهو مع ذلك يتجنب أو يحاول أن يتجنب زيارتها رفقًا بها وإشفاقًا عليها، فقد عُرِف حبه إياها وتبِعه الرقباء لا يفارقونه، فهم يُشَهِّرُون به إن زارها ويُشهِّرون به في شيء من النُكْر لا يحبه.

**أَلِكني إليْها بالسَّلامِ فإنَّه　　　يُشهَّرُ إلمامي بها وينكَّرُ**[1]

فانظر إليه كيف يتجنب زيارة (نُعم) مخافة التشهير والنكير ثم لا يلبث هو أن يشهر بها نفسه فيقول:

**بآيةِ ما قالتْ غَداةَ لقيتُها　　　بِمدَفْع أكنانٍ أهذا المُشهَّرُ**[2]

ثم انظر إليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حوار إذا عرض لهن رجل كنَّ يعرفنه فأنكرنه لِما تغير من شأنه.

**قِفِي فَانْظُرِي أَسْمَاءُ هَلْ تَعْرِفينَهُ　　　أَهذا الْمُغِيرِيُّ الَّذِي كَانَ يُذْكَرُ**

**أَهذا الَّذِي أَطْرَيْتِ نعتًا فَلَمْ أَكُنْ　　　وَعَيشِكِ أَنْسَاهُ إِلَىٰ يَوْم أُقْبَرُ**

**فَقَالَتْ نَعَمْ لا شَكَّ غَيَّرَ لَوْنَهُ　　　سُرَىٰ اللَّيْلِ يُحْيِي نَصَّهُ وَالتَّهجُّرُ**

**لَئنْ كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالَ بَعدنَا　　　عَنِ العَهْدِ وَالإِنْسَانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ**[3]

فنعم تنكره، وأسماء تعرفه، وتعلل ما كان من تغيره بكثرة ما هو فيه من سُرَىٰ الليل وسفر النهار، ثم يدفع هو عن نفسه ويصدق ما ذهبت إليه أسماء من تعليل فيقول أن نُعما إنَّما رأت رجلا لا يستقر، فهو متعرض لحر الشمس، متعرض لبرد الليل، أخو سفر، جواب أرض، تتقاذفه الفلوات، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل، لولا أنَّ عليه بقيةً من نعمة، ثم يستلذ هذا التشهير لما فيه

---

(١) البيت من الطويل وهو له كما في ديوانه (٩٣).

(٢) السابق.

(٣) الأبيات من الطويل وهي له كما في ديوانه (٩٤).

من ذكرىٰ محببة إليه فيمضي فيه، ويستأنف قصة حلوة كثر أمثالها في شعره حتَّىٰ عرف بها، وحتىٰ ذكر كلما قرئ مثلها في شعر شاعر آخر.

ومجمل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبته ليلة وهي نازلة مع أهلها بذي دَوْران فتجشَّم سُرىٰ الليل، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار بينهما من حوار في أسلوب قصصي رائع إلىٰ أن يقول:

**فلمَّا أجزْنا ساحةَ الحيِّ قلنَ لي ... ألم تتَّقِ الأعداءَ والليلُ مُقْمرُ؟**

**وقلن أهذا دأبُكَ الدَّهْرَ سادِرًا ... أما تستحي أو تَرْعوِي أو تُفكِرُ؟**

**إذا جئتَ فامْنَحْ طَرْفَ عينيك غيرَنا ... لِكي يَحْسبوا أنَّ الهوىٰ حيثُ تنظرُ**

وعلىٰ هذا النحو من الغزل القصصي أو القصص الغزلي يمضي عمر بن أبىٰ ربيعة في كلِّ شعره، وسواء أكان قصصه هذا تصويرًا لما وقع أم خيالًا صرفًا أم مزاجًا من الحق والخيال، فهو يصور علىٰ كل حال حياة المترفين في الحجاز وميولهم وأهواءهم ومذهبهم في التعبير عن هذه الميول والأهواء كما أنه يصور حياةَ بعضِ نساء العرب وميولهن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن.

وقد رأيت في لغته من السهولة واللين ومن المتانة والقوة ما قدَّمنا الإشارة إليه، وأمثال عمر بن أبي ربيعة من الغزِلين في الحجاز يذهبون مذهبه أو مذهبًا يقارب مذهبَه، وقد كثر هذا النحو من الغزل في الحجاز كما قدمنا، وكانت نشأته وكثرته نتيجة للحياة الحجازية[(١)].

(١) للاطلاع علىٰ المزيد من حياة عمر وشعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٧٢، ٨٢) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٤٧-١٥١) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٦٦- ١٦٨).

# الغناء

فليس غريبًا إذن أن يظهر مع هذا الغزل وينمو معه أيضًا فنٌّ آخر ملازم له هو أيضًا نتيجة حياة الترف واللهو وصفاء المزاج ورقة الطبع وحدة العاطفة، وهو الغناء؛ والحق أن الغناء ظهر في الحجاز في نفس الوقت الذي ظهر فيه الغزل، ولم يُعرف في الأقاليم العربية الأخرىٰ إلا حين انتقل إليها من الحجاز، كما أنَّ الذين تغزَّلوا من أهل العراق والجزيرة ونَجْد إنَّما كانوا يتأثرون أصحاب الغزل من أهل الحجاز، وليس هنا موضع البحث عن أصل الغناء وتاريخه، ولكنَّ شيئًا لا بُدَّ من الإشارة إليه، وهو أنَّ كثرة الموالي من الفرس والروم رجالًا ونساء في الحجاز كان لها أثرٌ قويٌّ جدًّا في نشأة الغناء ونموه كما كان له أثرٌ ما في نشأة الغزل ونموه أيضًا.

# الشعر السياسي

ومن الفنون التي استُحْدِثت في الإسلام الشعر السياسي. وقد كانت نشأته ظاهرة طبيعية دعت إليها الحياة الجديدة التي قدَّمنا تصويرها وما كان فيها من صراع بين الأحزاب، وجهاد بين آرائها المختلفة في نظام الحكم، وأشخاص الناهضين به من الزعماء، واتصال هذا النظام وهؤلاء الأشخاص بالدِّين الذي هو أساس الحكم عند المسلمين، علىٰ أنَّ هذا الشعر السياسي الجديد إنَّما هو طور انتهىٰ إليه الشعر العربي من بعض نواحيه، فقد كانت الخصومة تقع في الجاهلية بين القبائل، فيقول فيها الشعراء مدافعين عن قبائلهم أو محرضين لها علىٰ الحرب والقتال، أو داعين لها إلىٰ الصلح والسلم. وقد نشأت الخصومة بين المسلمين والوثنيين أيام النبوة فقال الشعراء فيها الشعر كما قدَّمنا. ونشأت كذلك الخصومة بين المسلمين أنفسِهم حين ظهرت الفتنة السياسية أيام عثمان فقيل فيها الشعر. فظاهر أنَّ الشعر السياسي الذي نريد أن نتحدث عنه الآن إنَّما هو نتيجة التطوُّر الطبيعي لهذا الشعر الذي كان يقال في الخصومات بين القبائل والجماعات.

ويمكننا أن نميز هذا الطور من أطوار الشعر السياسي، بأنَّه طورُ تنظيم الأحزاب السياسية واستقرارها علىٰ قواعد معينة ثابتة، فلم يكن هذا الشعر خاضعًا للظروف التي تعرِض لحياة الأفراد والقبائل، وإنَّما كان صورة صحيحة لحياة الأحزاب التي يناضل عنها وينطق بلسانها؛ فحزب الشيعة كان

يقوم علىٰ أن الخلافة يجب أن تكون في بني هاشم، أو بعبارة أدق يجب أن تكون في أبناء علي من بني هاشم، لأنَّهم أحفاد النبي ﷺ وأبناء عمه، ولأنَّ النبيَّ قد أوصىٰ لأبيهم علي بالحكم كما يذكرون، وحول هذا الأصل الأساسي نشأت أصول أخرىٰ إضافية تعرضت للتغيير والتطور، ولكنَّ الأصل الأساسي ظلَّ قائمًا فيما تقرأ من شعر الشيعة فستراه مدافعًا دائمًا عن هذا الأصل، مناصرًا للَّذين ينهضون به من الزعماء، مناضلًا عنهم خصومهم من زعماء الأحزاب الأخرىٰ، وقُل مثلَ ذلك في حزب الأمويين، الذي كان يقوم علىٰ أنَّ الحكم يجب أن يكون في بني أمية، لأن خليفة أمويا وهو (عثمان) تولىٰ خلافة المسلمين من طريقها الشرعي فقتل ظلمًا ولم يُثأر به، وبنو أمية أولياؤه الأقربون، فلهم المطالبة بدمه، ولهم إقرار الأمر في نصابه بعد مقتله، وهم بعدُ أقوىٰ قريش وأشدها بأسًا، وقد ظاهرتهم من المسلمين جماعة ضخمة ليست أقل من الجماعة التي ظاهرت خصومهم.

ومن هنا لا تكاد تقرأ شعرًا سياسيا يدافع عن بني أمية أو يمدحهم إلا رأيتَ فيه إشارة ما إلىٰ هذا الأصل الذي يعتمد عليه الأمويون في النهوض بأعباء الحكم. ومثل هذا يقال في حزب الزبيريين الذي نهض ينكر علىٰ بني أمية استئثارهم بالحكم ونقله إلىٰ أبنائهم دون استشارة للأمة أو عناية برأيها فيه، مع أنَّ نظام الخلافة الإسلامية يقوم علىٰ الشورىٰ لا علىٰ هذا النحو الأجنبي الذي تتوارث فيه أمور الدولة كما كان يفعل القياصرة والأكاسرة، فلا بد إذن من أن ينزل بنو أمية عن هذا الحكم الذي اغتصبوه اغتصابًا، وأن يردوه إلىٰ الأمة تجعله لمن تشاء وتختار من زعمائها وأعلامها. وكان حزب الخوارج يقوم أول الأمر علىٰ إنكار التحكيم بين الخصمين علي ومعاوية، والجهر بأن هذا التحكيم خطأ، وبأنَّ الخصمين اللذين قبلاه قد تجاوزا بقبوله حدود الدين. أما معاوية فلأنه لم يكن صاحب حق شرعي في الخلافة، وإنَّما كان واليًا بغَىٰ علىٰ الخليفة، فلمَّا خاف الهزيمة لجأ إلىٰ التحكيم خديعةً

وكيدًا، وأمَّا علي فلأنه حين قبل هذا التحكيم شك فيما كان يعتقد من أنه صاحب الحق الشرعي في الخلافة، وما كان له أن يشك في هذا الحق، فأما وقد فعل، فليس من الخلافة في شيء بل هو قد تجاوز الدين ولا بد من أن يتوب إلىٰ الله، وإلا فالخوارج عدوٌّ له وحرب عليه.

وعلىٰ هذه الأصول قامت هذه الأحزاب السياسية الأربعة وأخذت تختصم، ويجاهد بعضها بعضا، وظفر كل منها بحظ قليل أو كثير من الحكم، فكانت له فيه سياسة خاصة ميزته عن غيره من الأحزاب، ودافع الشعراء عن سياسة الحزب في الحكم كما دافعوا عن الأصل الذي قام عليه.

وليس هنا مكان التفصيل في درس هذه الأحزاب، ومن ينطق بلسانها من الشعراء وما كان يمتاز به كل شاعر منهم في فنه وأسلوبه الشعري، إنَّما يكفي أن تختار شاعرًا من هؤلاء الشعراء السياسيين ونعطيك صورةً موجزةً من حياته وفنه تكون نموذجًا لغيره من الشعراء، وليكن هذا الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات، فهو أخفُّ هؤلاء الشعراء ظلًّا، وأهذبُهم روحًا، وأيسرهم شعرًا.

# عُبَيْدُ الله بنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ

كان قرشيًّا من بني عامر بن لؤي وكان حريصًا قبل كل شيء علىٰ قرشيته معتزًا بها محبًّا لها، وكان مذهبه السياسي ملائمًا لهذا كله، فكان يرضيه أن تستقر العزة والبأس في قريش، وأن تكون وحدها صاحبة السلطان علىٰ الأرض، يؤيدها في ذاك أقرب العرب إليها وهم المُضَرِيُّون، فمذهبه السياسي إذن لا يعتمد علىٰ دينٍ، وإنَّما هو مذهبٌ قَوامُه العصبيةُ لقبيلته، وهو من أجل ذلك يحب القرشيين جميعًا، ويألَم لما وقع بينهم من الفُرقة، ويَودُّ لو ظلَّت كلمتهم مجتمعةً كما كانت أيام أبىٰ بكر وعمر، وهو إذا كره الأمويين وهجاهم أشدَّ الهجاء وأقذعَه، وأحبَّ الزبيريين وناصرهم، فإنَّما يفعل ذلك لأنَّ الأمويين كانوا يعتزون باليمنيَّة علىٰ المُضَرِية فهم طُغاة يعتزون بالأجنبي، علىٰ حين كان ابن الزبير قرشيًّا يدعو إلىٰ سلطان قريش ويعتز في تأييد هذا السلطان بمُضَر، لهذا انضمَّ عبيد الله إلىٰ الزبيريين، ولزم مصعب بن الزبير في العراق مجاهدًا بسيفه ولسانه حتَّىٰ انتصر عبد الملك وقُتل مصعب، ففرَّ عبيدُ الله إلىٰ الكوفة واستخفىٰ عند امرأة أنصارية يقال لها (كثيرة) فلبث عندها دهرًا لا يعرفها ولا تعرفه، حتَّىٰ سمع ذات يوم مناديًا يعلن أنَّ بني أمية يهدرون دمه ويبرئون ذمتهم ممَّن آواه، فأشفق علىٰ صاحبته ورحل عنها بعد أن حملته وزودته، وانتهىٰ إلىٰ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر من زعماء الهاشميين فما زال عبد الله يجد في الشفاعة له عند عبد الملك حتَّىٰ ظفر له بالأمان، ثم دخل علىٰ عبد الملك ومدحه فلم تطب نفسُ الخليفة بالرضا

عنه، فلزم عبد العزيز بن مروان والي مصر لأخيه عبد الملك، وأقام معه في مصر حتَّىٰ مات.

ومن هذا الوصف القصير لحياته تتبين أنه كان أول الأمر زبيريّ المذهب، فلمَّا انقضىٰ أمر الزبيريين التجأ إلىٰ هاشمي واستعان به حتَّىٰ اتصل ببني أمية فلازم زعيمًا من زعمائهم وهو عبد العزيز بن مروان، وليس في هذا شيء من التناقض أو الاضطراب في المذهب السياسي، فقد عرفت أنَّ الرجل كان قرشيَّ المذهب، وأنه كان يدعو إلىٰ أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة وإلىٰ أن تكون أهواء قريش مؤتلفة، وآراؤها مجتمعة، وقد تحقق هذا بعد قتل ابن الزبير، فاجتمعت قريش كلها حول بني أمية، واستقر السلطان كله لقريش، فلا جُناح علىٰ عبيد الله أن يمدح من شاء من أعلام قريش، ويلزم من أحب من زعمائها، وانظر إلىٰ هذه الأبيات التي تمثل رأيه السياسي صريحًا جليًّا إبَّان الخصومة العنيفة بين الزبيريين والأمويين.

**حبَّذا العيشُ حينَ قومي جميعٌ ... لم تُفرِّق أمورَها الأهواء**
**قبل أن تطمعَ القبائلُ في مُلْكِ ... قَريش وتشَمَت الأعداء**
**أيها المشتهي فَنَاءَ قريشٍ ... بِيَد الله عُمرُها والفناءُ**
**إنْ تودِّع مِن البِلادِ قريشٌ ... لا يكنْ بعدهم لحيٍّ بقاءُ**



**نحنُ منَّا النبيُّ الأميُّ والصِّديقُ ... مِنا التقيُّ والخلفاءُ**
**وقتِيلُ الأحزاب حَمْزَةُ مِنا ... أَسدُ الله والسَّناءُ سَناءُ**
**وعليٌّ وجعفرٌ ذو الجَنَاحَيْ ... نِ هناك الوصيُّ والشهداءُ**
**والزبيرُ الذي أجاب رسول الله ... في الكرب والبلاءُ بلاءُ**
**والذي نغَّص ابن دُومَة ما تُو ... حي الشياطينُ والسيوفُ ظِماء[1]**

---

(١) يريد بابن دومة المختار الثقفي وبالذي نغصه مصعب بن الزبير [م].

فــأبــاح الــعِــراقَ يــضــربــهــم بالسيف صَلْتًا وفي الضرابِ غَلَاء

غــيــبـوا عــن مــواطــنٍ مُـفْـظِـعـاتٍ لــيــس فِــيــهــا إلا الــسـيــوفَ رَخــاءُ[1]

فهو كما ترىٰ يذكر ذلك العهد القديم في شيء من الأسف شديد، لافتراق الرأي واختلاف الهوىٰ، وهو يفخَر بمُلك قريش ويرىٰ أنه قِوام الدولة، وحياة الشعوب الإسلامية، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي في حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته وهو إذن إنَّما يمدح مصعب بن الزبير ويناصره لأنَّه ماضٍ في هذه السُنَّة، سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها.

وعبيد الله بن قيس الرقيات مبتكر في الشعر السياسي حسن الابتكار، سنَّ للشعراء من بعده سُنة وُفِّق بعضُهم إلىٰ الإجادة فيها وأخطأها بعضهم الآخر، فقد كان عبيد الله غَزِلا محبًا للنساء يكاد يشبب بهن جميعًا، وكأنه كان منقطعًا للغزل قبل أن يشترك في الخصومات الحزبية، فلمَّا اشترك فيها استغل فنه الغزلي في جهاده الحزبي فغاظ خصومه السياسيين بالتغزل بنسائهم وبناتهم، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصًا علىٰ ألّا يسيئ إلىٰ هؤلاء النساء لأنهنَّ من قريش، ولأنَّ عبيد الله صاحب نفسٍ كريمة وقلب ذكي، وعلىٰ هذا النحو تغزل بأمِّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك، فغاظ عبد الملك وابنه وأخاه ولكنه أرضىٰ أمَّ البنين نفسَها؛ لأنَّه مدحها ولم يسئ إليها، ويقال إنَّها جدّت في الشفاعة له عند عبد الملك حتَّىٰ وُفِّقت.

وعبيد الله بن قيس الرقيات رقيقُ اللفظ سهلُه إلىٰ حد غريب في العصر الذي عاش فيه، وربما كان لمخالطته النساء وإسرافه في هذه المخالطة أثر في هذه الرقة. وقد لاحظها عليه عبد الملك فاستجاد بعض معانيه، ووصف قافيته في القصيدة الآتية بالخنوثة، فاحتج عبيد الله بأنه إنَّما يتأثر القرآنَ الكريم في هذه القافية. والواقع أنه تأثرَ القرآنَ في شعره كلِّه فاكتسب من

---

(١) انظر ديوانه (١٤١).

هذا التأثر لينا وسهولة وعذوبة لم تكن لغيره من الشعراء الذين عاصروه، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما كان يَحسُن أن يبلغه، فقد شذَّ عن المألوف من أصول النحو أحيانًا، وهو إلىٰ رقة لفظه وسهولته، رقيق المعاني يسيرها، ولا سيَّما حين يبكي أو يرثي، ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لتشعرَ شعورًا قويًا بأنها إنَّما صُنعت للنائحات.

ذهب الصِّبا وتركتُ غَيَّتِيَهْ ... ورأىٰ الغوانِىٰ شَيْبَ لِمَّتِيَهْ
وهجرنني وهجرتُهن وقد ... غَنِيَتْ كرائمها يطُفْنَ بِيَهْ
إذا لِمَّتى سوداءُ ليس بِها ... وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بِإخوَتِيَهْ
الحاملين لِواءَ قومِهِم ... والذائدِين وراءَ عَوْرَتِيَهْ
إن الحوادثَ بالمدِينةِ قد ... أَوْجَعْتني وَقَرَعْنَ مَرْوَتَيهْ[1]
وَجَبَبْنَنِي جَبَّ السنَامِ فلم ... يتركن رِيشًا في مَنَاكِبِيهْ
وأتىٰ كِتابٌ مِن يزِيدَ وقد ... شُدَّ الحِزامُ بِسَرْجِ بَغْلَتِيَهْ
يَنْعَىٰ بني عبد وإِخوتَهم ... حَلَّ الهلاكُ علىٰ أَقارِبيَهْ
ونعىٰ أسامَةَ لي وإِخوَتَه ... فَظَلِلْتُ مُسْتَكًا مَسامِعِيَهْ
كالشارِبِ النشوانِ قَطَّرةَ ... سَمَلُ الزِقاقِ تَفِيض عَبْرتِيَهْ
سَدِمًا يُعزِّيني الصَّحيحُ وقد ... مرَّ المنونُ علىٰ كرِيمتِيَهْ
كيفَ الرُّقادُ وكلما هَجَعَتْ ... عيني ألمَّ خيالُ إخوتِيَهْ
تبكي لهم أسماءُ مُعْوِلةً ... وتقولُ لَيْلَىٰ وَارَزِيَّتِيَهْ
واللهِ أبرحُ في مُقَدِّمةٍ ... أَهْدِي الجيوشَ، عَلَى شِكَّتيَهْ
حتىٰ أفَجِّعهم بإخوتهم ... وأسوقَ نِسوتَهم بِنِسوتِيَهْ[2]

وقد قال هذه القصيدة حين وصلت إليه أنباء الحرَةَّ، وهي الوقعة التي كانت لجيش يزيد بن معاوية مع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، والتي

(١) تقول العرب قرع مروته أي أصابه بالشر[م].

(٢) انظر: ديوانه (١٧٧).

قُتل فيها كثيرٌ من أصحاب النبي ﷺ واستبيحت فيها المدينة ثلاثة أيام حتَّىٰ أذعنت، وبايع أهلها علىٰ أنَّهم عبيد ليزيد، وليست هذه القصيدة في حاجة إلىٰ تحليل أو شرح فهي واضحة وسهلة تفسر نفسها، وتمثل مزاجًا رقيقًا ونفسًا حسَّاسة، وشاعرًا يعرف كيف يحزن، وكيف يصف حزنه، وكيف يَشْرَك غيره معه في هذا الحزن[1].

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته ونماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٦٠، ٧٧) ط، عالم الأدب.

# الأخطل

وشاعرا آخر أنفق حياته وفنَّه في السياسة، ولكنه علىٰ ذلك اشترك في فنون أخرىٰ من الشعر، فبرع فيها حتَّىٰ عُدَّ من زعماء الشعراء السياسيين، ومن فحول الشعراء الإسلاميين بوجه عام، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلبي.

وُلد أيام عمر بن الخطاب في قبيلة تغلِب التي كانت تسكن الجزيرة والعراق، وكانت من القوة والعزة وشدة البأس بحيث لم ترضَ أن تدخل فيما دخل فيه العرب كافة من الإسلام، وتنزل عن نصرانيتها حين دهمتها جيوش المسلمين، فأقرها عمر علىٰ نصرانيتها، وقبل منها الجزية، وآثرت هي أن تشترىٰ دينها بشيء من المال تؤديه إلىٰ الحكومة في كل عام. وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية في الجزيرة، ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلًا فهَجَا امرأةً أبية ثم أمضىٰ شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل، فلمَّا كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبني أمية احتاج يزيد بن معاوية ولي العهد حينئذ إلىٰ شاعر يهجو له الأنصار، فدُلَّ علىٰ الأخطل فكلفه ذلك وقَبلِه بعد أن نَكَل عنه غيره من الشعراء المسلمين تحرجًا من هجاء قوم آووا النبي ﷺ وكانت لهم في الإسلام هذه السابقة الحسنة، قبل الأخطل هذه المهمة لنصرانيته، فهجا الأنصار وألح في هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتَّىٰ شفىٰ نفس يزيد، وتعرض هو لخطر عظيم، وانقطع بعد ذلك ليزيد

فلزمه أميرًا وخليفة حتَّىٰ مات، ثم اتصل بخلفاء بني أمية بعده ولا سيَّما عبد الملك بن مروان، وفي عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه في الشعر، حتَّىٰ هابه الشعراء المُضَريون، وحسبوا له حسابًا، وحتىٰ آثره عبد الملك علىٰ غيره من شعراء عصره جميعًا، وأمر من يعلن بين النَّاس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين، ذلك أنه ناصر بني أمية وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل، وبينما كان نضاله للأنصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الحظوة فيه كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عمل صادق مخلص يدافع عن مصالح قبيلته ومكانتها.

كان الأخطل من تغلب، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة وشمال الشام، فلمَّا كان الإسلام أقبلت علىٰ هذه البلاد قبائل مضرية من قيس فزاحمت فيها ربيعة كما زاحمت فيها العرب اليمانية، وكانت هذه القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير علىٰ بني أمية فاتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين والتلغبيين علىٰ محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق حتَّىٰ تم النصر لعبد الملك علىٰ مصعب بن الزبير.

ومن هذا كان شعر الأخطل السياسي ذا مظهرين مختلفين، فأما أحدهما؛ فالدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن سلطانها، وتثبيت حقها في هذا السلطان، وأمَّا التالي؛ فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام، والإلحاح في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة.

حياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق في فنون من الشعر لم يكد يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك، وكان بحكم هذا الاتصال أيضًا أقدر أهل عصره علىٰ النضال السياسي، وكان بحكم حياته الخاصة في قبيلته واشتراكه الفعلي فيها كان يعرض لهذه القبيلة من

بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره علىٰ وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة والانتصار، وكان يستبيح الخمر ويشربها فيُسرف في شربها ويستعين بها علىٰ قول الشعر، فكان أقدر أهل عصره علىٰ وصف الخمر وأبرعهم فيه لا سيَّما وقد أعرض كبار الشعراء في ذلك العصر عن وصف الخمر خوفًا من السلطان وتحرجا من الإشادة بما نهىٰ عنه الإسلام.

وديوان الأخطل ضخم، فيه الشعر الجيد الكثير ولكننا نقف عند قصيدة منه تكاد تختصر فنونه الشعرية كلها، وهي التي مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره علىٰ مصعب بن الزبير وكان لها ولأخرىٰ مثلها في الأدب العربي وحياة القبائل العربية شأن عظيم، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال:

**خَفَّ القَطِينُ فراحوا مِنك أو بَكَرُوا ... وأزعجْتُهُم نَوًىٰ في صَرْفِها غِيَرُ**[1]

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر في آثارهم ويُتْبعهم طرفه كئيبًا مولَّها: فشبه نفسه في هذه اللحظة بالسكران قد عبثت به الخمر، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره وانتهز هذه الفرصة فوصف الخمر وصفًا قصيرًا جيدًا، ثم انتقل إلىٰ صاحباته اللاتي ارتحلن فشبَّب بهنَّ تشبيبًا قصيرًا حسنًا، وألمَّ بشيء من أخلاق النساء وإيثارهن للشباب وانصرافهن عن الكهول والشيوخ فقال:

**يا قاتلَ الله وَصْلَ الغَانِيَاتِ إذا ... أَيْقَنَّ أنك ممَّن قد زها الكِبَرُ**
**أعرضن لمَّا حَنَىٰ قَوْسي مُوَتِّرُها ... وابيضَّ بعد سوادِ اللِّمَّةِ الشَعَرُ**
**ما يرعوِين إلىٰ داعٍ لِحاجتِهِ ... ولا لهنَّ إلىٰ ذي شَيْبَةٍ وَطَرُ**[2]

ثم يصف طريقهن ويخلُص من هذا كله إلىٰ مدح عبد الملك وتهنئته بالفوز وإثبات حقه في الخلافة فيقول.

(١) البيت من البسيط وهو له كما في ديوانه (٧٨).
(٢) الأبيات من البسيط وهي له كما في ديوانه (٨٠).

**إلىٰ امرئٍ لا تَعَدِّينا نوافِلُه — أَظْفره الله فليَهْنأ له الظَّفَرُ**

**الخائِضِ الْغَمْرَ والميمونِ طائرُهُ — خليفةِ الله يُسْتَسْقَىٰ بهِ المطَرُ[1]**

ويمضي في مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود، وإيثار المسلمين بالخير والمهارة في تدبير الأمور، وقيادة الجيوش وقهر العدو، ويقصُّ من ذلك ما كان في حرب عبد الملك لمصعب حتَّىٰ يتم له النصر، فإذا أرضىٰ عبد الملك انتقل إلىٰ بني أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجمله، وصور من أخلاقهم ما أُعجب به المعاصرون جميعًا حتَّىٰ عدوا الأخطل فيه أشعر العرب وذلك قوله:

**حُشْدٌ علىٰ الحقِ عَيَّافو الخنا أُنُفٌ — إذا ألـمَّت بهِم مكروهةٌ صَبَروا**

**وإن تَدَجَّت علىٰ الآفاق مُظلِمةٌ — كان لهم مَخْرَجٌ مِنها ومُعْتَصَرُ**

**أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرون بهِ — لا جَدَّ إلا صغِيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ**

**لم يَأْشَرُوا فِيه إذ كانوا مواليَه — ولو يكون لِقومٍ غيرِهم أَشِروا**

**شُمْسُ العداوةِ حتَّىٰ يُستقادَ لهم — وأعظمُ الناسِ أحلامًا إذا قَدَروا[2]**

علىٰ أنَّ الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير، ولكن لها آثارًا سيئة لم تزُل بعد، وما زال في المنهزمين مكر وخداع وكيد، فالأخطل يحذر بني أمية من هؤلاء المنهزمين، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن بلائه حين دافع عنهم الأنصار، فيقول:

**بني أمية قد ناضلتُ دونَكم — أبناءُ قومٍ همُ آوَوْا وهمُ نَصَروا**

**أفحمتُ عنكم بني النجّار قد عَلِمَت — عُلْيا مَعَدٍّ وكانوا طالما هَدَروا**

**حتىٰ اسْتَكانوا وَهُمْ مِنِّي علىٰ مَضَضٍ — والقولُ يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإِبَرُ**

**بني أمية إنِّي ناصِحٌ لكم — فلا يبيتنَّ فِيكم آمنًا زُفَرُ[3]**

---

(١) البيتان من البسيط وهي له كما في ديوانه (١٦٧).

(٢) الأبيات له كما في ديوانه (١٠٤).

(٣) الأبيات من البسيط وهي لما في ديوانه (١٠٣).

والأخطل شديد الحرص علىٰ أن تجني قبيلته ثمرة النصر، فهو يذكر عبد الملك ببلاء تغلب في الحرب فيقول:

**وقد نُصِرْتَ أمِيرَ المؤمِنِين بِنا ... لمَّا أتاك ببطن الغُوطةِ الخَبَرُ**

ويمضي بعد ذلك في هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة في المواقع المختلفة تصويرًا دقيقًا فيه شدَّةٌ وسخرية لاذعة، حتَّىٰ إذا فرغ من قيس التفت إلىٰ أنصارهم من كُليب رهط جرير، الذي كان يدافع عن قيس بلسانه، فيهجوهم هجاء مُرًّا مُقْذِعًا.

وقد اضطرت هذه الخصومة بين تغلب وقيس الأخطل إلىٰ أن يهجو جريرًا ويدخل فيما بينه وبين الفرزدق من خلاف سنحدثك عنه بعد حين، فأصبح الأخطل بذلك من شعراء «النقائض»، وذوي الشأن النَّابه في الهجاء، ولكنَّ هجاء الأخطل يمتاز عن هجاء صاحبَيْه بشيء من القصد والاعتدال، وتجنُّب الإقزاع الذي يتجاوز حدود الخلق، وفي أيام الوليد بن عبد الملك مات الأخطل وقد تقدمت به السن، واستطاع أن يكسب لنفسه مركز الزعيم السياسي في قومه وعند الخلفاء.

إلىٰ جانب هذين الفنين اللذين استُحدِثا في الإسلام (فن الغزل وفن الشعر السياسي) تطورت الفنون القديمة تطورًا ظاهرًا، فاتَّسعت أغراضُها باتساع أفق الحياة العربية؛ فبعد أن كان الشاعر القديم إذا مدح لم يكن يتجاوز أفق القبيلة التي يمدح زعيمها، أصبح في هذا العصر يمدح الولاة، ويمدح الأمراء، ويمدح الخلفاء، وما أبعد الفرق بين سلطان الوالي والأمير والخليفة في الإسلام، وسلطان الزعيم من زعماء القبائل في الجاهلية، وجَدَّت معانٍ يحرص النَّاس عليها ويتنافسون فيها، ومعانٍ أخرىٰ ينفر النَّاس منها ويكرهونها أشدَّ الكره، فتغيَّرت مذاهبُ الشعراء في الفخر والمدح والهجاء والرثاء تغيرًا يختلف قلةً وكثرةً باختلاف حظِّ الشعراء من المحافظة علىٰ السُنن الجاهلية القديمة في الشعر.

وبينما كان أصحاب الغزل يُمعِنون في غزلهم، وأصحاب السياسة يمعنون في سياستهم، كان هناك شعراء آخرون يحتفظون بالسُنَّة الجاهلية القديمة، فيقصِدون إلىٰ فنون الشعر كلها، ويتصرفون فيها خاضعين علىٰ كل حال لهذا التطور الذي أشرنا إليه آنفًا.

وأظهر هؤلاء الشعراء، مع الأخطل، الفرزدق وجرير[1].

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته ونماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٣٧، ٦٣ ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٦٨ - ١٧١) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٥١- ١٥٣).

# الـفـرزدق

فأما الفرزدق؛ فهو أبو فِراس هَمَّام بن غالب من دارِم، ثم من تميم، يُعرف بالفرزدق لجُهُومَةٍ كانت في وجهه علىٰ ما يقول الرواة. لا تُعرف سنة مولده بالدقة. ولكنه كان شابًا يقول الشعر سنة ٣٦ للهجرة، فقد قدّمه أبوه إلىٰ عليٍّ بعد وقعة الجمل، فنصح له عليٌّ بحفظ القرآن، وكان شابًا تقدم به الشباب في أيام معاوية. وأكبر الظن أنه ولد في خلافة عثمان أو آخر خلافة عمر. وقد ظهر ميلُه إلىٰ قول الشعر منذ طفولته، فحُفظ عنه شعرٌ جيد يمثل نفسًا كريمة طامحة إلىٰ المجد، قاله حينما كان طفلا يرعىٰ الغنم لأمه. وكانت نشأته كنشأة الأخطل في قبيلة عزيزة شديدة البأس، كثيرة العدد، ضخمة الثروة، وكانت أسرته الخاصة من أقوىٰ أسر تميم وأغناها وأكرمها، حتَّىٰ إن كرمها ليشبه الإسراف، وكان الفرزدق قد ورِث عن أسرته وقبيلته عزة النفس، وشدة البأس، ومضاء العزيمة، والنفور من الخضوع للنظام، والإذعان للسلطان، وكان إلىٰ ذلك طويلَ اللسان حديدَهُ، شَكِسًا محبًّا للخصومة، يهجو الأفراد والجماعات من قومه حتَّىٰ يشكوه إلىٰ أبيه، ثم يسرف في الهجاء حتَّىٰ يرفع أمره إلىٰ زياد والي العراق لمعاوية، فإذا طلبه زياد فرَّ وأخذ ينتقل في مدن العراق وقُراه وقبائله. يقول في ذلك الشعر الجيد، حتَّىٰ تضيق به الأرض فيترك العراق كلَّه لزياد، ويلجأ إلىٰ المدينة فيمدح واليها سعيد بن العاص، ويستجير به فيجيره ويستمر فيما هو فيه حتَّىٰ يموت معاوية ويزيد، وتفسد أمور الدولة بكثرة الحروب الداخلية،

ويشتد الاضطراب في العراق. وهنا يظهر الفرزدق مرة أخرىٰ شكسا شديد الشكيمة، حديد اللسان قد عجز السلطان عن تقويمه واضطراره إلىٰ الاعتدال، ولكن ظهر له خصم سيكون أشدَّ علىٰ نفسه من السلطان، وسيضطره إلىٰ أن يفكر قبل أن يقول، كما أنه سيضطره إلىٰ أن يُجوِّد الشعر ويُعْنَىٰ به حتَّىٰ ينبغ فيه[1].

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته ونماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٤٠، ٦٧ ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٧١- ١٧٥) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٥٣-١٥٦).

# جـريـر

وهذا الخصم هو جرير بن عطية بن الخَطَفَي من كليب ثم من يربوع، ثم من تميم، كان أحدث سنًا من الفرزدق، وكان من قبيلة قوية عزيزة ولكنها دون قبيلة الفرزدق، وكانت أسرته الخاصة فقيرة قليلة الحظ من الشهرة والصيت بالقياس إلىٰ أسرة الفرزدق وكان أبوه مُعْدَمًا أو كالمعدم، فلم تخْلُ نشأته إذن من البؤس والضيق، وكأنَّ هذه الظروف نفسَها قد أعانت ما في هذا الصبي من استعداد للتفوق والنبوغ علىٰ أن يظهر ويؤتي ثمره، فقد قال الشعر صبيا كصاحبَيْه، وأظهر حدة وشدة علىٰ خصومه من قبيلته ومن القبائل التي كانت تخاصم قبيلته، حتَّىٰ ظهر الشر بينه وبينهم، وعظم أمره، فتعرض له الشعراء فغلبهم جميعًا، وما زال الهجاء يجرُّ عليه الشرَّ شيئًا فشيئًا حتَّىٰ وقعت الخصومة بينه وبين شاعر من رهط الفرزدق، يقال له البَعِيث[1] ألحَّ عليه جرير في الهجاء، فاضطر الفرزدق إلىٰ أن يذود عنه، فانصرف جرير عن البعيث إلىٰ الفرزدق، وانصرف الفرزدق عن البعيث إلىٰ جرير.

واستطارت بين الشاعرين خصومة منكرة، تجاوزا فيها حدود الأخلاق والنظام والدين، وعجزت السلطات كلها عن ردهما عنها، وأصبحت هَمَّ

(١) البَعِيث المُجَاشِعي: خداش بن بشر بن خالد، أبو زيد التميمي، المعروف بالبعيث: خطيب، شاعر، من أهل البصرة، قال فيه الجاحظ: أخطب بني تميم إذا أخذ القناة، كانت بينه وبين جرير مهاجاة دامت نحو أربعين سنة، ولم يتهاج شاعران في العرب في جاهلية ولا إسلام بمثل ما تهاجيا به، توفي بالبصرة سنة (١٣٤هـ/ ٧٥١م). انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ٣٠٢).

النَّاس ولهوهم، وموضوع البحث الأدبي حياتهما ثم إلىٰ الآن، وقد استمرت هذه الخصومة بين الشاعرين نيفا وأربعين سنة، منذ مات يزيد إلىٰ أن مات الشاعران سنة أربع عشرة ومائة، وكان كلٌّ من الشاعرين يمدح ويفخر ويرثي ويعرض للسياسة ويتغزل، ولكنهما كانا يهجوان بنوع خاص ويتفوقان في الهجاء، والناس مختلفون في تقديم أحدهما علىٰ الآخر، ولكنهم يكادون يتفقون علىٰ أنَّ الفرزدق انفرد بالفخر، وعلىٰ أنَّ جريرًا تفوَّق بالهجاء، وعلىٰ أنَّ حظَّ الفرزدق من الغزل دون حظ جرير، أما الرثاء؛ فلجريرٍ فيه قصيدةٌ مأثورة رثىٰ بها امرأته فوُفِّق إلىٰ شيء من الإجادة عظيم، علىٰ حين لم يكن رثاءُ الفرزدق إلَّا كلامًا متينًا رصينًا لا أثرَ للحزن فيه[1].

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته ونماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٤٤، ٧٢) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٧٥- ١٧٨) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٥٦- ١٦٠).

## مقارنة بين الفرزدق وجرير

وشعر الفرزدق صُلْب خشن الألفاظ، غليظ المعاني في أكثر الأحيان، حتَّىٰ إنه ليتغزل فيَثْقُل لفظُه علىٰ الأذن، وتجفو معانيه عن القلب، وفي شعر جرير رقة ولين وعذوبة، ومعانيه حلوة سائغة محببة إلىٰ النفس، وقد كان الفرزدق فاجرًا جافيَ الغزل، وكان جرير عفيفًا حلوَ النسيب، والفرزدق إذا هجا مال بهجائه إلىٰ الفخر، وجرير إذا هجا مال بهجائه إلىٰ اللذع، أي أن الفرزدق ينظر إلىٰ نفسه وهو يهجو خصمه، فيُكبر نفسه ويُصغر عدوَّه، وجرير ينظر إلىٰ خصمه يستقصي نقائصه وعيوبه، فإذا أعياه الاستقصاء اخترع من العيوب والنقائص ما شاء.

# النـقـائـض

وقد سميت القصائد التي تبادلها الشاعران في الهجاء (النقائض) وشاع هذا النوع من الشعر في العصر الأموي شيوعًا شديدًا، وقد كان معروفًا من قبل ولكنه لم يكن كثيرًا مطردًا، والأصل في ذلك أن يقول الشاعر قصيدة فينقضها عليه خصمُه، أي يرد عليها، ويلتزم في ذلك ما التزمه صاحبه من الوزن والقافية، وكثيرًا ما يعرض لنفس تلك المعاني التي قصد إليها الشاعر فينفيها أو يقلبها أو يفسدها بأي وجه من الوجوه، وأول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير بالهجاء يائيته التي أولها:

**أَلَـم تَـرَ أَنّـي يَـوْمَ جَـوّ سُـويْـقَـةٍ ... بَكَيْتُ فَقالتْ لِي هُنَيْدَةُ مالِيا**
**فَـقُـلْـتُ لَـهـا إنَّ الـبُـكـاءَ لَـرَاحَـةٌ ... بِهِ يَشْتفِي مَنْ ظَنَّ أنْ لا تَلاقِيا**[(١)]

ثـم يمضي الشاعر في ذكر صاحبته، وما يجسد من حب لها ولوعة لفراقها، حتَّىٰ إذا فرغ من ذلك في أبيات قصيرة التفت إلىٰ البعيث الذي استعان به علىٰ جرير فهجاه هجاء مُرًّا ووصفه بالضعف والجبن وسوء النسب، ثم ينتقل إلىٰ جرير نفسه فيشتمه، ويصفه بالذلة والقلة ويفخر عليه بحبه ونسبه، ولا يطيل في هذه المرة، فرد عليه جرير ببائيته التي أولها:

---

(١) البيتان من الطويل وهما له كما في ديوانه (٨٩٥)، و(يوم جوّ سويقة): من أيام العرب وحروبها، و(جوّ سويقة): موضع قرب المدينة النبوية، و(هنيدة): عمة الفرزدق، و(ماليا): الأصل «مالك» لأنَّه خطاب منها له، لكنه عدل عنه، فحكىٰ قولها بالمعنىٰ. انظر: شرح أبيات المغني (٦/ ٢٦٢) وشرح الشواهد العربية من أمات الكتب النحوية (٣/ ٣٤٣، ٣٤٢).

ألا حيِّ رَهْبًا ثُمَّ حيِّ المَطالِيا     فقد كان مأنوسًا فأصبحَ خالِيا[1]

وفيها غزل طويل عذب رقيق، يصلح للغناء؛ لأنَّه يصوِّر نفسًا عذَّبها اليأس وعبِث بها الوجد[2] في غير طائل، ثم يعاتب أباه أو جده وأسرته الأدنين لكثرة ما يسيئون إليه ويخذلونه، مع أنه لا يلقاهم إلا بالود والمعروف والذود عنهم، ويفرغ بعد ذلك لأسرة الفرزدق فيهجوها؛ لأنَّها أسرة صُنَّاعٍ قُيونٍ[3] لا شرف لهم ولا بلاء، ويفخر بقومه قليلًا وبنفسه كثيرًا، ويصف خصومه بالغدر وإسلام الجار.

والهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء كله علىٰ هذا النحو، فيه فخر وإشادة بفضائل الشاعر وقبيلته في الجاهلية والإسلام، ثم فيه ذمٌّ وتشهيرٌ بالخصم وقبيلته في القديم والحديث، وفي هذا الشعر جنايات منكرة علىٰ الأخلاق والأعراض والدين، ولكنَّه علىٰ الرغم من هذا كله من أنفع المصادر التاريخية لحياة العرب في جاهليتهم وإسلامهم، كما أنَّه مرآةٌ صادقةٌ لأخلاق هذه البيئات من العرب في القرن الأول للهجرة، وبفضل هذا الشعر حفظ أكثر اللغة من الضياع.

---

(١) البيت من الطويل وهو له كما في ديوانه (١/ ٧٤)، و(رهبا والمطاليا): موضعان، و(المطالىٰ): حمع مطلاة: وهو ما انخفض واتسع من الأرض، و(مأنوس): أي من حيث الأهل، و(خال): قفر. انظر: شرح نقائض جرير والفرزدق (١/ ٣٤٥).

(٢) الوجد: حرقة في النفس من العشق أو الحزن. انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (١١/ ٧٠٧٨) والتعريفات (٢٥٠) ومعجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٤٠٢).

(٣) القين: القاف والياء والنون أصل صحيح يدل علىٰ إصلاح وتزيين، ومن ذلك القين: الحداد، لأنَّه يصلح الأشياء ويلمها، وجمعه قيون. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤٥).

# الخطابة

## دواعي الخطابة

العربي بطبعه فصيح، ذَلِقِ اللسان، مفطور علىٰ حب القول والتصرف في ضروبه، إذا تكلم أعجبته لغته فأطال، وإذا استمع أعجبته لغته فاستزاد، تحس هذا جليًا واضحًا في كل ما تقرأ من أخبار العرب حين كانوا يتحاورون ويتجادلون أو يختصمون، فليس غريبًا أن تكون طبيعتهم هذه مستعدة للتفوق إذا دعتها ظروف الحياة إلىٰ العناية بالقول، والحرص علىٰ الإجادة فيه، واتخاذه وسيلة إلىٰ الإقناع، وأداة للتأثير في النفوس، وسبيلا إلىٰ الغَلَب والفوز، وقد كانت حياة العرب كلها في القرن الأول للهجرة تدعو إلىٰ أن يُعْنَوا بالقول هذه العناية ويسلكوا به هذه السبل، فقد قامت هذه الحياة علىٰ الإسلام وهو دين اجتماعي قبل كل شيء، عني بحياة الجماعة عناية شديدة، فجمعها في الصلاة، وجمعها في الحج، وجمعها في الأعياد، وأقام الصلة بينها وبين أولي الأمر فيها علىٰ نحو من التشاور يضطر الحاكم إلىٰ أن يتحدث إلىٰ المحكومين، ويضطر المحكومين إلىٰ أن يتحدثوا إلىٰ الحاكم، ثم لم يكد يظهر الإسلام حتَّىٰ كان له أنصار وخصوم، وحتىٰ اشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء في أندية عامة يشهدها كثير من الناس، تختلف حظوظهم من الذكاء والفهم، ومن الجمود وقصور الطبع، ويحتاج المتكلم فيها إلىٰ أن يكون بصيرًا بمواقع القول من هؤلاء الأنصار والخصوم، ثم قُبِضَ النبيُّ ﷺ وكانت الفتوح، فكثرت مصالح المسلمين، واختلفت الآراء في تقديرها وتدبيرها، واحتاج هذا كله إلىٰ التشاور والتناظر، ثم كانت الفتن ونشأة الأحزاب السياسية

وما استتبعته من خصومة وجهاد، واحتاج زعماء الأحزاب إلىٰ أن يشاوروا أنصارهم ويقنعوهم بما كانوا يرون من رأي، ويدبرون من خُطَّة، وإلىٰ أن يناظروا خصومهم ويأخذوهم بالحجة، ثم ضعُف أمر الأحزاب بعضَ الضعف من الناحية الحربية، فأُغمدت السيوفُ طوعًا أو كرهًا، ولكن سُلت مكانها الألسنة، فكان للدولة معارضون أذكياء أقوياء ينكرون سياستها ويذيعون عنها قالة السوء، واضطر الخلفاء والأمراء والولاة إلىٰ أن يدفعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حينًا، وبالعنف حينًا، وبالحزم بين هذا وذاك حينًا آخر.

فكلُّ هذه الظروف جعلت حظ العرب في هذا العصر من الخطابة عظيمًا موفَّرا، لم تبلغ مثله أمة قديمة إلا ما كان من أمر اليونان والرومان، والواقع أن الأسباب التي دعت إلىٰ تفوق اليونان والرومان في الخطابة مشبهة في الجملة للأسباب التي دعت إلىٰ تفوق العرب فيها، فالخطابة؛ إنَّما تظهر وتقوىٰ ويعظم سلطانُها في الأمم والبيئات التي يعظم حظها من الحياة الاجتماعية القوية من جهة، ويُعترف فيها بحرية الفرد وكرامته من جهة أخرىٰ. وقد ضمن الإسلام للعرب حياة اجتماعية قوية وضمن في الوقت نفسه حرية كاملة، وكرامة موفرة ولاءم بين حرية الفرد وسلطان الحكومة، وصادف هذا النظام أمة صافية الطبع حادة المزاج، خصبة الشعور فصيحة اللسان فظهر فيها خطباء مُفَوَّهون ولم يضعف أمر الخطابة عند العرب إلا بعد أن فسد هذا النظام في العصر العباسي، فتجاوز سلطان الدولة حدود الاعتدال، وأفنَىٰ أو كاد يُفنِي سلطانُ الحكومة حرية الفرد.

# لغة الخطابة

وكانت لغة الخطابة العربية في أول الأمر يسيرة ساذجة لا تكاد تمتاز من لغة التخاطب إلا بهذه العناية الطبيعية التي يصطنعها النَّاس عادة حين يريدون الإقناع والتأثير في نفوس السامعين، فلمَّا كثرت المصالح وكثر فيها اختلاف الآراء، واشتد حولها النزاع والجدال، اشتدت عناية الخطباء بتخيُّر الألفاظ والأساليب الملائمة لهذه الحاجات الجديدة، والمُعِينة علىٰ ما كانوا يريدون من إقناع وفوز، وكان أمامهم مَثَلٌ أعلىٰ لخطاب الجماعات والتأثير فيها علىٰ أبلغ أسلوب وأرقاه، وأشد ملاءمة للنفوس في الظروف المختلفة التي تكتنفها وتحيط بها. وهو القرآن؛ الذي هو اجتماعي بأدق ما لهذه الكلمة من معنىٰ، فقد وُجِّه كلُّه إلىٰ الجماعة وتُلِيَ كله علىٰ الجماعة، ورأىٰ النَّاس كيف أذعن له خصومُه مقهورين، وأنصاره معجبين، وكيف بلغ من نفوس النَّاس ما لم يبلغه قبله أو في عصره أو بعده لونٌ من ألوان الكلام مهما يكن حظه من القوة والبراعة، فأسرع الخطباء غلىٰ تأثره والانتفاع به والاقتباس منه، وأنتج لهم هذا قوةً ولِينًا لم يكونا مألوفَيْن في خطابة الذين سبقوهم من العرب، وأنت إذا أردت تمييزَ الخطابة العربية الإسلامية وجدتها كلَّها تمتاز بهذه الروعة الجذَّابة التي تبهرك وتملك عليك أمرك. وتُحبِّب إليك الاستماع المتصل، وبهذا السحر الغريب الذي يُخيِّل إليك علىٰ بُعد العهد وانقطاع الصلة أنك تسمع الخطيب فتحبه، وتطمئن إليه، مستعذبًا قوله، مفتونًا بأسلوبه، أو تخافه وتفزع منه، ولكنك تحب أن

تسمعه علىٰ كل حال، فإذا بحثت عن مصدر تلك الروعة وهذا السحر، وجدتَه أو أكثره في تأثر الخطباء للقرآن، وحرصهم علىٰ أخذ معانيه، واستعارة ألفاظه واقتباس مبانيه، وتقمُّص هذا الروح الحلو الذي أفاضه علىٰ المسلمين ما بعث القرآن في نفوسهم من سكينة وإيمان[1].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٠٥- ١٠٧) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٦٤).

## عادات العرب في الخطابة

وكانت للعرب عادات موروثة في الخطابة احتفظوا بها طوال هذا العصر، فكانوا يخطبون قائمين يشرفون علىٰ النَّاس من نَشَز من الأرض[1] أو صخرة مرتفعة أو من المنابر في المساجد، وكانوا إذا قاموا للخطابة اعتمدوا علىٰ السيف أو علىٰ القوس أو اتخذوا المخاصر، وكانوا لا يكثرون من تحريك أجسامهم، ولا يسرفون في الإشارة، وكانوا يكرهون التردد في القول، واضطراب اللسان. وفساد مخارج الحروف، وكانوا يكرهون التنحنح والسعال والاستعانة علىٰ البيان بشيء غيره، ويقال أن الوليد بن عبد الملك أول من خطب جالسًا وتبعه في ذلك بعض الخلفاء والأمراء والولاة، ولكنَّ القيام ظلَّ سنة مطَّرِدة في الخطابة إلىٰ الآن.

(١) أي: ما ارتفع منها. انظر: إصلاح المنطق لابن السكيت (٧٦).

## خطباء هذا العصر

وخطباء هذا العصر كثيرون، دعت إلىٰ كثرتهم تلك الظروف التي أشرنا إليها آنفًا، وقد كان منهم المطنِب الذي يستغرق بخطبته بياض النهار، وكان منهم الموجِز الذي يبلغ ما يريد في جملة من القول لا ينفق فيها الساعة القصيرة، وثلاثة من خطباء العرب في هذا العصر طبعوا الخطابة العربية بطابعهم.

# عليٌّ بن أبى طالب

أولهم عليُّ بن أبىٰ طالب، وقد ولد قبل ظهور الإسلام بسبع سنين، وأدركه الإسلام صبيًا فنشأ فيه، وكان اتصاله بالنبي ﷺ في طفولته وشبابه مصدرًا لهذا الروح القوي الحلو الذي نجده كلما قرأنا شيئًا من كلامه، وكانت حياته كلُّها خليقةً أن تجعل منه رجلًا قويَّ النفس، شديدَ البأس ذكيَّ القلب، كثيرَ العلم، مستعدًا كل الاستعداد للتفوق والنبوغ، فقد اشترك مع النبي ﷺ في حلو الحياة ومرها؛ إذ كان ابن عمِّه وصهره، ثم حيل بينه وبين الخلافة بعد وفاة النبي، فصبَّر نفسه علىٰ ما لم تحب، وراضها علىٰ ما كرهت، وأخلص في النصح لمن سبقه من الخلفاء، حتَّىٰ إذا كانت الفتنة وقتِل عثمان ونهض بالأمر، تفرق المسلمون من حوله، فأنكرته عائشة أم المؤمنين، ومعها طلحة والزبير، وأنكره معاوية بن أبىٰ سفيان ومعه أهل الشام، ثم أنكره بعد ذلك جماعة من أصحابه خرجوا عليه حين قبل ما عرض معاوية من التحكيم، واضطر إلىٰ أن ينفق آخر أيامه في حرب منكَرة موئسة، الهزيمة فيها شر، والفوز فيها شر أيضًا، حتَّىٰ قتله أحد الخوارج غِليةً سنة ٤٠ للهجرة.

فأنت ترىٰ أنَّ حياته أيام النبي كانت حياة جهاد كله أمل، وأنَّ حياته أيام الخلفاء الثلاثة كانت حياة إذعان ورضا بقضاء الله ونصح وإخلاص للخلفاء، وأنَّ حياته في آخر أيامه كانت حياة جهاد وحزن ويأس، وقد عُرف عليٌّ بالشجاعة والبأس أيام النبي، وعُرف بالعلم وجودة الرأي أيام الخلفاء الثلاثة،

وعرف بالخطابة في أيام خلافته القصيرة، ولا غرابة في هذا؛ فقد كانت حياته كلها تُعِدُّه لهذه الأيام التي وَلِيَ فيها السلطان.

وظهرت مواهبه واحتاج إلىٰ القول فقال وأجاد، وقد نُسبت إليه طائفة ضخمة من الخطب أكثرها يظهر فيه التكلف والصنعة؛ لأنَّه منحول، وقليل منها تظهر فيه شخصية حلوة جذابة شديدة الإيمان بالدين والاقتناع بالحق، حريصة علىٰ ما ترىٰ من رأي، إلا أن تُكْرَه علىٰ خلافه، فتنصرف عنه في شيء من اليأس والإذعان، لا راحة فيه إلا الرضا بقضاء الله والثقة بأنَّ ما عند الله خير وأبقىٰ ممَّا عند الناس.

وأكثرُ ما صحَّ من خطبه متصل بالسياسة. فقد كان يتحدث إلىٰ أصحابه محرضًا لهم علىٰ قتال عدوهم. مظهرًا حقَّه في السلطان. مبينًا ضلالَ خصومه عن سواء السبيل، وكان في هذا كله موفقًا، ولكن توفيقه الخطابي قلما كان يستتبع التوفيق العملي؛ لأنَّ ظروف الحياة في عصره كانت أقوىٰ من الخطابة وأقوىٰ من الحق، وأقوىٰ من الصواب، وكانت نفوسُ النَّاس قد تغيرت، ومُثُلُهم العليا في الحياة قد تغيرت أيضًا، وأصبح نظامُ الحياة كما كان يريده علي، وكما كان يريده الخلفاء الثلاثة من قبله مغايرًا لما كان النَّاس يرجون ويأملون[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من خطبه رضوان الله عليه. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٨٧، ٨٩)، ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١١٤) وما بعدها وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٧٣- ١٧٥).

# زياد ابن أبيه

والخطيب الثاني زياد ابن أبيه أو زياد بن سمية أو زياد بن أبىٰ سفيان، ولد في السنة الأولىٰ للهجرة علىٰ ما يقول الرواة من أَمَةٍ للحارث بن كَلَدة الثقفي. ولم يكن معروفَ الأب. ونشأ نشأة إسلامية خالصة. ولكنه لم يبلغ الشباب حتَّىٰ ظهرت فيه خصال امتازت بها قبيلة ثقيف في الإسلام؛ منها ذكاء القلب، وسعة الحيلة، وحزم الأمور، وحدة اللسان وشدته، وميل إلىٰ العنف يبلغ الطغيان في كثير من الأحيان.

عمل زياد مع أبي موسىٰ الأشعري حين تولىٰ البصرة لعُمَر، فظهر ذكاؤه وتفوقه وأُعجِب به الناس، وأُعجِب به عمرُ نفسه، ولعله أشفق من دهائه وإقدامه فحال بينه وبين العمل السياسي المتصل، ثم استعان به عليٌّ أيام خلافته علىٰ إخماد ثورة فارسية فأحسن البلاء ووُفِّق إلىٰ ما أراد، وَوَفىٰ لعلي حتَّىٰ إذا قتل علي لم يزل معاوية يَجِدُّ حتَّىٰ استماله إليه بعد جهد، واستلحقه بعد أن شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان، ثم ولاه البصرة ثم الكوفة وكان زياد يريد أن يوليه معاوية الحجاز ولكنه مات بالطاعون سنة ٥٣.

وقد ظهرت خصاله التي أشرنا إليها كلها ناضجة حين تولىٰ العراق فاشتد علىٰ المعارضة العنيفة حتَّىٰ اضطرها إلىٰ الهدوء والإذعان، ولم يتردد في اتخاذ الطرق التي رآها مؤدية إلىٰ ذلك، وبطش بالغواة والمفسدين حتَّىٰ أقرَّ الأمن في نصابه، وثبَّت في العراق نظامًا كان العراقُ قد فقده منذ

حين، وقد حفظت له خطبةٌ تسمىٰ البتراء؛[1] لأنَّه لم يبتدئها بحمد الله كما كان يفعل الخطباء عادة، ألقاها حين قدم البصرة واليًا من قِبَل معاوية، فوَجَمَ لها النَّاس، فمنهم من أذعن خائفًا، ومنهم من أثنىٰ متملقًا، ومنهم من حاول الإنكار، ولكن السياسة العملية لزياد لم تلبث أنْ بيَّنت للناس أنَّه كان جادًّا غيرَ هازل فيما أعلن من نذير.

(١) انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٩١) وما بعدها، ط عالم الأدب.

# تحليل خطبة زياد

بدأ هذه الخطبة بإنكار ما كان عليه أهل البصرة من معصية لله وفسوق عن الدين وتجاوز لأمر السلطان، ثم أعلن بأنَّ أمور المسلمين لن تصلُح في آخر أيامهم إلا بما صَلَحت به في أولها، من لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، علىٰ نحو ما كان يفعل عمر، ثم أعلن أنَّ أهل العراق قد استحدثوا آثامًا لم تكن، وأنه سيحدث عقوبات تلائم هذه الآثام، وأعلن هذه العقوبات فإذا هي مجاوزة لما عرف المسلمون من حدود الله وعقوباته (من غرق قومًا غرقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه ومن نقب بيتا نقبْنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيًّا) وفي هذه الخطبة جعل القتل عقوبة لمن ظهر في الطريق بعد مضي ساعة معينة من الليل، وقطع اللسان عقوبة لمن دعا بدعوىٰ الجاهلية، ثم ألغىٰ ما كان بينه وبين النَّاس من عداوة وضغن، وطلب إليهم أن يستأنفوا أمورهم مطيعين ناصحين، ثم أثبت حق بني أمية في السلطان وطلب إلىٰ النَّاس أن يذعنوا له في غير حقد ولا ضغينة؛ فذلك أنفع لهم وأجدىٰ عليهم من طاعة مدخولة لا تستقيم عليها الأمور.

وقد ضُرِب المثل بزياد في الشدة والعنف، وضرب المثل به في الفصاحة واللسن، وضرب المثل به في الدهاء والمكر[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من خطب زياد بن أبيه. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٣٩١، ٩٢) ط، عالم الأدب. والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١١٦-١١٨) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٧٧-١٨٠).

# الحجَّاج بن يوسف

وثالث هؤلاء الخطباء الحجَّاج بن يوسف الثقفي، ولد في أيام معاوية ونشأ نشأةً إسلامية في الطائف، فهو لم يشهد خلافة الخلفاء الراشدين، وإنَّما شبَّ في ظل خلافة معاوية وما كانت تقوم عليه من ملك عَضُوضٍ، وشهد شهرة زياد بالقسوة والعنف، وكأنه أحب زيادًا واتخذه مثلا ولاءم ذلك ما قدمنا من طبع ثقيف، فنشأ الحجاج بعيدَ الأمل، عظيمَ المطامع، جريئًا شديدًا، لا يعرف التردد.

عمل في حرس روح بن زِنباع من زعماء الشام، ثم اتخذه عبد الملك منظمًا لعسكره، فلم يلبث أن أظهر من الجد والحزم ما رفع مرتبته عند عبد الملك. وإذا هو قائد الجيش الذي وُجِّه لحرب عبد الله بن الزبير في الحجاز، وإذا هو يحصر مكة ويأخذها عُنْوةً بعد أن يهدم الكعبة ويقتل ابن الزبير ويمثل به، وإذا هو والي عبد الملك علىٰ العراق ليُقرَّ فيه النظام بعد أن أفسدته الحروب الداخلية، فيُظهِر من الشدة والطغيان ما يضبط الأمر ويُسكِت المعارضة، ويخيف الناس، ثم يَبسُط سلطانه علىٰ الشرق الإسلامي كله فيكسر شوكة الخوارج، ويبسط سلطان المسلمين علىٰ بلاد لم تكن لهم، وكان لسانه جريئًا كقلبه، أو قُل كان لسانُه الجريء تُرْجُمانَ قلبه الجريء، كان أشد من زياد وأحب منه لسفك الدماء، فكان لسانه أشد من لسان زياد، وكانت خطبه تمثل الطغيان الذي لا حدَّ له، وكان أظهر ما تمتاز به خطبه

الشدة في الألفاظ وفي المعاني وكثرة الاقتباس من القرآن والشعر القديم، وكان يقطع جمله في الخطبة تقطيعًا، ويلقيها علىٰ النَّاس فكأنَّما يرميهم بالصخر والجلامد، وإذا هم ذاهلون، وإذا هو قد أفسد عليهم عقولهم، فصور إليهم الحق باطلًا والباطلَ حقًّا، وغلبهم علىٰ أنفسهم فسيرها كما يحب، وساقها إلىٰ ما يريد. وقد وطد الحجاج سلطان بني أمية وضمن لهم أمن الشرق حتَّىٰ مات في آخر أيام الوليد بن عبد الملك.

وظل أمر الخطابة بعد الحجاج قويًا ظاهرًا، وكأنَّ النَّاسَ كانوا قد اتخذوا منه ومن زياد ومن جماعة آخرين من الخطباء مُثُلا عليا لإجادة القول وإتقانه، وأخذوا يتساءلون عن مصادر هذه الإجادة والإتقان، ويلتمسونها إذا أرادوا القول، ونشأ عن ذلك أن بدأت تُقَرَّر بينهم أصول الخطابة وقواعد يعتمد عليها الخطباء إذا خطبوا، ثم كثرت المقالات الدينية والسياسية، وكثرت حولها المناظرة، واستحالت الخطابة آخر أيام بني أمية إلىٰ طور جديد هو إلىٰ الجدل العلمي أقرب منه إلىٰ الخطابة السياسية، وأخذ هذا الجدل يقوىٰ شيئًا فشيئًا حتَّىٰ قام مقامَ الخطابة أيام بني العباس[1].

---

(١) لمزيد لاطلاع علىٰ نماذج من خطب زياد بن أبيه. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٩٦/ ٣٩٥) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١١٩-١٢٢) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٨٠-١٨٢).

## النثر الفني[1]

لم يُؤثَر عن الجاهلية نثرٌ فني بالمعنىٰ الدقيق لهذه الكلمة كما قدمنا، وإنَّما كانت لهم لغة غنية عذبة في آخر العصر الجاهلي وأول الإسلام، كانوا يتخذونها في مخاطباتهم وأحاديثهم، ولم تكن الكتابة قد شاعت فيهم بعدُ، علىٰ أنَّهم كانوا يصطنعون الحروف في أعمالهم التجارية، وربما كانوا يكتبون الرسائل القصيرة في شؤونهم وحاجاتهم، فكانت اللغة التي تصطنع هذه الكتب والرسائل هي لغة التخاطب نفسها، فلمَّا ظهر الإسلام وهاجر النبي إلىٰ المدينة شاعت الكتابة بعض الشيوع، وحث النبي -صلىٰ لله عليه وسلم- علىٰ تعلمها؛ لأنَّها أصبحت من حاجات الدولة، وصدرت عن النبي والخلفاء كتبٌ مَثَّلتْ فصاحتهم الطبيعية وطريقتهم الخاصة في التعبير، وكانت لغتها هي اللغة التي كان يستعملها النبي ﷺ والخلفاء والصحابة إذا تحدث بعضهم إلىٰ بعض في الأحاديث الخاصة والعامة، أي لم يكن هناك فرق ظاهر بين لغة الكتابة ولغة الخطابة ولغة الحديث.

علىٰ أنَّ كثرة مصالح الدولة واختلاف الآراء في هذه المصالح، وظهور التنافس بين الأحزاب، دعت إلىٰ رقي الخطابة وتطورها، ونفس هذه الأسباب جعلت حاجة الدولة إلىٰ الكتابة قوية شديدة لبعد المسافات واحتياج الخلفاء

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من النثر الفني. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٨٨، ٥٦٦) ط، عالم الأدب.

إلىٰ أن يتصلوا بالولاة والعمال، علىٰ أنَّ بين حال الخطابة والكتابة في هذا العصر فرقًا لا بد من ملاحظته، فقد كانت الخطابة عربية خالصة في نشأتها وتطورها طول القرن الأول للهجرة، أما الكتابة فظلت عربية خالصة، حتَّىٰ كثرت المصالح وتعقدت، وكانت الفتوح، واضطر المسلمون إلىٰ تنظيم الدولة ووضع الأصول والقواعد التي تجري عليها الإدارة وأمور الجيش والخراج. ولم تكن للعرب سابقة في شيء من هذا فاستعانوا بالأمم المغلوبة، واستعاروا لذلك نُظُمَها أول الأمر، فكان النظام فارسيًا واللغة فارسية في دواوين (دفاتر) العراق وفارس، وكان النظامُ يونانيًا واللغة يونانية أو قبطية في دواوين الشام ومصر، حتَّىٰ إذا مضىٰ الجيل الأول ونشأ جيل من العرب يعرف اللغات الأجنبية، وجيل من الأجانب يحسن اللغة العربية نُقلت الدواوين شيئًا فشيئًا إلىٰ اللغة العربية في أقطار الدولة كلها. بدأ ذلك في أيام عبد الملك، وتم قليلًا قليلًا، وكان الأجانب الذين أحسنوا اللغة العربية أكثر من العرب الذين تعلموا اللغات الأجنبية، فاستمر الخلفاء والأمراء يستعينون بالكتاب والعمال من الموالي، وأصبحت كتابة الدواوين صناعة عُنَيَ بها الموالي عناية شديدة، واتخذوها وسيلة يحفظون بها علىٰ أنفسهم شيئًا من السلطان، ويرقَوْن بها إلىٰ مرضاة الخلفاء والولاة ونيل الحظوة عندهم، ومن إتقان هؤلاء الكتاب الموالي لصناعتهم الفنية وإتقانهم للغة العربية، وعلمهم بأنَّ العرب حِراصٌ علىٰ جودة القول والبراعة فيه. ظهرت في التاريخ العربي هذه الظاهرة التي قلَّما نجدها في تاريخ الأمم القديمة الأخرىٰ وهي أن الرسائل الرسمية الفنية أصبحت مظهرًا للمجال الفني الأدبي، يجد القارئ فيها من اللذة مثلما يجده من يستمع للشاعر المجيد، والخطيب الفذ.

وربما كان من الإسراف أن يقال إن النثر الفني قد ظهر في شيء غير هذا طَوَال العصر الأموي، إلا ما كان يجرىٰ علىٰ ألسنة الفصحاء من الحِكم والأمثال، وما كان يصطنعه القُصَّاص والعلماء حين يقصون علىٰ النَّاس

أو يعلمونهم من هذه اللغة العذبة القوية التي لا نزال نجدها في كتب الأدب والتاريخ، ولا سيَّما ما اعتمد فيه أصحابه منها علىٰ الرواية. ويقال إن أول من ظهر تفوقه في صناعة الكتابة الرسمية هذه سالم مولىٰ هشام بن عبد الملك وكاتبه، ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيي كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وقد اتفق النَّاس علىٰ أن عبد الحميد هذا زعيم الكتاب؛ لأنَّه فيما يظهر أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد وأخذ الكتاب باتباعها.

ومهما يكن من شيء، فقد ظهر هذا النوع من النثر الفني قويًا واضحًا في أواخر العصر الأموي، ولكنه كان في أول أمره لم يبلغ أشدَّه، ولم يبلغ حظه الصحيح من الرقي، إلا حين تقدم القرن الثاني للهجرة أيام بني العباس، علىٰ أنَّ النثر الفني إذ ذاك -مهما يكن عربيَّ اللغة والأسلوب- قد اشترك فيه الأجانب إلىٰ حد بعيد.

# الثقافة العلمية الإسلامية
# إلى آخر الدولة الأموية

علمنا من قبل أنَّ العرب في جاهليتهم لم يكن لهم علمٌ بالمعنىٰ المعروف الآن لهذه الكلمة، وإنَّما هي أخبار يتناقلونها، أو نظر في النجوم أو الطب أو نحو ذلك دلَّتْهم عليه التجارب الناقصة، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يُنظَّم ولم توضع له قواعدُ حتَّىٰ يسمَّىٰ علمًا، وكانت الأمية فاشية فيهم، حتَّىٰ نَدُر أن ترىٰ بينهم القارئ الكاتب، وهذا طبيعي؛ فإنَّ العلم من آثار الحضارة والعمران، ولا يمكن أن يرقىٰ ويتقدم إلا في ظل المدنية.

فلما جاء الإسلام شجَّع علىٰ تعلم القراءة والكتابة، وحثَّ النبي ﷺ علىٰ تعلمها؛ لأنَّ نشرَ الدين كان يتطلب القارئين الكاتبين، فقد كانت آيات القرآن تُكتب، ويتلوها من يعرف علىٰ من لم يعرف، بل حثَّ النبيُّ بعضَ أصحابه أن يتعلم لغة غير اللغة العربية، فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية[١] والسريانية[٢].

وقد رأيتَ قبلُ أنَّ الإسلام نقل العرب من طور البداوة إلىٰ طور آخر انتظمت فيه أمورهم، وتكونت منهم أمة تخضع لسلطان واحد وقانون واحد، كل هذا أسرع في مدنيتها وحضارتها، أضف إلىٰ ذلك؛ أنَّ الفتح الإسلامي مكَّن العرب من الاطلاع علىٰ ما كان للفرس والروم من حضارة، وكوّن ممَّن خضع للإسلام من هذه الأمم مملكة واحدة، تستخدم وسائل الرقي حيثما وجدت.

كل هذا أسرع في حضارة الأمة الإسلامية، واستتبع ذلك نشوءَ العلم وسيره السريع إلىٰ التقدم والارتقاء.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٧١٥) وقال هذاحديث حسن صحيح.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢١٥٨٧) وابن حبان (٧١٣٦) وصححه الألباني في المشكاة (٤٦٥٩).

*** وإذا نحن تتبعنا الحركات العلمية في هذا العصر، وجدناها أنواعًا ثلاثة:**

**فأولًا**: وهو أهمُّها وأوسعها نطاقًا العلوم الدينية. فقد أقبل كثير من صحابة رسول الله ﷺ علىٰ القرآن يتدارسونه ويتفهمونه ويستنبطون منه الأحكام للحوادث التي تعرض لهم، واشتهر من هؤلاء الصحابة العلماء: عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وعائشة، وهؤلاء وغيرهم تفرقوا في الأمصار المختلفة فالتفَّ حولهم النَّاس في كل قطر يتعلمون منهم معانيَ القرآن وأحاديث رسول الله، وكيف يستنبطون الأحكام منها، فكان عبد الله بن مسعود مثلًا في العراق، وعبد الله بن عباس في مكة، وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر وهكذا. وكان لكل منهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، وقد سُميت الطبقة التي أخذت عن الصحابة (بالتابعين).

وقد زاد هذه الحركة ظهورًا وسَعة الموالي، وهم الذين كانوا من أصل غير عربي كالفرس والروم ودخلوا في الإسلام، فإنهم لحضارتهم القديمة ومعرفتهم علوم قومهم؛ استطاعوا لمَّا دخلوا في الإسلام أن يشتغلوا بالعلوم الإسلامية علىٰ النمط الذي كان عليه علمُ قومهم، وقد اشتهر من هؤلاء التابعين كثيرون كمجاهد بن جبر، وعكرمة بمكة، وسعيد بن جُبير بالكوفة، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين بالبصرة.

**ثانيًا**: من المعارف التي بدأت في ذلك العصر الحركة التاريخية، وذلك أنَّ بعض الأمم التي دخلت في الإسلام أخذت تذكر تاريخ أممها بين المسلمين، فانتشر في ذلك العصر كثير من أخبار الفرس واليهود ونحوهما. وأهم من ذلك؛ أنَّ المسلمين بدؤوا

يُعْنَون بسيرة النبي ﷺ وصحابته وأعمال أبىٰ بكر، وفتوح عمر ونحو ذلك ممَّا كان أساسًا بني عليه في العصر العباسي ما ألف من كتب التاريخ.

**ثالثا**: الفلسفة وما إليها، وسببها أنَّ المسلمين فتحوا مدنًا فيها مدارس سريانية مثقفة بالثقافة اليونانية وأشهرها مدرسة الرُّها، ونصِيبين، فلمَّا جاء الإسلام ظلَّت هذه المدارس تؤدي عملها في نشر هذه الثقافة. ومن هذه المدارس أكثر الأطباء الذين كانوا في قصور بني أمية؛ فإنَّ الدراسة الطبية كانت متصلة بالدراسة الفلسفية اتصالا كبيرًا. ومن أشهر هؤلاء ابن أثال وكان طبيبًا نصرانيًا لمعاوية، وماسرجويه وكان طبيبًا إسرائيليا في زمن عمر بن عبد العزيز، وهكذا.

وهذه الأنواع كلُّها من العلوم كانت في عهد الدولة الأموية، ساذجة بسيطة لم تنضَج ويكثر التدوين فيها إلا في العصر العباسي.

# العصر العباسي الأول

# الحياة العربية
# في القرن الثاني للهجرة

كانت المائة الأولىٰ للهجرة عصر تطور خضعت له الأمة العربية من جهة، والأمم الأجنبية المغلوبة من جهة أخرىٰ، وكان أهم الأسباب التي بعثت هذا التطور الإسلام والاختلاط بين العرب وغيرهم من الشعوب، وكان الأدب العربي في القرن الأول مظهرًا صادقًا لتغير النفس العربية، وتأثرها بالحياة الجديدة التي استتبعها الإسلام، علىٰ حين كان الأدب العربي في القرن الثاني مظهرًا صادقًا لتغير النفس الأعجمية الأجنبية بهذه الحياة، ومعنىٰ ذلك؛ أنَّ الأدب العربي في القرن الأول ظلَّ عربيًا في جوهره، وتأثر بالإسلام وهو دينٌ عربيٌّ تأثرًا قويًا، ولم يؤثِّرْ فيه اختلاطُ العرب بغيرهم من الأمم إلا قليلًا.

أما في القرن الثاني؛ فقد أصبح الأدبُ أجنبيًا في الجملة، لغته العربية، وأخذ تأثير العرب فيه يضعف شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ الأدباء الذين أنشؤوه كان أكثرهم من الأجانب الذين تعلموا العربية وبرعوا فيها، أو نشؤوا في حجور آباء وأمهات تعلموا العربية وبرعوا فيها. والواقع أنَّ الأدب ظلَّ عربيًا طول القرن الأول ريثما يتاح للأمم المغلوبة أن تُسْلم وتتعرب وتشترك في الحياة الإسلامية العامة، وما كاد القرن الأول ينقضي حتَّىٰ كان الإسلام قد أخذ يبسط ظله الديني علىٰ النفوس بعد ما بسط ظله السياسي علىٰ أقطار الأرض، وحتىٰ كان كثير من الأجانب قد فَزِعوا إلىٰ الإسلام ليظفروا بالمساواة في الحقوق

السياسية والاجتماعية، وإلىٰ اللغة العربية لينفقوا كفاياتهم في خدمة الفاتحين، ويأخذوا بحظوظهم من مناصب الدولة وسلطانها، وقد ظهرت آثارُ ذلك في العصر الأموي نفسه، فرأينا جماعة من الموالي يُجيدون الشعر ويتفوقون فيه، ويقربهم ذلك من الخلفاء، ويضمن لهم الحظوة لديهم، ورأينا جماعة آخرين ينشئون النثر الفني إنشاء، ويمكنهم ذلك من أن يشغَلوا مناصب الكتابة في الدواوين والإشراف علىٰ أعمال الدولة، وكان ظهور هذا في العصر الأموي مُؤْذِنًا بما سيؤول إليه أمر العرب إذا لم يحزموا أمورهم، ويحتفظوا بسلطانهم من الفناء والاضمحلال، وقد عجز العرب عن حزم أمورهم ولم يحتفظوا بسلطانهم، بل أصبح بعضهم لبعض عدوًّا بتأثير العصبية وما دعت إليه من جهاد وصراع وتنافس، فضعفوا وقوي الأجنبي، وكانت الثورة التي انتهت بالإدالة من بني أمية لبني العباس في حقيقة الأمر ثورةً أجنبية، سجلت انتصار العنصر الأعجمي الفارسي علىٰ العنصر العربي، وضمنت للمنتصرين ما كان العرب يستأثرون به من ألوان السيادة وضروب السلطان، وليس غريبًا أن تظهر هذه الثورة في شرق البلاد الإسلامية ويتم فيها الفوز للأمة الفارسية، وتظل الأمم المغلوبة الأخرىٰ هادئة مذعنة في الشام ومصر، فقد كان الفرس حين ظهر الإسلام أهل سيادة وبأس وسلطان، وكانت هذه الأمم مغلوبة خاضعة لسلطان الروم، فلا جرم أن كان الصراع عنيفًا بين العرب والفرس ويسيرًا فاترًا بين العرب والأمم الأخرىٰ، وكان ميدان هذا الجهاد إبَّان القرن الأول العراق، حيث التقىٰ الشعبان وظهر ما بينهما من اختلاف الأهواء وتباين المنافع وتناقض الأغراض، ومن هنا كان العراق في العصر الأموي موطن المعارضة السياسية الحادة، ومهد الحركة الفكرية الخصبة ومستقر الحياة الأدبية القوية، ومن هنا كانت نتيجة الثورة وانتصار الفرس؛ أن انتقل مركز السلطان من الشام إلىٰ العراق ومن دمشق إلىٰ بغداد.

# اختلاط الحضارات الأجنبية
# وتأثيرها في الأدب العربي

ولأجل أن تتبيَّن طبيعةَ الأدب العربي الجديد وما بينه وبين الأدب العربي الأموي من فرق؛ يجب أن تتبين طبيعة الشعب الذي كان هذا الأدبُ مرآةً تصف حياته وتُصوِّر أهواءه وميوله.

لم يكن هذا الشعب عربيًا خالصًا، ولا فارسيًا خالصًا، وإنَّما كان مزاجًا أنشأه الاختلاط بين هذين الشعبين وأخلاطًا من شعوب أخرىٰ كانت تسكن العراق وتعمل في أرضه منذ عهد بعيد جدًا، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد تتكون من العقلية العربية الجاهلية والإسلامية ومن العقلية الفارسية، ومن العقلية السامية القديمة. وقد تأثرت قليلًا أو كثيرًا بالديانة المسيحية والثقافة اليونانية، فليس غريبًا أن تكون حياة هذا الشعب المعقد مخالفة للحياة العربية الخاصة، وأن تكون المرآة التي تعكس هذه الحياة مخالفة للمرآة التي كانت تعكس حياة العرب أيام بني أمية، والواقع أنَّ الفرق بين هذين النوعين من الحياة كان عظيمًا جدًا، فقد ضعف تأثير البداوة العربية الخالصة في هذا الجيل من أهل العراق، واشتد فيه تأثير الحضارة الفارسية القديمة، ونشأ عن ذلك وعن ذهاب سلطان العرب؛ أن استمتع هذا الجيل الجديد بكل ما كان مقصورًا علىٰ العرب من الحقوق والامتيازات وسوَّىٰ بين الغالب والمغلوب في كل شيء، وكان حظ كثير من هذا الجيل من الإذعان لأحكام الإسلام قليلًا

ضئيلًا لحداثة عهده بهذا الدين، ولقوة ما كان للديانة الموروثة علىٰ نفسه من سلطان، وكانت اللغة التي يتكلمها هذا الجيل نفسُها وسطًا بين الفصاحة العربية الخالصة والرطانة الأعجمية، فلا عجبَ أن يظهر الفرق بين ما كان لهذا الجيل من مَثَل أعلىٰ في الحياة الأدبية والعقلية وما كان للجيل الذي سبقه، وأهم مظاهر الفرق بين هاتين الحياتين؛ أنَّ الجيل الجديد ظهر فيه الميل الشديد إلىٰ الحياة العلمية، فكثر فيه العلم، واختلفت أنواعه، فمنه ما استُحْدِث بعد أن لم يكن، ومنه ما كان موروثًا ولكنه نما وارتقىٰ، ومنه ما نقل عن الأمم الأجنبية نقلًا، ثم أخذ النَّاس يدرسونه ويمحِّصونه حتَّىٰ أساغوه أولًا، ثم طبعوه بطابعهم الخاص ثانيًا. وكان في الجيل الأموي علم ولكنه كان عربيًا إسلاميًا خالصًا، حظه من البداوة عظيم، أما الآن؛ فقد أصبح هذا العلم كثيرًا مختلف الأنواع، مُعقَّد الأصول، متشعب الفروع، وبَعُد في هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية، فقَلَّ حظه من السهولة واليسر، وكثر حظه من التكلف الفني، وأصبح نتيجة الصناعة والتعمل بعد أن كان نتيجة الطبع والسجية الحرة المطلقة، ونشأت في الأدب فنونٌ لم تكن معروفةً أو لم تكن معروفة إلا قليلًا، وتطورت الفنون الأخرىٰ تطورًا يلائم هذه البيئة الجديدة، وهذا العقل الجديد[1].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (١٨٣-١٨٨) وتاريخ الأدب العربي للزيات (١٩٦-٢٠٠).

# الشعر في هذا العصر

أما الشعر؛ فلم يضعف في هذا العصر الجديد، بل قوي ونما ولكنه تطور في ألفاظه ومعانيه وفي أوزانه وقوافيه وفي أغراضه وفنونه.

فأما ألفاظه فرقَّت وسهُلت حتَّىٰ بعدت الصلة في كثير من الأحيان بينها وبين الألفاظ الشعرية التي كانت مألوفة في العصر الإسلامي أيام الفرزدق والأخطل وجرير، وإنك لتقرأ الكثير من شعر أبي العتاهية[(١)] والعباس بن الأحنف[(٢)] فيُخيَّل إليك أنك تقرأ كلامًا منثورًا لولا الوزن والقافية. وتطوَّرت المعاني التي كان الشعراء يتخذونها طريقًا إلىٰ أغراضهم، فانصرف الشعراء في أكثر الأحيان عن المعاني البدوية أو الحضارية المتأثرة بالبداوة إلىٰ معانٍ حضرية صرفة، ليس بينها وبين البداوة صلة، وبعد أن كان الشعر الجاهلي

---

(١) أبو العَتاهِيَة: إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، أبو إسحاق، شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع، يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما، كان يجيد القول في الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر في عصره، ولد ونشأ قرب الكوفة، وسكن بغداد، كان في بدء أمره يبيع الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم، وهجر الشعر مدة، فبلغ ذلك الخليفة العباسي المهدي، فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل إن لم يقل الشعر، فعاد إلىٰ نظمه، فأطلقه، توفي في بغداد سنة (٢١١هـ/ ٨٢٦)، انظر معجم الشعراء العرب (٣٠٣).

(٢) العبّاس بن الأحنف بن الأسود، الحنفي (نسبة إلىٰ بني حنيفة)، اليمامي، أبو الفضل، شاعر غَزِل رقيق، خالف الشعراء في طرقهم فلم يمدح ولم يَهجُ بل كان شعره كله غزلًا وتشبيبًا، قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة بنجد، وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة (١٩٢هـ/ ٨٠٧م). انظر: معجم الشعراء العرب (٧٣٢).

والإسلامي مرآةً للطبع يكاد يصدر عنه في غير تكلُّفٍ ولا تعمُّلٍ، أصبح الشعر في هذا العصر مرآة لطبع مهذب متحضر، وأصبح لا يصدر عن هذا الطبع إلا بعد أن يسيطر عليه العقل فيُصلح من أمره، ويرده إلىٰ حدودٍ كان الخيالُ يتجاوزها أو يهملها، فأصبح العقل يرىٰ تجاوزها وإهمالها تجاوزًا للذوق، وتقصيرًا في الإتقان الفني، واشتد زهد الشعراء في هذه الأوزان الطويلة في كثير من الأحيان، وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة ولاءموا بين الموضوعات والأوزان، فهم يختارون للغزل والعبث والمجون أوزانًا تلائمها، فإذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رَثَوْا أو عرضوا للجد من الأمور آثروا الأوزان الطويلة الضخمة، ويسَّروا علىٰ أنفسهم في القوافي إلىٰ حد ما، فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلىٰ السمع، وتجنَّبوا ما كانت القدماء لا يحفِلون بالتورط فيه من عيوب القافية كالإيطاء[(١)]، والإقواء[(٢)]، والإكفاء[(٣)]، والسناد[(٤)] [(٥)].

---

(١) الإيطاء: أن تتكرر القافية في قصيدة واحدة بمعنىٰ واحد، انظر معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (١١٦).

(٢) الإقواء: اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة، بمعنىٰ: اختلاف إعراب القوافي. انظر: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (١١٦) ومفاتيح العلوم (١١٧).

(٣) الإكفاء: أن تكون قافية علىٰ الطاء وأخرىٰ علىٰ الدال أو علىٰ اللام والنون ونحو ذلك من الحروف المتقاربة المخارج. انظر: مفاتيح العلوم (١١٧).

(٤) السناد: اختلاف الردف وهو مثل قوله: مصلتينا وكذبا ومينا. انظر: مفاتيح العلوم (١١٧).

(٥) لمزيد من الاطلاع علىٰ أحوال الشعر في هذا العصر؛ انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٤٥، ٢٤٤) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٣٥- ٢٣٩).

# أغراضه وفنونه

وأمَّا أغراض الشعر وفنونه فمنها ما لم يستطع البقاء طويلًا في هذا العصر الجديد كالشعر السياسي الذي قلَّت الحاجةُ إليه بعد أن انحلَّت الأحزاب وبطل الجهاد بينها، والواقع أنَّ أمر هذا الفن أخذ يضعف شيئًا فشيئًا حتَّىٰ استحال إلىٰ نوع من الهجاء يقوله الشاعر علىٰ خوفٍ وحذرٍ حين تسنح له الفرصة، وكالغزل العُذْرِي الذي لم يبقَ له مجال متسع إلا قليلًا في هذه البيئة التي لم تكن العفَّة والطهارة من مميزاتها.

ومنها ما تطور تطورًا قليلًا أو كثيرًا كالغزل العادي، فقد أصبح صناعة متكلفة قلَّما يصدُق في وصف العاطفة وتصوير ميول النفس، وإنَّما كان كثير من الشعراء يستبقونه علىٰ أنه فنٌّ موروث لا ينبغي أن يضيع، وقد استحدثوا مكانه غزلًا جديدًا كان أصدق تصويرًا لنفوسهم وبيئتهم وما انتهت إليه حياتهم من الفساد لكثرة الرقيق، ولمَّا كان لهذا الرقيق من سلطان علىٰ النفوس وهو الذي يسمُّونه غزل المذكر.

وكالهجاء الذي ازداد قبحًا وعظُم حظه من الإقزاع والفحش يُقصد إليه، ويبحث عنه، وتلتمس فيه السيئات التماسًا.

وكالمدح الذي كثرت فيه المبالغة، واشتد فيه الإسراف، وبعد فيه الشعراء عن القصد الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص، وسَفَل به الشعراء حتَّىٰ اتخذوه أداة للكسب في غير تعفف ولا كرامة ولا حياء.

وأشد الفنون الشعرية وأكثرها نموًا وشيوعًا في هذا العصر المجون ووصف الخمر، وقد دعا إلىٰ نمو هذا الفن وتهالُكِ النَّاس عليه؛ ما أحدثه الانتقال من فساد الأخلاق وانحلال الروابط الاجتماعية، وتسلط الإماء علىٰ الحياة المنزلية، واستبدادهن بمكان الحرائر من الرجال وإتقانهن للعربية وآدابها، وبروزهن للناس، واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهرًا، وما كان من تسلُّط الرقيق من غلمان الترك والروم علىٰ نفوس الزعماء والسادة، واستئثارهم بالسلطان علىٰ حياة هؤلاء الزعماء يدبرون قصورهم وثروتهم كما يحبُّون ويشتهون، أضف إلىٰ هذا كله؛ ظهورَ المذاهب الفلسفية المختلفة، وكثرة المقالات الدينية، وما يدعو إليه هذا من اضطراب العقول، وتسلط الشك علىٰ نفوس الطبقة الوسطىٰ من الناس.

علىٰ أنَّ فنًّا آخر من الشعر جِدِّيا ظهر في هذا العصر، وكان أبو العتاهية هو الذي أظهره وأذاعه وهو الزهد، ومهما يكن ظهور هذا الفن غريبا في هذه البيئة؛ فإنَّ تعليله يسير بما كان من اشتداد الصلة بين العرب والفرس، وانتشار الحكمة الشرقية فارسية وهندية في هذه البيئة، وحرص الفرس علىٰ إذاعتها، فظهرت هذه الحكمة في زهد أبي العتاهية شعرًا، وظهرت في كتب ابن المقفع نثرًا، ولكنها لم تجد ما يزينها من شعر أبي العتاهية كما وجدت ما يجملها من نثر ابن المقفع، وظهر في هذا العصر نوعٌ طريف من الشعر ليس له هذا الجمال الشعري الذي نألفه فيما ورثناه من شعر القدماء والمحدثين، ولكنَّ ظهوره يدل علىٰ ما كان من تسلط العقل علىٰ الحياة الأدبية في هذا العصر، وهذا الفن هو الشعر التعليمي الذي اتخذه أصحابه وسيلة إلىٰ نظم ألوان من فنون العلم ليسهل حفظها واستظهارها، فمنهم من نظم كليلة ودمنة، ومنهم من نظم قصائد في الفقه، وما إلىٰ ذلك من الفنون التي كان المثقفون يحرصون علىٰ إتقانها وإجادتها.

وبرعت طائفة من شعراء هذا العصر في الوصف المادي علىٰ نحو ما كان يفعل العرب الجاهليون والإسلاميون، ولكنهم غيروا موضوع هذا

الوصف، فلم يسرفوا في وصف الإبل والخيل والصحراء، بل لم يقصدوا إلىٰ هذا النوع من الوصف إلا حين كانت تدعوهم إليه المحافظة علىٰ السنن الشعرية الموروثة، وإنَّما وصفوا أشياء جديدة أحدثتها الحضارة العباسية كالقصور والبساتين والكؤوس وما يتصل بكل هذا من أدوات اللهو والترف حتَّىٰ الصيد، فقد أتقنه الجاهليون، وانصرف عنه الإسلاميون، ولكن هؤلاء الشعراء والمحدثين عادوا إليه وأكثروا فيه، وسلكوا سبيلًا غير سبيل الجاهليين، فوصفوا الصيد علىٰ نحو ما كان يصطنعه الفرس، ودققوا في وصف الكلاب والجوارح تدقيقًا لم يوفق إليه الجاهليون، ومن الغريب إنَّهم اتخذوا الرجز أداة لهذا الوصف، وبرع أبو نُواس فيه وأكثر من الغريب كأنَّه يريد أن يزن التجديد في المعنىٰ بالمحافظة الشديدة في اللفظ.

هذه هي صورة مجملة شديدة الإجمال، فيها نقض كثير لحياة الشعر العربي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ولكنَّ الاكتفاء بها كما هي لا يغني مَن يريد الإلمام بالحياة الأدبية في هذا العصر، فلا بد من الوقوف عند جماعة من الشعراء الذين صارت إليهم الزعامة الفنية في العراق لنتبين خصائصهم، ولنتبين من هذه الخصائص نفسها صحة هذه الصورة المجملة.

وهؤلاء الشعراء طبقات يتبع بعضها بعضًا عن قرب، ويلاحظ الناظر في تاريخها أنَّ كل واحدة منها كانت تخطو بالشعر خطوة إلىٰ الأمام، بالقياس إلىٰ الطبقة التي سبقتها، فأما أولىٰ هذه الطبقات فزعماؤها ثلاث: بشار بن برد، والسيد الحميري، ومروان بن أبي حفصة، وكلهم وُلد في أيام بني أمية، ونشأ في ظلهم، ومنهم من أدركه العصر العباسي وقد شبَّ وأكثر من قول الشعر والإجادة فيه[1].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٤٥-٢٥٥).

# بشار بن برد

فأما بشَّار بن بُرد ففارسيٌّ الأصل، وأبوه -فيما يقال- من سبي المهلب بن أبىٰ صُفرة، وكان ولاؤه في بني عقيل من قيس عَيْلان، ونشأ بشار في البصرة نشأة عربية خالصة، فأتقن اللغة وبرع في الأدب، وكان شاعرًا محاورًا وخطيبًا، واختلف إلىٰ مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفي غيره من مجالس المتكلمين، وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب، وكاد يستقر رأيه علىٰ مذهب المعتزلة، فقد فُتن بواصل بن عطاء زعيمِهم، ومدحه فأحسن مدحه، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجاهم، واستطار الشر بينه وبين واصل حتَّىٰ تحدَّث واصل بأنه كاد يدس إليه من يقتله لولا أنَّ دينه وخلقه يأبيان عليه الغِيلة[1]، وصار بشَّار إلىٰ الشك ثم الزندقة، وصار في الوقت نفسه إلىٰ الشُّعوبية، فكره العربَ ودينَهم، وأحبَّ الفرس وفاخر بهم وآثر مذهبهم الديني، يجهر بهذا إن سنحت له الفرصة، ويخفيه إن أشفق من السلطان.

---

(١) الغيلَةُ بالكسر: الاغْتيالُ، يقال: قَتَله غيلَةً، وهو أن يخدعه فيذهب به إلىٰ موضعٍ، فإذا صار إليه قتلَه، انظرك الصحاح (٥/ ١٧٨٧).

### * شعره:

علىٰ أنَّ الذي اشتهر من أمره حتَّىٰ عرفه النَّاس به؛ إنَّما هو الشعر دون غيره من ألوان العلم والفن، فقد كان شاعرًا مُجيدًا، تأثر الشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم، وكان يحب جريرًا ويؤثره علىٰ غيره، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبة في أن ينوّه به جرير فيرتفع أمره، ولكنَّ جريرًا أعرض عنه. وكان بشار عربي النزعة في الشعر، حريصًا علىٰ متانة اللفظ ورصانته، قلَّما يميل إلىٰ تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب، ولكنَّ مزاجه الفارسي قد ترك في شعره أثرًا ظاهرًا، فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخُلَّص ولا سيَّما حين كان يتغزل، فقد مال في غزله إلىٰ نحو من الفنون والمجون لم يعرفه الغَزِلون من شعراء الحجاز، سواء منهم العذريون وأصحاب المجون. كان بشار صريحا في غزله قبيح الصراحة أحيانًا، وكان مسرفًا في الرقة إذا تغزل، حتَّىٰ خاف الأشراف وأهل الصلاح شرَّه علىٰ النساء والشبان، فذمَّه الوعاظ والقصاص في وعظهم وقصصهم، وشكاه أشراف النَّاس إلىٰ السلطان، فنهاه المهدي عن الغزل فانتهىٰ علىٰ كره ونفاق. وكان طويل اللسان مُقذِع الهجاء مسرفًا فيه، لا يتحرَّج ولا يرعىٰ لأحد عهدًا ولا ذمة ولا مكانة، وما زال به إسرافه في الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتَّىٰ كاد له بعض خصومه عند المهدي فأمر بضربه حتَّىٰ مات سنة ١٦٧هـ.

وكان شعر بشار كثيرًا، يقال إنه بلغ اثني عشر ألف قصيدة، ولكن لم يبق لنا من هذا الشعر الكثير إلا مقطعات متفرقة في كتب الأدب نعرف فيها شدَّة اللفظ ومتانته إذا جدّ، ونعرف فيها اللين والفتور إذا تغزل أو هزل، ونعرف فيها علىٰ كل حال جودة المعاني ودقتها وحسن الاستقصاء لها.

والرواة مجمِعون علىٰ أنه زعيم الشعراء المحدَثين كافَّة، وقد نستطيع أن نقبل هذا لو أنَّ من شعره بين أيدينا مقدارًا يمكننا من الحكم عليه.

وكان بشار أكمه، قبيح المنظر، ضخم الجسم، ثقيل الظل، يُعجَب النَّاس به ولا يحبونه[1].

---

(١) أمثلة من شعره:

أَجْـعَـلُ الـحُـبّ بـيـن حـبِـي وبـيـنِـي — قـاضـيًـا إِنـنـي بـه الـيـوْمَ راضـي

فَـاجْـتَـمـعْـنَـا فـقـلْـتُ يَـاحُـبَّ نـفـسِـي — إنَّ عـيـنـي قـلـيـلـةُ الإغـتـمـاض

أنـتَ عـذَّبْـتَـنِـي وأَنْـحَـلْـتَ جِـسْـمِـي — فـارحـم الـيَـوْمَ دائـم الأَمْـرَاض

قـال لـي لا يـحـلُّ حـكـمـي عـلـيـهـا — أنـت أولـىٰ بـالـسـقـم والإحـراض

قـلـتُ لـمَّـا أجـابـنـي بـهـواهـا — شـمـل الـجـورُ فـي الـهـوىٰ كـلَّ قـاض

وقال:

لـم يـطُـلْ لـيـلـي ولـكـن لـم أَنَـمْ — ونـفـىٰ عـنـي الـكَـرىٰ طـيـفُ ألـم

وإذا قـلـتُ لـهـا جُـودي لـنـا — خـرجَـتْ بـالـصـمـت عـن لا ونـعـم

نَـفِّـسـي يـا عـبـد عـنـي واعـلـمـي — أنَّـنـي يـا عـبـد مـن لـحـم ودم

خـتـم الـحـبُّ لـهـا فـي عـنـقـي — مـوضِـعَ الـخَـاتَـم مـن أهـل الـذِّمَـم

وقال:

إذا مـا غـضـبـنـا غـضـبـةً مُـضـريـةً — هتكنا حجاب الشَّمس أو أمطرت دَمَا

إذا مـا أعـرنـا سـيـدًا مـن قـبـيـلـة — ذُرَىٰ مِـنْـبَـرٍ صـلَّـىٰ عـلـيـنـا وسـلَّـمـا

وقال:

يـقـولـون لـو عـزَّيْـت قـلـبـك لارْعَـوىٰ — فـقـلـتُ وهـل لـلـعـاشـقـيـن قـلـوب

إذا نـطـق الـقـوم الـجـلـوس فـإنـنـي — مُـكِـبٌّ كـأنِّـىٰ فـي الـجـمـيـع غـريـب

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر بشار. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٠٤، ١٠٥) ط، عالم الأدب. وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٤٨-٢٥٣) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٥٦-٢٥٧).

# السيد الحميري

وأمَّا السيد الحميري واسمه إسماعيل بن محمد؛ فعربيٌّ من يمانية العراق، نشأ كبشَّار في العصر الأموي، وأظلَّه عصر بني العباس، وقد أكثر من قول الشعر والإجادة فيه، وكان أبوه من الخوارج الإباضية، ولكنه نشأ شيعةً لعلي وبنيه، فاستنفد فيهم أكثر شعره، ولم يمنعه حبُّه إياهم أن يمدح العباسيين، ويأخذ جوائزهم، ولكنه كان صريحًا لا يُخفي حبه للعلويين مخافة بني العباس، كما أنه كان يحب العباسيين ويؤثرهم علىٰ بني أمية، ويستبشر بقيام دولتهم.

وكان السيد الحميري ضعيف العقل مضطرب النفس شديد التردد، وكان هذا كله مصدر ما يروىٰ عنه من سخف كثير، فقد يؤمن بالرجعة والتناسخ، ويفهم ذلك فهمًا أدنىٰ إلىٰ فهم العامَّة منه إلىٰ فهم العلماء، وكان لفظه إذا قال الشعر سهلًا يسيرًا ربما أسرف في السهولة واليسر حتَّىٰ أسفَّ وابتُذِلَ، أما معانيه فكان منها الجيد القيم، ومنها السخيف المرذول، وقد ضاع شعره إلا مقطعات مفرقات في الكتب وتوفي سنة ١٧٣هـ[1].

---

(١) أمثلة من شعره قال:

أُمــرُرْ عــلــىٰ جَــدَثِ الــحــســيــن ... فــقُــل لأَعْــظُــمِــهِ الــزَّكِــيَّــة

يــا أعــظُــمًــا لا زِلْــتِ مِــنْ ... وَطْــفَــاءَ سَــاكِــبَــةً رَوِيَّــة

وإذا مَــرَرْتَ بــقــبــره ... فــأَطِــلْ بــه وَقْــفَ الــمَــطِــيَّــة

وابــكِ الــمُــطــهَّــر لــلــمُــطــهَّــر ... والــمُــطــهَّــرة الــنــقــيَّــة =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

---

= كـــبُـــكـــاء مُـــعْـــوَلَـــةٍ غَـــدَتْ ... يـــومًـــا بـــواحـــدهـــا الـــمـــنِـــيَّـــة

وقال:

سـائـل قـريـشًـا إذا مـا كـنـت ذا عَـمَـهٍ ... مـن كـان أثـبـتـهـا فـي الـديـن أوتـادًا؟

مـن كـان أعـلـمـهـا عـلـمًـا وأحـلـمـهـا ... حـلـمًـا وأصـدقـهـا قـولًا ومـيـعـادًا؟

مـن وحَّـد الـلـه إذ كـانـت مـكـذبـة ... تـدعـو مـع الـلـه أوثـانًـا وأنـدادًا

وقال:

أيُّـهـا الـمـادح الـعـبـاد لـيـعـطىٰ ... إن لـلـه مـا بـأيـدي الـعـبـاد

فـاسـأل الـلـه مـا طـلـبـت إلـيـهـم ... وارْجُ نـفـع الـمـنـزِّل الـعـوَّاد

لا تـقـل فـي الـجـواد مـا لـيـس فـيـه ... وتـسـمـي الـبـخـيـل بـاسـم الـجـواد

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر السيد الحميري. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٠٩، ١٠٧) ط عالم الأدب.

# مَرْوَانُ بن أبى حَفْصَة

وكان مروان بن أبي حفصة من أسرة فارسية، جُلب أصلها إلىٰ الحجاز أيام عثمان بن عفان، فوهبه عثمان لمروان بن الحكم فأخلص هذا الرجل لمروان وأحسن البلاء في الدفاع عنه يوم الدار فأعتقه مروان، واستقر الرجل في اليمامة فظلت أسرته فيها طوال العصر الأموي، وفي هذا العصر ولد شاعرنا ونشأ وشبَّ حتَّىٰ أدخل علىٰ الوليد بن يزيد، ولكن تفوقه في الشعر لم يظهر إلا أيام العباسيين، وقد أبىٰ مروان بن أبي حفصة أن يترك اليمامة ويستقر في مصر من أمصار العراق، فظلَّ بعيدًا عن التأثير الفارسي إلىٰ حد ما وظهر أثر ذلك في شعره، فهو متين رصين، جزل اللفظ صُلْب المعنىٰ أشبه بشعر الفحول من شعراء الإسلام، وقد انقطع أول أمره لعامل من عمال العباسيين في جزيرة العرب هو معن بن زائدة الشيباني، فأحسن مدحه وأكثر فيه وأخذ منه أموالًا طائلة، واشتهر شعره حتَّىٰ بلغ المهدي فحسد عليه عامله، كالذي كان بين جرير والحجاج وعبد الملك، ثم عظم أمر مروان فارتحل بشعره إلىٰ العراق ومدح الخلفاء من بني العباس وأحسن مدحهم، ووجه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية والرد علىٰ العلويين وإنكار حقهم في الخلافة، ففتح هذا الباب للشعراء المعاصرين فدخلوا فيه من بعده، وقدر له الخلفاء ذلك فأجزلوا العطاء له، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم.

وكان مروان بن أبي حفصة صاحب صنعة وتجويد للشعر، يُبطئ في قوله ثم يعيد النظر فيه إذا فرغ منه، ولا ينشد القصيدة بين يدي الخليفة حتَّىٰ ينفق في قولها وتجويدها استشارة الأدباء والعلماء فيها سنة كاملة وقد توفي سنة (١٨١هـ)[١].

وقد تأثرت هذه الطبقة ولا سيَّما بشار والسيد الحميري بالفرس وحضارتهم من غير شك تأثرًا قويًا، ولكن تأثرها باليونان وعلومهم كان قليلًا بالقياس إلىٰ الطبقة التي جاءت بعدها، وزعماء هذه الطبقة الثانية ثلاثة أيضًا هم أبو نُواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد.

---

(١) أمثلة من شعره، قال يدافع عن العباسيين ويرد علىٰ العلويين:

**أنَّىٰ يكونُ وليس ذاك بكائنٍ ... لبني البنات وراثة الأعمام**

وقال يمدح بني مطر وهم معن وإخوته:

**بنو مطر يوم اللقاء كأنَّهم ... أسودٌ لهم في غيل خفان أشبلُ**
**تجنَّب (لا) في القول حتَّىٰ كأنَّه ... حرامٌ عليه قولُ (لا) حين يُسأل**
**تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فلا نحن ندري أيَّ يوميه أفضل**
**أيوم نداه العمر أو يوم بأسه ... وما منهما إلا أغرُّ مُحَجَّل**
**بهاليلُ في الإسلام سادُوا ولم يكن ... كأوَّلهم في الجاهلية أوَّلُ**
**هُمُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا**
**هم يمنعون الجار حتَّىٰ كأنَّما ... لجارهم بين السِّمَاكَيْن مَنْزِلُ**
**وما يستطيع الفاعلون فِعَالهم ... وإن أحسنوا في النائبات وأجزلوا**

وقال في معن بن زائدة الشيباني:

**قد آمن الله من خوف ومن عدم ... من كان جارًا له من جور ذا الزمن**
**معن بن زائدة الموفي بذمَّته ... والمشتري المجد بالغالي من الثمن**
**يرىٰ العطايا التي تبقىٰ محامدها ... غُنْما إذا عدَّها المعطىٰ من الغبن**
**بنىٰ لشيبان مجدًا لا زوال له ... حتىٰ يزول ذوو الأركان من حضن**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر مروان. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤١٠، ١٠٨) ط، عالم الأدب.

# أبو نُوَاس

فأما أبو نواس الحسن بن هانئ؛ فولد سنة ١٤٥هـ ولم يدرك العصر الأموي، ولكن أباه كان من جند مروان بن محمد من أهل الشام، وكانت أمه فارسية من الأهواز، ونشأ في العراق نشأة هذا الجيل الذي وصفناه آنفًا، فكانت لغته عربية، وحضارته فارسية، وثقافته مزاجًا من الثقافة العربية الفارسية، ومن الثقافة اليونانية التي أخذت تشيع وتنتشر في عصره، وكان شباب أبي نواس شديد النشاط فكان يتصل بالشعراء والأدباء وأهل اللغة فيأخذ عنهم، وكان يختلف إلىٰ مجالس المتكلمين فيأخذ بحظ من الكلام، وكان يسمع للقصاص والمحدثين فيروي عنهم، ثم كان يفرط في الأخذ بحظه من الحياة ولذاتها.

وأبو نواس هو الشاعر الذي يمثل هذا العصر الجديد أصدق تمثيل، يمثله من ناحيته الأدبية، فقد كان رواية كثير الرواية، يتقن اللغة العربية قولًا وعلمًا، ويمثله من هذه الناحية التي التقت فيها الثقافات الثلاث المختلفة، فهو عربي خالص إذا قصد إلىٰ بعض أنواع الجد كالمدح والرثاء، وهو إذا قصد إلىٰ الهزل ظَرُف ولاءم بين هذه الثقافات كلها، فأخذ عن العرب لفظًا متينًا جزلًا، وأخذ عنهم أوزانهم وقوافيهم، وأخذ من الفرس أوصافهم المادية للحياة المتحضرة، وأخذ من اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية، وقد أكثر أبو نواس من قراءة شعر الوليد بن يزيد، وكان الوليد وصَّافًا للخمر، فوصفها أبو نواس وتفوق في وصفها علىٰ أستاذه.

## * شعره:

وشعر أبىٰ نواس يصوِّر فساد البيئة العراقية في ذلك العصر، فهو أكثر الشعراء في هذا العصر مجونًا، وأشدهم إفحاشًا في هذا المجون، وأقلهم احتياطًا في القول والعمل، أقام في العراق مترددًا بين البصرة والكوفة وبغداد، ثم رحل إلىٰ الشام ثم إلىٰ مصر، ثم عاد إلىٰ العراق واستفاد من كل هذه البيئات، وكأنَّ ثورة التجديد قد وجدت فيه أداةً صالحة فاتخذته لها تُرجمانًا، فكان أبو نواس أشدَّ شعراء هذا العصر سخطًا علىٰ المذهب الشعري القديم، ودعوةً إلىٰ العدول عنه إلىٰ المذهب الجديد الذي يُؤْثر الحضارة علىٰ البداوة، ويريد أن يكون الشعر حَضَريًا في ألفاظه ومعانيه وأغراضه.

ولم يكن أبو نواس بريئًا من الشُّعُوبية وبُغض العرب، وكانت تهمة الزندقة تحوم حوله، ولم يكن يتحرج من الجهر بالفسق والمعصية، معتمدًا علىٰ عفو الله ومغفرته، وقد كره الرشيد والأمين منه هذا كله أو بعضه فحبساه وغضبا عليه، ولكنَّ حبسه والغضب عليه كانا ينتهيان دائمًا بالعفو عنه، ومات أبو نواس في آخر هذا القرن الثاني سنة (١٩٩)[1].

---

(١) **أمثلة من شعره:**

**بعث للفضل بن الربيع وكان قد حبس لتهتكه:**

أنت يا ابن الربيع علمتني الخير ... وعوَّدْتِنيه والخيرُ عَادَهْ
فارْعَوىٰ باطِلِي وراجعني الحلم ... وأَحْدَثْتُ عفَّةً وَزَهَادَهْ
لو تراني ذَكَرْتَ بي الحَسَنَ ... البَصْريَّ في حال نُسْكِه أو قَتَادَهْ
من خشوع لِريبةٍ بخُضوع ... واصفرارٍ مثل اصفرار الجَرَادَه
التسابيح في ذراعي والمصحف ... في لَبَّتِي مكان القِلَادَهْ
فإذا شئت أن ترىٰ طُرفة ... تَعْجَب منها مليحةً مُستفادَهْ
فادْعُ بي لا عمدت تَقْويمَ مِثْلي ... فتأمَّل بعينك السِّجَّادَهْ
ترسيمًا من الصلاة بوجهي ... توقن النَّفْسُ أنَّها من عبادَهْ
لو رآها بعضُ المرائين يومًا ... لاشتراها يُعِدُّهُا للشهادَهْ
ولقد طالَمَا شَقِيتُ ولكن ... أَدْرَكَتْنِي علىٰ يَدَيْك السَّعادَهْ =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

---

= **ويقول في وصف الكأس وما عليها من تصاوير:**

**تـدور عـلـيـنـا الـراح فـي عـسـجـديـة ... حَـبَـتْـهـا بـألـوان الـتـصـاويـر فـارسُ**

**قَـرارَتُـهـا كِـسْـرىٰ وفـىٰ جَـنَـبـاتِـهـا ... مـهًـىٰ تُـدرِّيـهـا بـالـقـسـي الـفـوارسُ**

**فـلـلـرَّاح مـا زَرَّتْ عـلـيـه جـيـوبـهـا ... ولـلـمـاء مـا دارت عـلـيـه الـقَـلانِـسُ**

**وقال:**

**يـا عـاقـد الـقـلـب مـنـي ... هـلَّا تـذكَّـرتَ حـلَّا**

**تـركـتَ قـلـبـي عـلـيـلًا ... مـن الـقـلـيـل أقـلَّا**

**يـكـاد لا يـتـجـزَّأ ... أقـلَّ فـي الـلـفـظ مـن لا**

وقال يتهكم بالقديم:

**لا تـبـكِ لـيـلـىٰ ولا تَـطْـرَب إلـىٰ هـنـدٍ ... واشـرب علـىٰ الـورد مـن حـمـراءَ كـالـورد**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر أبي نواس. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤١٤، ١٠٩) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٥٧-٢٦١) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٥٧-٢٥٩).

# أبو العتاهية

وولد إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية في آخر العصر الأموي، ونشأ نشأة عباسية، في أسرة من الموالي فقيرة بالكوفة، كان سيئ السيرة في طفولته ثم عمل مع أبيه في صنع الجِرار وبيعها، ولكنه أتقن العربية وأحب الشعر فتكلفه، ولم يلبث أن برع فيه، وأصبح الشعر له طبعًا كالنثر، وقد اضطرب أبو العتاهية بين مذاهب المتكلمين وأصحاب المقالات كما اضطرب في حياته بين الهزل والجد، واتصل بالخلفاء من بني العباس فقربوه وأحبوه إلىٰ أن مات سنة (٢١١هـ).

## * شعره:

وقد عرض أبو العتاهية لفنون الشعر التي كانت مألوفة في عصره فمدح وأحسن المدح، وهجا ولكنه لم يثبت للهجائيين، وتغزل عن تكلف، وأكثر من الزهد عن تكلف أيضًا، ولكنه نشر هذا الفن وأذاعه شعرًا، وحظ أبي العتاهية قليل من متانة الشعر ورصانته، وسهولة شعره تُدْنيه من السخف في كثير من الأحيان ولكنَّ معانيه الجيدة لا تكاد تحصىٰ[1].

---

(١) أمثلة من شعره:

إذا المرء لم يَعْتِقْ من المال نفسَه ... تملَّكه المالُ الذي هو مالِكُه

ألا إنَّما مالي الذي أنا منفقٌ ... وليس ليَ المالُ الذي أنا تاركه =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

---

= وقال:

أُذْنَ حـــيٍّ تـــســـمَّـــعـــي ... واســـمـــعـــي ثُـــمَّ عِـــي وَعِـــي

أنـــا رَهْـــنٌ بـــمَـــضْـــجَـــعـــي ... فـــاحـــذري مـــثـــل مَـــصْـــرعـــي

عـــشـــت تـــســـعـــيـــن حـــجـــة ... فـــي ديـــار الـــتَّـــزَعْـــزُعِ

لـــيـــس زادٌ ســـوىٰ الـــتُّـــقَـــىٰ ... فـــخُـــذِي مـــنـــه أو دَعِـــي

وقال:

شـدة الـحـرص مـا عـلـمـت وضـاعـه ... وعـــنـــاء وفـــاقـــة وضـــراعـــه

إنَّـمـا الـراحـة الـمـريـحـة فـي الـيـأ ... س مـن الـنَّـاس والـغـنـىٰ فـي الـقـنـاعـه

نـحـن فـي دار مـرتـع غـبـه الـمـو ... ت ودار صـــرامـــة خـــداعـــه

عـزم الـلـيـل والـنـهـار عـلـىٰ أن ... لا يـمـلا تـفـريـق كـل جـمـاعـه

ومن أرجوزته التي قالوا إن فيها أربعة آلاف مَثَل:

إن الـقـلـيـل بـالـقـلـيـل يـكـثـر ... إنَّ الـصَّـفـاءَ بـالـقَـذَىٰ لَـيَـكْـدُرُ

هـي الـمـقـاديـر فـلُـمْـنـي أو فَـذَرْ ... إن كـنـتُ أخـطـأتُ فـمـا أخـطـا الـقَـدَرُ

مـا انـتـفـع الـمـرء بـمـثـل عـقـلـه ... وخـيـرُ ذُخْـرِ الـمـرء حُـسْـنُ فِـعْـلـه

إنَّ الـفـسـادَ ضِـدَّهُ الـصَّـلاحُ ... ورُبَّ جـدٍّ جَـرَّهُ الـمـزاح

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر أبي العتاهية؛ انظر: المنتخب من أدب العرب (٤٣١، ١١٣) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٦١-٢٦٣) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٥٣-٢٥٧).

# مُسلم بن الوَليد

وكان مسلم بن الوليد ويلقب (بصريع الغوانىٰ) مولًىٰ من موالي الأنصار، نشأ نشأة عباسية أيضًا، واتصل بقواد الدولة وعمالها، فمدحهم وظفر منهم بالجوائز الضخمة، ومدح الخلفاء ورفعة شعره حتَّىٰ عمل في بعض المناصب، ومات في أوائل القرن الثالث بجرجان سنة ٢٠٨.

وكان مختلف المذهب في الشعر، يسهل حتَّىٰ لا تحس وأنت تقرؤه أنك تقرأ الشعر لولا الوزن والقافية، ويحزن حتَّىٰ يخيَّل إليك وأنت تقرؤه أنك تقرأ للفحول من شعراء الجاهلية والإسلام، وكان متأثرًا «بشَّارًا»، ويسترسل مع طبعه أحيانًا، ويجوِّد فنَّه أحيانًا أخرىٰ، والرواة يعدونه بعد «بشَّار» أكثر النَّاس عناية بالبديع(١).

---

(١) أمثله من شعره:

يقول في الوداع:

وإنـــي وإســـمـــاعـــيـــل يـــوم وداعـــه ... لـكـالـغـمـد يـوم الـرَّوْع زايـلـه الـنَّـصْـلُ

فـإنْ أغْـشَ قـومًـا بـعـدهـم أو أزرهـم ... فكـالوحش يدنيها من الأَنَسِ المَحْل

وقال يمدح يزيد بن مزيد:

مـوفٍ عـلـىٰ مُـهَـجٍ فـي يـوم ذي رَهَـجٍ ... كـــأنَّـــه أجـــلٌ يـــســـعـــىٰ إلـــىٰ أَمَـــلِ

يـنـال بـالـرفـق مـا يـعـيـا الـرجـال بـه ... كـالـموت مستعجلًا يـأتي علىٰ مَهَل

لا يـرحـل الـنَّـاس إلا نـحـو حُـجـرتـه ... كـالـبـيـت يُـضحي إلـيه ملتقىٰ السُّبُلِ

يـقـري الـمـنـيَّـةَ أرواحُ الـكُـمـاة كـمـا ... يـقـري الـضـيـوف شحوم الكوم والبُزُلِ

يـكـسـو الـسـيـوف رءوس الـنـاكـثـيـن بـه ... ويـجـعـل الـهـامَ تـيـجـانَ الـقَـنـا الـذُبُـلِ =

ثم تقدم القرن الثالث قليلًا وإذا الطبقة الثالثة من هؤلاء الشعراء قد ظهرت وعلىٰ رأسها حبيب بن أَوْس أبو تمَّام الطَّائي الذي ولد بجاسم وهي قرية من قرىٰ دمشق، ورحل إلىٰ مصر طفلًا فنشأ فيها، ثم عاد إلىٰ الشام والعراق، وإذا هو شاعر فحل، ولكنه يذهب في الشعر مذهبًا جديدًا؛ يدقق في المعاني أشدَّ التدقيق ويتكلف تجويدها أشدَّ التكلف، ويهمل اللفظ أحيانًا حتَّىٰ يفتر، ويُعْنَىٰ به أحيانًا حتَّىٰ تفسده العناية، ويتكلف البديع إلىٰ غير حد، ويكاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع، ويجعله صناعة كغيره من الصناعات التي لا تُرسَل النفوس فيها علىٰ سجيتها، وهو شديد التأثر بالناحية اليونانية من الثقافة الإسلامية، قد درس الفلسفة فأحسن درسها، واستغلَّ الحكمة اليونانية في شعره فأكثر من ضرب المثل، وأغنىٰ اللغة العربية بمعانٍ لم تكن مألوفة فيها[1].

---

= قد عوَّد الطيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها ... فهُنَّ يَتْبَعْنَه في كلِّ مُرْتَحَلِ

وقال:

إذا التقيتنا منعنا النومَ أعيننا ... ولا نلائم نومًا حين نفترق

أُقِرُّ بالذنب مني لستُ أعرفه ... كيما أقول كما قالت فنَتَّفِقُ

حبست دمعي علىٰ ذنب تُجَدِّدُه ... فكلُّ يومٍ دموعُ العين تستبقُ

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر مسلم. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٢٤، ١١١) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٥٩-٢٦١).

(١) أمثلة من شعره:

تعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتَّىٰ لو أنَّه ... ثَنَاها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أَنَامِلُه

ولو لم يكن في كَفِّه غير روحه ... لَجَاد بها فليتَّقِ الله سائلُه

وقال:

لا تُنْكري همِّي فإنِّي زائدي ... حزْمًا حضارُ النائباتِ وشيمها

والحادثات وإنْ أصابك بؤسها ... فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وقال:

أَوْلىٰ البرية حقًّا أن تراعيَه ... عند السرور الذي آساك في الحزن

إنَّ الكرام إذا ما أيسروا ذَكَروا ... من كان يَأْلَفُهم في المَوطِن الخَشِن

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر أبي تمام. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٣٥، ١١٤) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٦٣-٢٦٦) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٧٥-٢٧٩).

# البُحْتُرِيُّ

ويتبعه أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي، فيأخذ عنه ويتخرج عليه، ولكنه لا يسلك في شعره نفس الطريقة التي سلكها أستاذه، وإنَّما يتوسَّط بعضَ التوسط فيميل إلىٰ الناحية العربية الخالصة ميلًا ظاهرًا، وإذا في شعره شيء من البديع وكثير من التدقيق في المعاني، ولكن عنايته باللفظ الجزل علىٰ أسلوب الفحول من شعراء القرن الثاني ظاهرة جليَّة، وهو وصَّاف بارع في الوصف، ولكن ميله إلىٰ وصف الحضارة المادية أشدُّ من ميله إلىٰ وصف المعاني، وهو مصوِّر ماهر لعواطف النفس، قادر علىٰ أن يرثي فيبكيك، وعلىٰ أن يستعطف فيعطفك، يبلغ ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء، وهو غزل خفيف الروح إذا تغزل، مادح موفَّق إذا مدح، ويقول الرواة إنه كان علىٰ هذا كله مغرورًا، ثقيل الظل، بغيض الروح[1].

---

(١) **أمثلة من شعره:**

**أقوىٰ العواقب يأسٌ قبله أمل — وأعضل الداء نَكْسٌ بعد إبْلالِ**

**والمرء طاعةُ أيامٍ تُنقِّلُه — تَنُقُّلَ الظلِّ من حالٍ إلىٰ حالِ**

**وقال يمدح الفتح بن خاقان:**

**بَلَوْنا ضرائبَ مَن قد نرىٰ — فما إن رأينا لفتحٍ ضريبا**

**فكالسيف إن جئتَه صارخًا — وكالبحر إن جئته مستثيبًا**

**فتىٰ كرَّم الله أخلاقَه — وألْبَسَه الحمدَ غضًّا قَشِيبًا**

**وأعطاه من كلِّ فضل — يُعدُّ حظًّا ومن كلِّ مجدٍ نصيبًا**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر البحتري. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٦٢، ١١٧) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٦٦-٢٦٨) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٧٩-٢٨٢).

# ابن الرومي

وبينما يقوىٰ تأثير أبىٰ تمَّام والبحتري في الشام والجزيرة ويأخذ النَّاس في الإعجاب بهما والاختلاف فيهما أيهما أشعر من صاحبه، يظهر في العراق شاعران مختلفان أشدَّ الاختلاف، ولكنهما يتممان هذه السلاسل الذهبية من الشعراء العباسيين، أحدهما رجل من السُّوقة من موالي العباسيين، ولكنه مولىٰ يوناني لا فارسي هو أبو الحسن علي بن العباس بن جُرَيج المعروف بابن الرومي، كان أطول الشعراء المسلمين إلىٰ عصره نَفَسًا، وكان إلىٰ ذلك قوي الطبع، خصبه، غني النفس، حاد الشعور مضطرب المزاج إلىٰ حد التطير، وكان لفظه سهلًا ولكن حظه من الجزالة والمتانة عظيم، وكان من أقبح الشعراء هجاء، ومن أبرعهم في العتاب، ومن الطبيعي أن نلحظ الفرق في شعره بين أصله اليوناني والأصول الفارسية أو العربية لغيره من الشعراء، فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفًا منطقيًا فنيًا لا عوج فيها ولا ضعف، ولا ميل إلىٰ الاستطراد، وقد مات ابن الرومي مسمومًا سنة ٢٨٣ هجرية(١).

---

(١) أمثلة من شعره:

قال في الشباب:

رأيت سواد الرَّأس واللهو تحته ... كَلِيلٌ وحُلْم بات رائيه يَنْعَمُ

فلمَّا اضمحلَّ الليلُ زال نعيمُه ... فلم يبقَ إلا عهدُه المتنعِّمُ

وقال في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفًا ... علىٰ الجوِّ دُكنًا والحواشي علىٰ الأرضِ

يطرزها قوسُ السحاب بأخضر ... علىٰ أحمر في أصفر إثر مُبْيَضِّ

=

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= كـأذيـالِ خُـودٍ أقـبـلـت فـي غـلائـل مُـصبَّـغـة والـبـعـضُ أصـغـر مـن بـعـض

وقال:

لاح شـيـبـي فـرُحْـتُ أَمْـرَحُ فـيـه مَـرَحَ الـطَّـرفِ فـي الـعِـذار الـمُـحلَّـىٰ

وتـولَّـىٰ الـشـبـاب فـازددت ركـضًـا فـي مـيـاديـن بـاطـلـي إذ تـولَّـىٰ

إنَّ مَـن سـاءه الـزَّمـان بـشـيءٍ لأحـقُّ امـرئٍ بـأن يـتـسـلَّـىٰ

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر ابن الرومي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٥٥، ١١٨) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٦١-٢٦٦) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٨٦-٢٧٠).

# ابن المعتز

والثاني رجل عربي ولد في قصر الخلافة ونشأ في حجور الخلفاء، وهو عبد الله ابن المعتز بن المتوكل الذي ارتقىٰ إلىٰ عرش الخلافة فلم يكد يستقر عليه حتَّىٰ أُنزل عنه مقتولا إلىٰ القبر سنة ٢٩٦هـ وهو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة، فقد كان يحب الفن للفن، وينظم الشعر ليلهو به كما يلهو بالطعام والشراب والصيد والزينة وغيرها من متاع الحياة.

كان في العباسيين كالوليد في الأمويين، ولكن بينه وبين الوليد نحو قرنين نضج فيهما الفن العربي، وتُرجمت فيهما الفلسفة، وتأثر بهما العقل والشعور، فكان ابن المعتز متكلفًا بمقدار ما كان الوليد مطبوعًا، وأجاد ابن المعتز في تكلفه كما أجاد الوليد في طبعه.

وكل هذه الطبقة الثالثة، إلا ابن الرومي، تمتاز من الطبقتين الماضيتين بأنها جمعت بين الفن والعلم، فكان أصحابها شعراء ومؤلفين، فأما أبو تمَّام والبحتريُّ؛ فقد نظما الشعر وتخيَّرا من شعر غيرهما، فجمع أبو تمَّام ديوان الحماسة والنقائض بين الأخطل وجرير، وجمع البحتري حماسته، وأمَّا ابن المعتز فقد تصرَّف في فنون من العلم العربي فاستقصىٰ أنواعًا من البديع ووضع كتبًا مختلفة في الأدب، منها ما يقصد إلىٰ الأدب الخالص، ومنها ما يقصد إلىٰ الحياة العلمية ولهذه الظاهرة الجديدة قيمتها، فهي تدل علىٰ أنَّ الشعر قد أخذ يفقد مكانته الأدبية قليلًا، وأخذ الشعراء يشكُّون في إمكان

الاكتفاء به ويقصدون إلىٰ أن يعنوا معه بشيء آخر هو الذي يمتاز به هذا العصر، وهو العلم، أي أن هذا العصر العباسي ولا سيَّما منذ القرن الثالث قد أصبح عصر العقل لا عصر الخيال[1].

---

(١) **أمثلة من شعره:**

**أهدت إليَّ صحيفةً مكتوبةً — أَرْضَتْ بها سُخطَ الضمير العاتب**
**يا ليتنيٰ ضُمِّنْتُ طيَّ جوابها — حتَّىٰ أُقَبِّل كفَّ ذاك الكاتب**

**وقال:**

**قلبي وثَّاب إلىٰ ذا وذا — ليس يرىٰ شيئًا فيأباه**
**يهيم بالحُسن كما ينبغي — ويرحم القبحَ فيهواه**

**وقال:**

**ولقد قَضَتْ نفسي مآربها — وقضيت غيًّا مرةً ورَشَد**
**ونهارُ شَيْبِ الرَّأس يوقِظ مَن — قد كان في ليل الشباب رَقَد**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ شعر ابن المعتز. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٧٩، ١٢٠) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٦٦-٢٧٠) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٧٠-٢٧٢).

# الخطابة والنثر الفني

فأما النثر فقد كان قليل الخطر في العصر الأموي لا يكاد يحفل به أحد، إلا الخطابة فقد عرفْتَ ما كان لها من مكانة رفيعة وسلطان عظيم، فلمَّا كان هذا العصر الجديد ضعف أمر الخطابة لما قدمناه من ضعف الحياة السياسية للأحزاب، وفناء حرية الأفراد والجماعات في سلطان الدولة، وتسلط العنصر الأعجمي علىٰ العنصر العربي، واعتماد الدولة في الإقناع علىٰ السيف دون اللسان، وأخذت الخطابة تصبح شيئًا نادرًا لا يُلجأ إليه إلا في أيام الحفل التي يُقصد فيها إلىٰ إظهار جلال الخلافة وهيبة الخلفاء.

وإذ كانت الحياة العقلية قد أصبحت مظهرًا يمتاز به هذا العصر؛ عظُم أمر العلم وكثرت مجالس العلماء للدرس والمناظرة، وأخذت هذه المجالس تقوم مقام الاجتماعات التي كانت تظهر فيها الخطابة. وأخذت المناظرات بين الفقهاء وزعماء الفرق تقوم مقام الخطابة، وأخذ أصحابها يحرصون علىٰ مثل ما كان يحرص عليه الخطباء من فصاحة اللسان وبلاغة القول والتفوق في القدرة علىٰ الإقناع.

وقد قلنا غير مرة إنَّ ظهور النثر الفني ونموَّه رهينان برقيِّ العقل واتساع الحضارة وانتشار الكتابة والقراءة، وقد اجتمعت هذه الأشياء كلها للمسلمين في العصر الذي نحن بصدده، فظهر النثر الفني أيام بني أمية، ثم نما وتنوع وكثرت فنونه أيام بني العباس، فمن نثر الدواوين الذي يصدر عن الخلفاء

والوزراء مصرفًا لأعمال الدولة، في عبارة ظريفة رائعة إلىٰ هذا النثر الذي أخذ يتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من رغبة ورهبة وعتاب ورثاء ومدح وتهنئة، إلىٰ غير ذلك من هذه الفنون التي تصوِّر عواطف الأفراد وأهواء نفوسهم والأغراض التي يقصدون إليها في حياتهم العامة والخاصة، إلىٰ نوع آخر من النثر لا يتناول شؤون الدولة ولا أهواء الأفراد، وإنَّما يتناول النفس الإنسانية من حيث هي مؤثرة في الحياة ومتأثرة بها، فهو يصفها ويبين أخلاقها، وهو يرشدها إلىٰ الخير ويعظها أنْ تتورَّط في الشر، ويوضح لها سبل الحياة العامة بما يضرب لها من مُثُل، وما يفصل بين يديها من حكمة، إلىٰ نوع رابع من النثر يقصد به إلىٰ التفكهة والترفيه علىٰ النفس، أو إلىٰ تحقيق اللذة الفنية الخاصة بتناول الموضوعات الأدبية من نقد للشعر والخطابة أو شرح لهما، وما يتصل بهذا كله ممَّا تجده في كتب الأدب.

وكما أنَّ النثر قد نما وتنوع وكثرت فيه الفنون تنوعت مذاهب الكتاب أيضًا في أساليبه وطرائقه؛ فمنهم من كان يقصد إلىٰ الإيجاز المعجز، ومنهم من كان يقصد إلىٰ الإطناب، ومنهم من كان يسلك طريقًا بين بين.

هذا ولم نعرض للنثر العادي الذي كان العلماء والمؤلفون يصطنعونه في دروسهم وكتبهم العلمية الخالصة.

**ولنعرض الآن لذكر طائفة من مشهوري الكُتَّاب.**

## ابن المُقَفَّع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع، أحد فحول البلاغة ورؤساء الكتاب الأوائل، وكان أبوه من أبناء الفرس الناشئين في ولاء فصحاء العرب، فقد نشأ في بلاد خوزستان، وهي الأهواز، وهي ولاية كانت تكثر فيها جمهرة الأعراب من الفاتحين والمهاجرة، لخصب أرضها وقربها من البصرة، ولا تزال العناصر العربية غالبة علىٰ أهلها حتَّىٰ الآن فنشأ المقفع في ولاء آل الأهتم، وهُم بيت فصاحة ولَسَن وخطابة في الجاهلية والإسلام، فلا غرو أن نشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين. والمقفع واسمه دازويه نشأ مجوسيًا عاملًا للخَراج زمن يوسف بن عمر والي العراق، فظهرت عليه خيانة في مال الدولة، فضربه الأمير ضربًا تقفَّعت منه يده، فسمِّي من حينئذ المقفع، ومات علىٰ دينه ونشأ ابنه في البصرة يتكسب بصناعة أبيه، فخدم في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، وجمع بين ثقافتي العرب والعجم وقد قرأ آداب الفرس والهنود وكتب الحكمة التي كانت ترجمت زمن كسرىٰ أنوشروان من اليونانية، فجعله كل ذلك واحدَ زمانه، ولما جاءت الدولة العباسية اتصل بوالي البصرة والأهواز سليمان بن علي وعيسىٰ بن علي، عمَّيْ أبىٰ جعفر المنصور الخليفة العباسي، وهو علىٰ دينه، فكتب وترجم لها وللخليفة المنصور بعض كتب الأدب وكتب الفلسفة المنقولة من اليونانية، ثم أسلم علىٰ أيديهما.

واتفق أن خرج عبد الله بن علي عم المنصور عليه، فهزمته جيوش المنصور ففرَّ إلىٰ أخويه سليمان وعيسىٰ فطلبه المنصور منهما فأبَيَا إلا أن يكتب له أمانًا منه، فكلفهما كتابته، فأمرا ابن المقفع فتصعَّب في كتابة الأمان تصعبًا أغضب المنصور، فيقال أنه أغرىٰ به سفيان بن معاوية والي البصرة بعد عمه سليمان فقتله وأخفىٰ أمره.

ويقال إنه قتله لاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام، وكان ابن المقفع آية في البلاغة، ورصانة القول، وشرف المعاني، إلىٰ حسن بيان وسهولة لفظ ورشاقة أسلوب، ولا توصف بلاغته بأحسن ممَّا وصف هو البلاغة به، وقد قيل له: ما البلاغة؟ فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها».

ونصح لآخر فقال: «إياك والتتبع لوحشيِّ الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإنَّ ذلك هو العيُّ الأكبر» وكان ممَّن يضع السِّيَر والخرافات أو يترجمها، ومنها كتاب كليلة ودمنة أقدم كتاب أدب خيالي في اللِّسان العربي[1].

---

(١) أمثلة من رسائله:

(أ) أما بعد فإن من قضىٰ الحوائج لإخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده. [م]

(ب) إنك إن تلتمس رضا جميع النَّاس تلتمس ما لا تدرك، وكيف يتفق لك رأىٰ المختلفين؟ وما حاجتك إلىٰ رضا من رضاه الجور، وإلىٰ موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضا الأخيار منهم وذوي العقل، فأنك متىٰ تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه. [م]

ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من كتابات ابن المقفع. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٨٣، ١٢٩) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢١١-٢١٥) والوسيط في الأدب العربي (٢٠٥-٢٠٨).

# عمرو بن مَسْعدَة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صُول، أحد وزراء المأمون، وأبلغ كتّاب الإيجاز. وكان جدُّه صُول وأخوه فيروز مَلِكَيْ جُرْجان، هما من الترك الذين تمجَّسوا وتشبهوا بالفرس، أسلما في زمن بني أمية، ثم دخل جده سعيد بن صول في الدعوة العباسية، وكان من أكبر دعاتها وأنصارها، ثم صار بنوه كُتابًا في دواوين الدولة، ونشأ عمرو حفيده من أشهر كتاب الدولة وأبلغها، وصار كاتب التوقيع بين يدي جعفر بن يحيىٰ البرمكي، قال عن نفسه: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيىٰ فرفع إليه غلمانه يستزيدون في رواتبهم، فرمىٰ بها إليَّ وقال أجب عنها. فكتبت (قليل دائم، خير من كثير منقطع) فضرب بيده علىٰ ظهري، وقال أي وزير في جِلدِك! ثم كتب للفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل ثم صار وزيرًا للمأمون علىٰ ديوان الرسائل، ووثق به ووكل إليه تفتيش الولايات، وكان يستصحبه في غزواته، وربما ولاه قيادة بعض الجيوش. ومات بأذنة في غزوة مع المأمون سنة ٢١٦.

وكان عمرو بن مسعدة ممَّن يُضرب به المثل في الإيجاز كما يضرب بجعفر بن يحيىٰ، وكأنه تعلم منه هذه الصناعة، ولم يأت بعده من يقاربه فيها إلا ابن عمه إبراهيم بن العباس الصولي[1].

---

(١) ومن كلامه في شفاعة: كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، مَعْنّي بمن كتب له، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية، [م]

ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من كتابات عمرو. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (١٢٩، ١٢٣) ط، عالم الأدب.

# الجاحظ

هو أعجوبة الزمان، وإحدىٰ حجج اللسان العربي، أبو عثمان عمرو الجاحظ ابن بحر بن محبوب الكناني، وسمي الجاحظ لجحوظ عينيه، ونسبته إلىٰ كنانة بالولاء، فقيل إنَّ جده محبوبًا كان أسود جمالا لأحد سادات بني كنانة من أهل البصرة، وإن الجاحظ نشأ يتكسب بيديه، فربأ بنفسه عن هذه المهانة، وأقبل علىٰ العلم والأدب واللغة يأخذها عن أئمة البصريين، وأدرك طبقة سيبويه والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد، وأخذ عنهم اللغة والأدب، وأخذ عن النَظَّام مذهبه في علم الكلام، وتفرد بآراء في التوحيد كونت له مذهبًا خاصًا به، وتابعه طائفة من الفرق الإسلامية سُمُّوا بالجاحظية، ولم يأت عصر المأمون حتَّىٰ صار من حُذَّاق المؤلفين، وبلغت كتبه المأمون فأعجب بها وأثنىٰ عليه في حضوره، ثم ذاع صيته حتَّىٰ ملأ الدنيا، وأصبح أديب البصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأىٰ.

وتقرب في زمن المعتصم والواثق من وزيرهما الجبار محمد بن عبد الملك الزيَّات، فحظيَ عنده وكفاه مؤونة قصد غيره، وكان يريد نظمه في سلك كُتَّاب الدواوين فكتب بها في زمنه مدة فلم تَرُقْه، فعاد إلىٰ التصنيف والتدوين حتَّىٰ مات سنة ٢٥٥ ببغداد بعد أن بقي مدةً مفلوجا. قيل وقعت عليه قماطر الكتب وهو ضعيف فقضت عليه. والجاحظ أول من أكثر التصنيف في الأدب، وأول من أسهب القول في اللطائف والفكاهات، وأول

من وضع كتب المحاضرات الجامعة في الأدب والفنون الكثيرة، وأول عالم عظيم جمع بين طرفي الجد والهزل، فكان إمامًا في الدين وسامرًا من السُمَّار، وكانت له مشاركة في أكثر العلوم، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل مؤرخ عالم بالحيوان والنبات والمَوَات، وصَّاف لأحوال النَّاس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم، وهو علىٰ الجملة أحد أفذاذ العالم وإحدىٰ حجج اللسان العربي، وكان علىٰ دمامة خَلْقه خفيفًا ظريفًا، محببًا إلىٰ الظرفاء والأدباء.

وكان سهل العبارة طويل الإطناب إذا شاء، كثير إيراد الجمل المترادفة، دقيق الاستقصاء في وصف ما يريد وصفه أو التحدث عنه، وكان كثير الاستطراد في كتبه المطولة.

وأظرف ما كان يعجب النَّاس منه مزج الهزل بالجد، وقد خلَّف للعلم والأدب العربي أكثر من خمسين ومائتي كتاب، طبع منها بعض الكتب وأشهرها البيان والتبيين، والحيوان، وكتاب البخلاء، ومجموع رسائله[1].

---

(١) أمثلة من كلامه:

كتب إلىٰ محمد بن عبد الملك الزيات وكان قد تنكر له:

أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوىٰ، وصرف ما أعارك من القوة إلىٰ حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد خفت، أيدك الله، أن أكون عندك من المنسوبين إلىٰ نزق السفهاء، ومجانبة الحكماء. [م]

وكتب إلىٰ أحمد بن دؤاد يستعطفه:

ليس عندي، أعزك الله، سبب ولا أقدر علىٰ شفيع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين، فتكون خير معتب، وأكون أفضل شاكر الخ، [م]* ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من أدبيات الجاحظ. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٤٩٤، ١٢٤) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٢٢-٢٢٤) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢١٥-٢١٨).

# الثقافة العلمية في هذا العصر
## مراكزها

كان أهم مراكز الثقافة في هذا العصر البصرة والكوفة وبغداد في العراق، والمدينة في الحجاز، والفُسطاط في مصر، ونحن نذكر لك كلمة عن كل منها.

# المدينة

* **المدينة**: كانت المدينة من أعظم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة، فقد هاجر إليها النبي ﷺ وعلَّم بها أكثر تعاليم الإسلام، وكانت مُقام كثير من الصحابة الذين تلقَّوْا عن النبي ورَوَوْا أحاديثه، وكان بها كثير من الموالي الذين أُتي بهم أسرىٰ من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة، وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة، ثم سعيد بن المسيب وعُرْوة بن الزبير بن العوام من التابعين، ومن بعدهم كان الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المشهور.

ولم تقتصر المدينة علىٰ الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحق والواقدي، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولىٰ للسير والمغازي.

# البَصْرة والكوفة

* **البصرة والكوفة**: وهما كما قدمنا من أشهر مدن العراق، والعراق قطر شُهِر من قديم بالحضارة، تداولت عليه أمم كثيرة ممدَّنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية، وهو إلىٰ ذلك قطر غنيٌّ خصب، تكثر مياهه وخيراته، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد بن الخطاب ونزل بهما كثير من الصحابة، واختلط فيها العرب بالموالي بالتزاوج والسكنىٰ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة، وشُريح، والشعبي، وسعيد بن جُبَير من التابعين، ثم أبو حنيفة النعمان أمام المذهب المنسوب إليه، واشتهر من علماء البصرة أبو موسىٰ الأشعري وأنس بن مالك من الصحابة، ثم الحسن البصري وابن سيرين من التابعين، واشتهرت هاتان المدينتان أيضًا بالنبوغ في علوم النحو واللغة، وتفوقت البصرة في ذلك، فكان من علمائها أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد والأصمعيّ، واشتهر من الكوفيين الكسائي، وكان بين المدينتين تنافس في اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم، وكان الكوفيون -علىٰ الجملة- أكثر استعمالًا للقياس، والبصريون أكثر إيثارًا للسماع.

# بـغـداد

* **بغداد**: وهي مدنية بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ، وجعلها مقرَّ الخلافة الإسلامية، فأمَّها العلماء والأدباء من كل صقع علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم وثقافاتهم ولغاتهم، وأصبحت بعد قليل أهمَّ مركز للحركة الفكرية في المملكة الإسلامية، وتفوقت في كل ناحية من نواحي العلم الدينية واللغوية والأدبية والفلسفية، وكان أكبر الفضل في ذلك لأبي جعفر المنصور ثم هارون الرشيد، حتَّىٰ إذا جاء المأمون خطا في ذلك خطوات واسعة، فأنشأ بيت الحكمة وجعل علىٰ رأسه سهل بن هارون ويحيىٰ بن ماسويه، وكان لهذا البيت أثر كبير في نشر العلوم، إذ كان مجتمع النساخ والكتاب والعلماء.

# الفُسطاط

* **الفسطاط**: كانت مدينة الفسطاط في مصر في مقدمة المدن الإسلامية التي أزهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية، وأول من اشتهر بها من العلماء عبد الله بن عمرو بن العاصِ أحد كبار الصحابة، ثم عبد الله بن لَهِيعة وهو من أكبر المصادر الذين يُروىٰ عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر، ثم الليث بن سعد أحد الأئمة الذين يُقْرَنون بمالك وأبي حنيفة لولا أنَّ تلاميذه أضاعوا مذهبه، ثم نزل بها الإمام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد.

# التدوين والتأليف

*** التدوين:**

لم يكن تدوين الكتب وتأليفها أمرًا فاشيًا في العهد الأموي كما قدمنا، وأكثر ما روي عن التأليف في هذا العصر كان من قبيل الروايات لا من قبيل ما نعهده الآن في التأليف، فكان الرجل إذا سمع حديثًا كتبه، وكذلك إذا سمع قطعةً من الشعر أو خبرًا من الأخبار، وقد يجمعون هذه الأحاديث بعضها إلىٰ بعض ويسمون ذلك كتابًا، وكذلك يفعلون بما سمعوا من الأخبار، وكانوا يبدؤون رواية الخبر أو الحديث بذكر من رُوي عنهم الخبر، حتَّىٰ يتصل سند الرواية بناقل الخبر، فأما التأليف بالمعنىٰ الذي نفهمه من أن تكون للكتاب وحدة يريدها المؤلف وتوضع أبواب وفصول لموضوعاته ونحو ذلك، فكان نادرًا في الدولة الأموية، إنَّما كثر هذا النوع في العهد العباسي الأول فوضعت الكتب في الموضوعات الدينية والأدبية والتاريخية، وترجمت من اللغات الأجنبية ولا سيَّما اليونانية، ولنتكلم كلمة عن الأنواع المشهورة منها.

## ( أ ) التدوين في الأدب

بدأ التأليف في الأدب في هذا العصر -علىٰ ما يظهر- بتأليف رسائل صغيرة في الأخلاق كالذي نراه لابن المقفع في كتابه الدرة اليتيمة والأدب الصغير، وكذلك في اللغة، كما فعل الأصمعي في كتاب الخيل وكتاب الإبل، وكتاب الشاء وكتاب فَعَلَ وأَفْعَلَ وكتاب الأنواء.

ثم أتت الطبقة التي تلي هؤلاء فألفت الكتب المطولة الجامعة التي تشمل موضوعات مختلفة، وكان علىٰ رأس المؤلفين في الأدب الجاحظ ثم المبرد وابن قُتَيبة.

### * الجاحظ:

**فأما الجاحظ؛** فقد قرأت ترجمته قبلُ، ولكنا نتعرض الآن لكلمة في تأليفه: كان الجاحظ من أكثر النَّاس اطِّلاعًا، وأوسعهم علما، حتَّىٰ لنستطيع أن نعرف ما وصل إليه العلم في ذلك العصر في كل ناحية من نواحيه من كتب الجاحظ، وأشهر كتبه: كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان. فأما كتابه الأول فيعد من أصول كتب الأدب، ولم يسبق -فيما نعلم- إلىٰ مثله، وجميع من ألَّف بعده من الأدباء كالمبرد وابن قتيبة يعتمد عليه ويقتبس منه، وهذا الكتاب مزيج من الحكمة واللغة والشعر والخطابة، يمزج فيه الهزل بالجد، وينقل عن الفرس والروم والهند، ويذكر عادات النَّاس وأحوالهم وطرق معايشهم، ولكن الكتاب مملوء بالعيوب إذا نُظر إليه من الناحية الفنية

في التأليف، فهو كثير الاستطراد، تدخل فيه من باب فيُسْلمك إلىٰ باب آخر لأدنىٰ مناسبة، لم يبوب ولم يفصل في دقة، ولم يجمع فيه ما يتعلق بالموضوع الواحد في مكان واحد، شأن كل من يعالج موضوعًا في أول أمره، وهذه العيوب أثرت في المؤلفين بعده كالمبرد وابن قتيبة فكان لهم منها حظ غير قليل.

وأمَّا كتابه الحيوان؛ فقد تكلم فيه كما يدل اسمه، في الحيوان وأنواعه، ومزج فيه الأدب بعلم الحيوان، وجمع فيه ما عرفه العرب عن الحيوان وما عرفه اليونان والفرس، وهو من أغنىٰ الكتب وأوسعها مادة لمن يريد دراسة معارف النَّاس في ذلك العصر، ولكن فيه من العيوب ما أشرنا إليه من قبل.

## * المبرد:

**أما المبرد**؛ فهو أبو العباس محمد بن يزيد، عربيٌّ الأصل من بني ثمالة ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ ثم نزل بغداد، وكان من أئمة العربية في عصره، حَسَن المحاضرة، فصيح اللسان، واسع العلم بالأخبار والنوادر، ومات سنة ٢٨٦ ببغداد، وأشهر كتبه كتاب الكامل، وهو كتاب في الأدب يذكر الحكمة المختارة أو الخطبة أو القطعة الشعرية ويشرحها، وقد تعرض في أثناء الشرح كلمةٌ فيتعرَّض لها، ويختلف عن (البيان والتبيين) بقلة الاستطراد، وأنه لا يتعرض لعادات النَّاس وشؤونهم الاجتماعية إلا قليلًا، قد قسم إلىٰ أبواب، ولكن يصعب أن نتبين في كثير من الأحيان الفرق بين باب وباب إلا من ناحية أن هذه طائفة من المختارات وهذه طائفة أخرىٰ، كذلك يمتاز عن البيان والتبيين بأن الكامل كثير التعرض للنواحي النحوية والصرفية فيما يختار، وأول من طبعه الأستاذ (ريت) وقد صرف سنين عدة في ضبطه وتصحيحه ثم طبع بعد في مصر علىٰ نهج الطبعة الأولىٰ[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات المبرد؛ انظر: المنتخب من أدب العرب (٤٩٥) ط، عالم الأدب.

## * ابن قُتَيْبة:

**أما ابن قتيبة**؛ فهو أبو عبد الله محمد بن مسلم المروزي الدِّينَوَرِيّ، ولد سنة ٢١٣ بالكوفة، وتولىٰ القضاء بدينور، ثم أخذ يعلم في بغداد وتوفي بها سنة ٢٦٧ وكان جمَّ المعارف واسع الاطلاع، ألف في الحديث وألف في الأدب، وألف في اللغة، وألف في التاريخ، وأشهر كتبه (أدب الكاتب) أبان فيه ما يجب علىٰ الكاتب أن يعرفه، وكتاب (عيون الأخبار) ذكر فيه كثيرًا من المختارات الأدبية واقتبس منه كثيرًا ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، وفيه خطا ابن قتيبة خطوة نحو الترتيب والتبويب، وجمع ما يتعلق بموضوع واحد في موضع واحد، وقد طُبع بعضه في أوربا، وطبع جزءان منه في دار الكتب المصرية، وله كتاب طبقات الشعراء، أو الشعر والشعراء ترجم فيه لمشهوري الشعراء وذكر طرفًا من أشعارهم.

## (ب) علوم اللغة

### * النحو:

كان من أثر امتزاج العرب بالأعاجم ومخالطتهم بالسكنىٰ والتزاوج، أنْ فسدت ملكة اللِّسان العربيّ، وكثر اللحن، فعمد العلماء إلىٰ وضع قواعد النحو لضبط أواخر الكلمات. وقد ذكروا أنَّ أول من وضع بعض قواعده أبو الأسود الدُّؤلي[1]، ثم تبعه العلماء يزيدون قواعده ويضبطونها، وكان أسبق النَّاس اشتغالًا به البصريون ثم أخذه منهم الكوفيون وخالفوهم في بعض مسائله، وكان البصريون أصحَّ رواية وأكثر تحريًا، ولكن العباسيين نصروا الكوفيين سياسة، وندب الرشيد رئيس الكوفيين وهو الكسائي لتعليم ولده الأمين، واشتدَّ الخلاف بين المذهبين -مذهب البصريين والكوفيين- وأُلفت في هذا الخلاف الكتب، وقد نشأ بعدُ مذهبٌ منتخبٌ من المذهبين؛ هو مذهب البغداديين.

---

(١) أَبُو الأَسْود الدُّؤَلي: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني ولد (١ق، هـ/ ٦٠٥م) وهو واضع علم النحو، كان معدودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين، رسم له علي بن أبي طالب شيئا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود، وأخذه عنه جماعة، وفي صبح الأعشىٰ أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين لا غير، وهو -في أكثر الأقوال- أول من نقط المصحف، وله شعر جيد، كانت وفاته (٦٩هـ/ ٦٨٨م). انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٣٧).

## * اللغة:

كذلك أصبح النَّاس في حاجة إلىٰ كتب تبين معاني المفردات اللغوية بعد أن هجر النَّاس جزيرة العرب وأقاموا في المدن بعيدًا عن البادية، فكان العلماء يرحلون إلىٰ البادية يسمعون من أهلها ويقيدون ما يسمعون، ويرحل أهل البادية إلىٰ المدن ليأخذ عنهم علماؤها، وأخذ العلماء يقيدون الكلمات التي تتصل بشيء واحد في رسائل فيذكرون ما يتعلق بالكروم وما يتعلق بالأشجار، فلمَّا جاء الخليل بن أحمد ابتكر طريقة المعجم، فأحصىٰ المفردات الثنائية والثلاثية وهكذا، ورتبها علىٰ حسب مخارج الحروف، فجعل ما يبدأ بالحروف الحلقية أولًا، وبدأ بالكلمات المبدوءة بالعين، ومن أجل هذا سمىٰ كتابه العين. وكثير من العلماء يشك في نسبة هذا الكتاب إليه ويقول إنه من وضع تلاميذه، وقد عثر علىٰ نسخة من كتاب العين في العراق، ثم تتابع بعد ذلك وضع المعجم علىٰ طرق مختلفة.

## * الخليل بن أحمد:

والخليل بن أحمد عربيُّ الأصل أزدي، من علماء البصرة، وكان من أمهر العلماء في استعمال القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، زهد في الدنيا وقنع بالقليل ورأىٰ لذة العلم فوق كل شيء، وكان ذا عقل مبتكر، علىٰ قلة العقول المبتكرة، فهو أول من وضع فكرة حصر الكلمات العربية في معجم، وأول من حصر أوزان الشعر في بحور، ومن تلاميذه: سيبويه، والأصمعي، والنَّضر بن شُمَيْل، وكثير من آرائه في النحو أخذها عنه سيبويه وأدمجها في كتابه، ومات سنة ١٦٠هـ في رواية وسنة ١٧٠ في رواية أخرىٰ[١].

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٣٠) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٥٧-٣٥٩).

*** سيبويه:**

وسيبويه هو عمرو بن عثمان من أصلٍ فارسيٍّ، وهو إمام علماء البصرة، كان تلميذًا للخليل وأخذ عنه كثيرًا من علمه ووضعه في كتابه المعروف -كما قدمنا-، ولغته في هذا الكتاب لغة راقية، ولكنه لم يكن فصيحًا في قوله فصاحته في كتابته، ويذكرون أنه وفد إلىٰ بغداد وقصد البرامكة وأنهم جمعوا بينه وبين الكسائي في مناظرة خُذِل فيها سيبويه، فرجع ومضىٰ إلىٰ بعض مدن فارس فمات هناك وهو كهل سنة (١٧٧)[١].

*** الكسائي:**

أما الكسائي فهو علي بن حمزة إمام الكوفيين، وكان من أصل فارسي كذلك، وقد خرج إلىٰ البادية وسمع من فصحائها، وكتب ما سمع وأخذ عن الخليل بن أحمد واستقدمه المهدي ثم اختاره الرشيد لتعليم الأمين كما ذكرنا، وألف كتبًا كثيرة في النحو واللغة، وهو أحد القراء السبعة ومات سنة (١٨٩هـ)[٢].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٣١) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٥٢).

(٢) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٣٢) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٥٣).

## (ج) التاريخ والحكايات

ابتدأ التاريخ، علىٰ ما يظهر، بالحديث، فقد جمعت سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه والحوادث التي وقعت في أيامه وأيام صحابته في شكل ما يروىٰ من الحديث، ومن أشهر المؤلفين في ذلك ابن إسحق، والواقدي، وابن سعد.

ثم توسعوا فكتبوا في تاريخ فتوح البلدان كما فعل (البَلاذُري)، وكتبوا في الأنساب كما فعل البلاذري أيضًا في كتابه (أنساب الأشراف)، ثم لمَّا وقفوا علىٰ تواريخ الأمم كتبوا في التاريخ العام، وأشهر المؤلفين في هذا النوع اليعقوبي ثم محمد بن جرير الطبري المتوفىٰ في سنة ٣١٠، فقد كتب تاريخه الكبير، ورتبه علىٰ حسب السنين، فيذكر في كل سنة ما وقع فيها من فتن وفتوح وأحداث، ثم ينتقل إلىٰ السنة التي تليها وهكذا، وقد سلك هذا المسلك في التأليف ابن الأثير من بعده، واشتهر في أواخر هذا العصر من المؤرخين أيضًا المسعودي المتوفىٰ سنة ٣٨٥هـ وأشهر كتبه كتاب (مُروج الذهب) ولم يرتبه علىٰ حسب السنين كما فعل الطبري وإنَّما يذكر الحوادث تحت عنوان الخليفة التي وقعت الحوادث في أيامه.

والأمة العربية لم تُعْن بالقصص عنايتها بالتاريخ، ولم يكن لها الخيال الواسع في وضع القصص، ولذلك كان ما روي عن العرب منها قليلًا بالنسبة لما روي عن الأمم الأخرىٰ، فلمَّا جاءت الدولة العباسية واصطبغت الدولة

بالصبغة الفارسية كثر القصص، فنقل ابن المقفع كليلة ودمنة أو ألفه وقد نظمه أبان اللاحقي وابن الهَبَّارية، ووضع سهل بن هرون الفارسي كتابًا علىٰ نمطه سماه (ثعلة وعفرة) لم يصل إلينا ولكن نقلت منه فِقَر في كتاب زهر الآداب للحصري، وترجم الكتاب (هزار أفسانه) ومعناه: ألف خرافة، وهو أصل للكتاب المشهور (ألف ليلة وليلة).

## ( د ) العلوم الدينية

كان حظ العلوم الدينية في هذا العصر عظيمًا، فأقبل النَّاس علىٰ القرآن يتدارسونه ويُعْنَون بتفسيره، وأشهر المفسرين في ذلك العصر ابن جرير الطبري، فقد ألف كتابًا في التفسير في ثلاثين جزءًا، وطريقته فيه أن يذكر الآية الكريمة، ويتبعها بما رُوي عن الصحابة والتابعين من تفسيرها، ويذكر الأقوال المختلفة فيها ثم يرجح أحد الآراء، ولا يزال كتابه من أكبر المراجع في التفسير إلىٰ اليوم، وعليه اعتمد من أتىٰ بعده من المفسرين.

*** الحديث:**

كذلك الشأن في الحديث، فقد رَوَّعَ العلماء في ذلك العصر ما رأوا من جرأة بعض النَّاس علىٰ وضع الحديث ونسبته إلىٰ رسول الله ﷺ فأقبلوا علىٰ الأحاديث يمتحنون صحتها، وينتقدون رجالها، ويجمعون ما صحَّ منها، وكان من أسبق النَّاس تأليفًا في الحديث الإمام مالك، فقد جمع كتابه (الموطأ) ورتبه علىٰ حسب أبواب الفقه، ثم جاء محمد بن إسماعيل البخاري فجدَّ في جمع الأحاديث وفحصها ونقدها، وطوَّف في الآفاق يروي عن علمائها، ويسمع من محدثيها، حتَّىٰ جمع كتابه المعروف بصحيح البخاري في ست عشرة سنة. وصحيحه يشتمل علىٰ تسعة آلاف حديث منها ثلاثة آلاف مكررة. وقد توفي البخاري سنة ٢٥٦هـ.

وكان يعاصره مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، فرحل إلىٰ الحجاز والعراق والشام ومصر وسمع من علمائها، وجمع كتابه المعروف بصحيح مسلم، وقد قال إنه اختار كتابه من ثلاثمائة ألف حديث.

ويعد هذان الكتابان (صحيحا البخاري ومسلم) أصح ما ألف في الحديث إلىٰ اليوم.

*** الفقه:**

يراد بالفقه استخراج الأحكام من القرآن والحديث. وقد كانت الحوادث تكثر وتختلف باتساع العمران وكثرة الفتوح، فكانت تعرض مسائل لم تكن معروفة من قبل، يحتاج فيها النَّاس لمعرفة أحكامها، فكان المجتهدون يستخرجون هذه الأحكام ممَّا ورد في كتاب الله أو سنة رسوله أو بالقياس عليهما، وقد اختلف المجتهدون وانقسموا قسمين عظيمين: أهل الرأي والقياس، وأهل الحديث؛ فالأولون كانوا يشترطون شروطًا دقيقة للعمل بالحديث، ويتوسَّعون في استعمال القياس عند ما لا يصح عندهم نصٌّ فيه من كتاب ولا سنة، وقد غلبت هذه الطريقة في العراق لقلة الحديث هناك مع كثرة الأحداث، وإمام هذه الطريقة أبو حنيفة النعمان، والآخرون كان الحديث عندهم وافرًا، فكانوا يقدمون الحديث ولو لم تتوافر فيه شروط خاصة علىٰ القياس والرأي. وغلب هذا المذهب علىٰ أهل الحجاز، وإمام هذه الطريقة مالك بن أنس، وقد كثر المجتهدون في هذا العصر والذىٰ قبله كالليث ابن سعد في مصر، والأوزاعي في الشام، ولكن ذهبت هذه المذاهب ولم يشتهر منها إلا المذاهب الأربعة: مذهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل.

## * الإمام أبو حنيفة:

فأما أبو حنيفة؛ فهو النعمان بن ثابت، فارسيٌّ الأصل ولد سنة ٨٠هـ، ونشأ بالكوفة، وأخذ العلم عن علمائها، وكان إمام أهل الرأي كما ذكرنا، وقد أريد علىٰ القضاء فأبىٰ زهدًا وتورُّعًا، ولم يصل إلينا شيء من كتبه في الفقه، وإنَّما وصلت إلينا كتب تلاميذه ولا سيَّما أبي يوسف ومحمد، ويُلقَّبان عادة بالصاحبَيْن -أي: صاحبي أبىٰ حنيفة- وقد مات أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ وقد انتشر مذهبه في العراق.

## * مالك:

وأمَّا مالك بن أنس؛ فقد ولد سنة ٩٦هـ من أصل عربي بالمدينة وبها تعلم، ويمتاز مذهبه عن مذهب أبي حنيفة بكثرة اعتماده علىٰ الحديث كما أسلفنا، وتوفي سنة ١٧٩هـ وأشهر كتبه التي وصلت إلينا كتاب الموطأ، وقد انتشر مذهبه في المغرب والأندلس والحجاز.

## * الشافعي:

والشافعي هو محمد بن إدريس، عربيٌّ قرشيٌّ، ولد بغزة بالشام، ثم رحل إلىٰ مالك وأخذ عنه العلم، ثم وفد إلىٰ بغداد ولقي علماءها، ثم جاء مصر سنة ١٩٩هـ فأقام بها وسكن الفسطاط وأملىٰ مذهبه، وبها توفي ودُفن في مدفنه المعروف سنة ٢٠٤.

## * أحمد بن حنبل:

وأحمد بن حنبل عربيُّ الأصل كذلك من شيبان، ولد ببغداد ونشأ بها وطلب الحديث وأكثر من روايته، وهو أكثر الأئمة استنادًا إلىٰ الحديث، وقد عُذِّب عذابًا شديدًا في فتنة خلق القرآن، ومات سنة ٢٤١ ببغداد.

## (هـ) الترجمة

### * مصادرها:

لما اتَّسعت الدولة الإسلامية واختلط العرب بغيرهم ورأَوْا آثار الأمم الأخرىٰ عن علم وحضارة، تطلَّعت نفوسُ الخلفاء إلىٰ أن يكون للأمة العربية نصيبٌ وفيرٌ من علوم الأمم الأخرىٰ وفنونها، وكان قد التجأ إلىٰ بغداد في هذا العصر العلماء الأعاجم، فقرَّبهم الخلفاء وأغدقوا عليهم الأرزاق واستعانوا بهم في ترجمة الكتب من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها.

وأول من عمل علىٰ نشر الثقافة الأجنبية في الدولة العباسية الخليفة أبو جعفر المنصور؛ فقد كان عالمًا فقيهًا يميل إلىٰ النظر في النجوم وما إليها. فدعا إليه جماعة من علماء الطب والرياضيات والفلسفة، فترجموا له كتبًا فيها. ويعدُّ عصره أساسًا لهذه النهضة العلمية التي أتمَّ بناءها مَن جاء بعده من الخلفاء ولا سيَّما المأمون؛ فقد أرسل طائفة من العلماء إلىٰ بلاد الروم فجاؤوا بكثيرٍ من غرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقىٰ والطب، وغَصَّ بيتُ الحكمة في بغداد بالعلماء في كلِّ علمٍ وفنٍّ، فنُفِّقَتْ في أيامه سوقُ العلم والأدب[1]، وكثر الباحثون، واشتهر في عصره كثير من المؤلفين والمترجمين،

(١) أي مضت ولم تكسد. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٤).

ووضعت المصطلحات، وعرب كثير من الألفاظ الأعجمية حتَّىٰ أصبحت العربية تضارع غيرها من اللغات في العلوم العقلية.

وقد نُقل إلىٰ العربية في هذا العصر مئات من الكتب في الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات والسياسة والقصص والأسمار وغيرها، ومن أشهر المترجمين ابن البِطْريق[١]، والحجاج بن مطر[٢]، وحُنين بن إسحق[٣]، وجرجس بن بختيشوع[٤]، وثابت بن قُرَّة[٥].

---

(١) ابن البِطْرِيق: يوحنا بن البطريق؛ ترجمان، كان مولىٰ للمأمون، أمينا علىٰ الترجمة، حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، تولىٰ ترجمة كتب أرسطوطاليس خاصة، وترجم من كتب بقراط، مثل حنين وغيره، وجد من كتبه «السياسة في تدبير الرياسة - خ» بخزانة الرباط، وكانت وفاته نحو (٢٠٠هـ / ٨١٥م). انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٢١٠).

(٢) الحجاج بن يوسف بن مطر: عالم رياضيات وهو أول من ترجم كتاب العناصر لإقليدس.

(٣) حنين بن إسحاق العباديّ، أبو زيد (١٩٤ - ٢٦٠ هـ = ٨١٠ - ٨٧٣ م): طبيب، مؤرخ، مترجم، سافر حنين إلىٰ البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلىٰ بغداد فأخذ الطبّ عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، فانتهت إليه رياسة العلم بها بين المترجمين، مع إحكامه العربية، وكان فصيحا بها شاعرا، واتصل بالمأمون فجعله رئيسا لديوان الترجمة، وبذل له الأموال والعطايا، وجعل بين يديه كتّابا نحارير عالمين باللغات، كانوا يترجمون، ويتصفح حنين ما ترجموا فيصلح ما يرىٰ فيه خطأ، ولخص كثيرا من كتب أبقراط وجالينوس وأوضح معانيها، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله إلىٰ العربية من الكتب، فكان يختار لكتبه أغلظ الورق، ويأمر كتّابه يخطوها بالحروف الكبيرة ويفسحوا بين السطور، ورحل رحلات كثيرة إلىٰ فارس وبلاد الروم، وعاصر تسعة من الخلفاء، وكان يحفظ إلياذة هوميروس، وله كتب ومترجمات كثيرة تزيد علىٰ مئة. انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ٢٨٧).

(٤) طبيب، ترجم كثيرا من الكتب، عن اليونانية إلىٰ السريانية، تسهيلا لنقلها إلىٰ العربية.

(٥) ثابت بن قرة بن زهرون الحراني الصابئ، أبو الحسن: طبيب فيلسوف، اشتغل بالفلسفة والطب فبرع، واتصل بالمعتضد (الخليفة العباسي) فكانت له عنده منزلة رفيعة، له تصانيف كثيرة أكثرها في الهندسة والموسيقىٰ، وكان يحسن السريانية وأكثر اللغات الشائعة في عصره، فترجم عنها كثيرا إلىٰ العربية، وتوفي في بغداد (٢٨٨هـ/ ٩٠١م). انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ٩٩، ٩٨).

وقد أقبل المسلمون علىٰ الكتب والترجمة يتفهمونها ويشرحونها، ولم يمض علىٰ ذلك إلا قليل حتَّىٰ ظهر في المسلمين أنفسهم فلاسفة، أولهم وأشهرهم يعقوب بن إسحاق الكِندي، وهكذا أعقب طور الترجمة طور التأليف.

# العصر العباسي الثاني

# نشأة الأوطان السياسية
# وأثرها في ظهور آداب قومية

لما ضعُف الخلفاء العباسيون عن تولي شئون الخلافة بأنفسهم لاغتصاب مماليكهم الترك السلطة من أيديهم اختل نظام الملك، وكثرت الفتن والثورات، واستقلَّ كلُّ حاكم بالبلاد التي يحكمها، وكان بعض هؤلاء الحكام من أبناء الأكاسرة[١] مثل الدولة السامانية في خراسان، والبويهية في فارس. واستقل بعض أمراء العرب بالجزيرة والشام كبني حمدان بالموصل وحلب. ووجد العلويون أنَّ الفرصة سانحة لتحقيق أمنيتهم وهي انتزاع الخلافة الإسلامية من أيدي العباسيين، فأسَّسوا دولًا عدة، أهمُّها الدولة الفاطمية التي امتدَّت مملكتها من المحيط الأطلنطي إلىٰ حدود نجد والفرات. ولم يستغن جميع هذه الممالك والإمارات التي تشعبت من الدولة العباسية فارسية أو غير فارسية عن اتخاذ العربية الفصيحة في هذا العصر لغة رسمية في التعبد والتعليم والسياسة، إلا أنَّ هذه اللغة أخذت تصطبغ بعد قليل بصبغة قومية في بعض أحوالها وهذه الصبغة هي التي نريد أن نبينها بإيجاز في كل صقع من الأصقاع.

(١) قد حاول بعض هؤلاء الحكام إحياء دولة الفرس القديمة ولغتها وأدبها فنجحوا بعض النجاح في نظم الشعر وبعض الآداب بالفارسية ولم ينجحوا في استعمالها في تعليم العلوم وخاصة الشرعية منها إلا بعد سقوط الدولة العباسية.

# الأدب العربي في الشرق
# العراق وفارس وخراسان في القرنين الرابع والخامس

فتح العرب بلاد الفرس، وكانت أمة الفرس ذات حضارة راقية ولغة متينة وعصبية قومية، فاستطاعوا أن ينسخوا دينهم (المجوسية) ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسخوا عصبيتهم للجنس والوطن، ولذلك كان الفرس يثورون لاستعادة ملكهم مرة بعد أخرىٰ إلىٰ أن تحققت لهم أمنيتهم في القرن الرابع، وشرعوا في إنشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يجعلوها لغة عامَّة للعلم والتعليم والإشتراع والسياسة إلا بعد انقضاء هذا العصر الذي نتكلم فيه كما قدمنا، لخلوِّ الفارسية الحديثة من الاصطلاحات، ولذلك بقيت العربية الفصيحة صاحبة السيادة والنفوذ في جميع الممالك الشرقية، التي اشتُقَّت من الدولة العباسية، يبذل كل ملك من ملوكها وأمرائها جهده في ترغيب العلماء والأدباء والكتاب والشعراء والمهندسين والأطباء وكل ذي إحسان في صناعته في الإقامة عنده تأييدًا لدولته وزينا لملكه.

فبقيت سوق الأدب العربي والعلم رائجة في هذه الممالك أكثر من قرنين، ثم اضمحلَّت بالتدريج بتغلب النزعات القومية وانقراض العلماء والأدباء الذين كانت تربيتهم اللغوية العربية متأثرة ومطبوعة بطابع الدولة العباسية العربية، حتَّىٰ خرج التتار في أواسط القرن السابع الهجري فاكتسحوهم

جميعًا وخربوا بلادهم وقتلوا علماءهم وبدَّدوا كتبهم فَخَمَدتْ بعد ذلك اللغة العربية في أواسط آسيا خمودًا لم تنتعش بعده، وإن بقيت منها أَثَارةٌ علىٰ ألسنة بعض علمائها وفلاسفتها إلىٰ الآن.

# الشعر والشعراء في المشرق[1]

عاش كثير من الشعراء في ظلال هذه الممالك الشرقية يتكسبون بالكتابة في دواوينها، أو بمدح ملوكها ومنادمتهم، أو إملاء الأدب واللغة في مدارسها، وكثير منهم كان ينتقل من مملكة إلىٰ أخرىٰ، ولم يكن شعرهم العربي أرقىٰ شعر في زمانهم لمكان بيئتهم الأعجمية، بل كان يَفْضُلهم شعراء الجزيرة والشام ومصر والأندلس لكثرة العناصر العربية في هذه الممالك. ومع ذلك سلكوا في الشعر مسلك المتقدمين في أغراضهم من الغزل والمديح والرثاء والوصف والفخر مع ضعفٍ قليل في البلاغة واختراع المعاني، إلا أنَّ تنوع الحياة الاجتماعية في هذا العصر في بابَيْ الهزل والجد وانتشار مذاهب الفلاسفة وطرق الصوفية أحدث في فنون الشعر وأغراضه في الشرق شيئًا جديدًا، كالشعر التهكُّمي المضحك الذي نشأ في بغداد علىٰ لسان ابن سُكَّرةَ وابن حجاج ثم شرَّق وغرَّب، وكانت منزلة هذا الشعر منزلة المجلات الهزلية والتمثيل الهزلي في زماننا[2]،

---

(١) يراد بالمشرق هنا بلاد العراق وفارس وخراسان إلىٰ حدود الصين والهند ويدخل في ذلك بلاد التركستان [م].

(٢) ابن سكرة الهاشمي هو أبو الحسن محمد، كان يعيش ببغداد في القرن الرابع، وكان من فحول شعرائها لولا كثرة مجونه وإقذاعة إلىٰ حدٍّ لا يمكننا معه التمثيل هنا بشيء من شعره هذا، ومن المقبول من هزلياته قوله وقد نزلت به نزلة في حلقه:

قــلــت لـلــنـــزلـــة حــلــي ... وانـــزلـــي غـــيـــر لـــهـــاتـــي

واتـــركـــي حـــلـــق بـــحـــقـــي ... فـــهـــو دهـــلـــيـــز حـــيـــاتـــي =

وكالشعر الفلسفي الذي يشرح أو يشير إلىٰ بعض الحقائق الفلسفية كأحوال الروح وحركة الأجرام السماوية وغيرهما كما في شعر ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطبيب[1] وكالشعر الصوفي الرمزي ومنشؤه الشرق والعراق، ثم غرّب إلىٰ الشام ومصر كما في شعر الحلَّاج والشِبْلي والقُشَيْري[2]، وحدث أيضًا أن هجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والعويص من الأسلوب، ولم ينزهوا شعرهم عن استعمال الكثير من

---

= وقوله في هجاء بخيل:

تجشَّأْتُ في وجه بوابه ... ليعرف شبعي فلا أمنع

وقلت له إن بي تُخْمةً ... فهل من دواء لها ينفع

فقال لقد غرَّني معشر ... بهذا الحديث الذي أسمع

فلمَّا نذرت بهم صاحبي ... ولاحت موائده أسرعوا

فراحوا بِطانًا ذوىٰ كظة ... وأقبلت من أجلهم أصفع

وابن حجاج هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج كان معاصرًا لابن سكرة يتناقضان ويتهاجيان وكان يقال ببغداد إن زمانًا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدًا، وكان أشد إفحاشًا من ابن سكرة في ذكر الأقذار وبذيء الكلام، ومن قوله في رجل يسمىٰ أبا الحسين كان معه في دار بخيل فالتمس أبو الحسين من البخيل العشاء بعد الغداء فقال ابن الحجاج:

يا كَلِبَ الضرس ما يداوَىٰ ... ضرسك إلا بكلبتين

ويلك قل لي جُنِنْتَ حتَّىٰ ... تلتمس الخبز مرتين

في دار من خبزة عليه ... ألف رقيب وألف عين

[م].

(١) وذلك كقول أبي بكر الرازي الكيميائي الطبيب المتوفىٰ سنة ٣١١:

لعَمْري ما أدري وقد أَذِنَ البِلَىٰ ... بعاجلِ تِرْحَالي إلىٰ أين تِرْحَالي

وأين محل الروح بعد خروجه ... من الهيكل المنحلِّ والجسد البالي

[م].

(٢) وذلك كقول الشبلي أبي بكر دلف الزاهد الصوفي المتوفىٰ سنة ٣٣٤:

علىٰ بُعْدِكَ لا يصبر ... مَن عادته القُرْبُ

ولا يَقْوَىٰ علىٰ هَجْرِكَ ... مَن تَيْمهُ الحبُّ

فإن لم تَرَكَ العين ... فقد يُبصرك القلبُ

[م].

الألفاظ الأعجمية[1] والاصطلاحات الفنية، وزادوا علىٰ أهل الماضي في استعمال المحسنات البديعية وألفاظ المجون والسخف وأسماء المعيبات والأقذار؛ لغلبة هذا النوع علىٰ شعر الكثير من خُلَعَاء بغداد.

وكان أكثر المعاني المخترعة في شعر المشارقة تقع في الهزل؛ إذ كانوا هُم فاتحي بابه، ولكن الفحول من شعرائهم ألمُّوا بكثير من المعاني الشريفة والأخيلة الرائعة كالشريف الرضي ومهيار الدَّيْلمي وكلاهما من أهل بغداد، وكان شعر أهلها وأهل العراق عامَّة أرق أسلوبًا وأفصح لفظًا من شعر أهل فارس وخراسان.

## * الشَّريف الرَّضيّ:

عاش الشريف الرضي في بغداد وكان أبوه نقيب أشرافها، فنشأ نشأة راقية في العلم والأدب، ونبغ نبوغًا استحق به أن يسمىٰ شاعر قريش، ويغلب علىٰ شعره الفخر والنسيب علىٰ طريقة المتقدمين في لفظ جزل ومعنىٰ فخم، وجمع خطب جده الإمام علي رضي الله عنه في كتابه المشهور (نهج البلاغة) غير مدقق في صحة رواية بعض خطبه، وتولىٰ نقابة الأشراف، ثم عزله الخليفة عنها لاتهامه بالميل إلىٰ الفاطميين خلفاء مصر، وتوفي سنة ٤٠٦، وله ديوان مطبوع[2].

---

(١) وذلك كقول البديع الاصطرلابي وكان يعيش في أواخر القرن الخامس:

**وذي هيئة يزهو بخال مهندس … أموتُ به في كل وقت وأبعث**
**محيطٌ بأوصاف الملاحة وجهُه … كأنَّ به أقليدس يتحدَّث**
**فعارَضَه خط استواء وخاله … به نقطة والخدُّ شكل مثلث**

[م].

(٢) لمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر الشريف الرضي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٠١، ١٣٥) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٧٠).

## * مهيار:

أما مهيار بن مرزويه؛ فكان دَيْلمِيًّا مجوسيًا يتكسب بالكتابة في ديوان البويهيين المستولين علىٰ بغداد، ثم صاحب الشريف الرضي فأسلم علىٰ يديه، وتخرَّج عليه في الشعر وحاكاه في أسلوبه، وربما رق عنه في بعض الأحيان(١) وتوفي سنة ٤٢٨ وله ديوان مطبوع.

---

(١) كقوله في الفخر:

أُعْجِبَتْ بي بين نادي قومها ... أمُّ سعدٍ فمضت تسأل بي

سَرَّها ما علمَتْ من خُلُقي ... فأرادت علمها ما حسبي

لا تخالي نَسَبًا يُخفضني ... أنا من يرضيك عند النَّسَبِ

قَوْمِي استولوا علىٰ الدَّهر فتىٰ ... ومشوا فوق رءوس الحقبِ

عمَّمُوا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشُّهُبِ

وأبي كسرىٰ علا إيوانه ... أين في النَّاس أبٌ مثلُ أبي

قد قبست المجد من خير أبٍ ... وقبست الدين من خير نبي

وضمَمْتُ الفخرَ من أطرافه ... سؤدد الفرس ودين العرب

[م]. لمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر مهيار. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٠٢، ١٣٧)، ط، عالم الأدب.

# النثر الفني
# أو كتابة الترسل والإنشاء

ولمَّا كان هذا النوع من النثر من نحو الرسائل والمقامات والأخبار والقصص والسير مثارًا للخيال ومظهرًا لحركات الوجدان والشعور وإظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللفظية، اصطبغ في القرن الرابع وما بعده من القرون بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ علىٰ جانب المعنىٰ، فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالبًا، واستعملت الأساليب الشعرية وعُنِيَ بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة، وقَلَّت المعاني المخترعة فاضطر الكاتب إلىٰ حل كثير من أبيات الشعر ذوات المعاني الجميلة وإلىٰ الاقتباس من القرآن والحديث والأمثال لفظًا ومعنًىٰ، حتَّىٰ سمىٰ الأدباء هذا النوع بالشعر المنثور(١) وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد (وزير آل بُوَيْه)(٢) وشابهه كثير ممَّن عاصره أو جاء بعده، وأعظم نموذج لها مقامات

---

(١) كقول ابن العميد: من أسرَّ داءه، وستر ظماءه، بعد عليه أن يَبُلَّ من غلله، ويُبِلَّ من علله. [م]
وكقول أبىٰ بكر الخوارزمي: الرجال حصون يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وإنه لا مال إلا بالرجال ولا صلح إلا بعد قتال، وكقول بديع الزمان: أنت ولدي ما دمت والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، فإن قصرت، ولا إخالك، فغيري خالك. [م]

(٢) للاطلاع علىٰ نماذج من كتابات ابن العميد. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥١١، ١٤٦) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢١٨-٢٢٢) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٠٩).

الحريري، وكان ابن العميد هذا رأس كتاب المشرق، وفارس حلبتهم، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور لم تنحط كتابته في البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين، حتَّىٰ لقد كان يقال فيه بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد[1]. وتوفي سنة ٣٦٠ وتخرج علىٰ يده الوزير الكاتب المشهور الصاحب بن عباد المتوفىٰ سنة ٣٨٥، وكان يلتزم السجع أكثر من ابن العميد، وتولع بالجناس، ومن أشهر كُتَّاب هذه الطريقة بديع الزمان، وله ديوان شعر وديوان رسائل وكلها مطبوعة، والخوارزمي، وله ديوان رسائل مطبوع، والصابي وله ديوان رسائل طبع منها الجزء الأول، والحريري وله المقامات المشهورة طبعت بأشكال مختلفة وشرحت شروحًا عدّة.

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من كتابات الصاحب بن عباد. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥١٣، ١٤٧) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٢٢-٢٢٤) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢١١).

# التدوين والتصنيف في المشرق

بقيت حركة التأليف بالمشرق في هذا العصر في تقدم وارتقاء في العلوم اللسانية والشرعية والفلسفية التي وضعت أو ترجمت في العصر الماضي، وتنوعت أشكال المؤلفات فيها جميعها من مبسوطات ومختصرات ووسائط بينهما، لما قدمنا من تنافس الملوك في تزيين ممالكهم وتأييدها بالعلوم والصناعات.

ففي العلوم اللسانية شُرحت أمهات كتب النحو وأُكملت قواعده وعُلِّلت أحكامه، وللسيرافي المتوفىٰ سنة ٣٦٨، وابن فارس المتوفىٰ سنة ٣٩٥، وابن جنِّي المتوفىٰ سنة ٣٩٢ ونظرائهم عظيمُ الفضل في ذلك، وكذلك وُضعت أمهات كتب البلاغة، وفصلت أبوابها، وتنوعت قواعدها، في مثل كتابَيْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني المتوفىٰ سنة ٤٧١، ثم زاد قواعدها وعلل أحكامها بُعيدَ هذا العصر السَكَّاكي المتوفىٰ سنة ٦٢٦، وفي الأدب وُضع كتاب الأغاني العظيم لأبي الفرج الأصفهاني المتوفىٰ سنة ٣٥٦ في إحدىٰ وعشرين مجلدة، ووضعت كتب أخرىٰ في الأدب ممزوجًا بالبلاغة. وظهرت كتب عدة في الأسمار والخرافات وسير الأبطال من الشجعان، ومنها كتاب ألف ليلة وليلة، وأصله بالفارسية زيدت عليه علىٰ طول الزمن حكايات عربية عراقية وشامية ومصرية، وفي متن اللغة وضعت أفضل المعجمات المرتبة المهذبة ككتاب

الجمهرة لابن دُرَيد المتوفىٰ سنة ٣٢١، وكتاب التهذيب للأزهري المتوفىٰ سنة ٣٧٠، وكتاب الصحاح للجوهري المتوفىٰ سنة ٤٠٠.

وفي العلوم الشرعية وضع الكثير من أمهات الكتب في علم تفسير القرآن وشرحت كتب السنة النبوية الجامعة وأكملت قواعد علم أصول الفقه وفصلت فروعه، ووضع في علم التوحيد مذهب الأشاعرة وضعه أبو الحسن الأشعري المتوفىٰ سنة ٣٢٤.

وفي العلوم الفلسفية هذبت كتب المترجمين الأولين وشرح غامضها، وملك كثير من فلاسفة المسلمين ناصيتها، فأصبح لهم فيها آراء ناضجة وبعضها صبغ بصبغة إسلامية، كمباحث علم الكلام وبعض فروع الفلك من الميقات والتقويم، ومثل علم الحساب والجبر والكيمياء العملي والطب وغيرها. وممَّن لهم مزيد الفضل في ذلك أبو نصر محمد الفارابي المتوفىٰ سنة ٣٣٩، وأبو علي الحسين بن سينا المتوفىٰ سنة ٤٢٨ وأبو بكر الرازي الكيميائي الطبيب المتوفىٰ سنة ٣٢٠. وظهر كثير من كتب الصوفية ومن أشهرهم الغزالي المتوفىٰ سنة ٥٠٥. وسلك ذلك السبيل في التقدم كثير من الفنون الاجتماعية كفن التاريخ وتدبير الملك والمنزل والأخلاق وغير ذلك.

*** الخلاصة:**

فيُرىٰ ممَّا تقدم أنَّ اللغة العربية تقهقرت في المشرق شعرًا وكتابةً، وارتقت في العلوم بأنواعها تدريسًا وتأليفًا.

# الأدب في مصر والشام
# زمن الفاطميين والأيوبيين

فتح العرب مصر والشام، وانتشرت جمهرتهم بهما؛ لخِصبهما وقربهما من جزيرة العرب، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم علىٰ لغة أهليهما من الروم والقبط، وعلىٰ آدابهم ودينهم إلا قليلًا ولمَّا ضعفت خلافة بغداد وقعت مصر والشام غنيمةً باردةً في أيدىٰ الطولونيين ثم الإخشيديين ثم الفاطميين، واتخذ هؤلاء جميعًا مصر مركزًا لحكومتهم لخصبها وكثرة خيراتها، فكانت القاهرة زمنَ الفاطميين حاضرةً لخلافة عربية عَلَوية ضخمة ذات حضارة راقية، وطال عمرها نحو سبعين ومائتي سنة، فصبغت مصر والشام بصبغتها في بعض الاعتقاد، وأكثر العادات والأعياد، وكانت حضارتها في الصناعات والعمارة أساسًا للفن العربي الإسلامي إلىٰ وقتنا هذا.

وكانت محبة خلفائها وأمرائها ووزرائها للعلم والأدب والشعر بالغة أقصىٰ الغاية، فاتخذ كثير من الأدباء والنحاة والكتاب والشعراء في زمنهم مصر دار إقامة، وأسنىٰ الخلفاء الفاطميون لهم الجوائز وجلسوا لهم يستمعون بدائعهم في الأعياد والمواسم، وما كان أكثرها عندهم. ولم تُخْمِد شعلة حضارتهم إلا الحروب الصليبية، ومنازعة مواليهم ووزرائهم لهم في الملك علىٰ مثل ما كان الأمر في الدولة العباسية، حتَّىٰ سهل علىٰ صلاح الدين الأيوبي إبادة خلافتهم وتأسيس دولة كُرْدِية في النَّسب، مستعربة

في اللسان والنزعة علىٰ أنقاضها، فأنقذت معظم بلاد الشام من الصليبيين، وانتفعت بحضارة الفاطميين أي انتفاع، وإن عملت جهدها علىٰ نسخ مذهبهم الشيعي الباطني وإحلال مذهب أهل السنة محله، إلىٰ أن انتزع الملك منهم مماليكهم التركمان.

# الشعر في مصر والشام
# زمن الفاطميين والأيوبيين

كانت مصر والشام في العصر الأول من حكم الدولة العباسية ولايتين من ولايات الخلافة، يتعاقب علىٰ حكمهما ولاة من قبل بغداد لا تزيد ولايتهم غالبًا علىٰ بضع سنوات، ولا يتصرفون في شيء من خراج الولاية إلا بحقه: من عمارة أرض، أو رزق جند، أو كتاب ديوان، أو قضاة أو شرطة، أو نحو ذلك، ويرفعون باقي الخراج إلىٰ الخليفة محاسَبين عليه من أهل الديوان ببغداد حسابًا عسيرًا، فلم يكن في استطاعتهم الإنفاق علىٰ أمر عام: من نشر ثقافة علمية أو أدبية دائمة الأثر، وإنَّما كان أصحاب الهمم النبيلة والنفوس الشريفة من الرَّعايا يطلبون الفقه أو الحديث أو اللغة أو الأدب والشعر غير مدفوعين بدافع إلا حب العلم والمعرفة. فإذا نبغ أحدهم وأصبح إمامًا يرجع إليه في علم، أو شاعرًا يرغب في شعره الملوك، وأحسَّ ذلك من نفسه، وجد أنَّ مقر الولاية لا يتسع لمثله، فيخرج إلىٰ بغداد حيث المعرض العام والسوق النافقة للعلم والأدب والشعر، فيعرض بضاعته علىٰ الراغبين فيها من الرؤساء والعلماء والنقاد والمؤلفين في الأدب، فلا يلبث أن يشتهر؛ فإمَّا أن يدخل في غمار كتاب الدولة إن كان أديبًا، أو حكامها وقضاتها إن كان فقيهًا، وإمَّا أن يتكسَّب بالشعر مدحًا وهجاءً ومنادمةً ومحاضرةً.

وإذا آثر أحدٌ من هؤلاء النابغين الإقامة في وطنه من الولايات والأقاليم الصغيرة بسبب عجز في جسمه أو قصور في همته أو زهادة منه في الدنيا، خَمَل ذكره، وجُهِل قدره، وانحصرت الرواية عنه في أهل بيئته، وأكثرهم حساد له ناقمون منه مزاياه. وما جلب عليه كل ذلك إلا ابتعاده عن ميدان التناضل العام، وموطن الإعلان والاشتهار، وهو دار الخلافة.

ولذلك نرىٰ في العصر الماضي أمثال أبي تمام الناشئ بين الشام ومصر، والبحتري الناشئ في مَنْبِج شمالي حلب لم يشتهروا إلا بعد أن هجروا مواطنهم إلىٰ دار الخلافة، وإنَّا لنقرأ شعر بعض شعراء الشام ومصر ممَّن آثر الخمول علىٰ الهجرة إلىٰ حاضرة الملك، فنجده في بعض الأغراض يفوق أشعار المشهورين أو يكاد، ولكن أهل التاريخ والرواية والنقد والتأليف -ومقرهم الحاضرة غالبًا- لم يشعروا بهم فنُسيت أخبارهم، وعفَّىٰ الزمان علىٰ آثارهم.

إذا فهمت هذا؛ عرفت لماذا لم تكن الفسطاط ولا الإسكندرية ولا دمشق في العصر الأول العباسي بيئةً صالحةً لإقامة كبار الشعراء، ولكن لمَّا ضعُفت خلافةُ بغداد في العصر الثاني الذي نحن بصدد الكلام فيه، نشأت في الشام ومصر دولٌ وإماراتٌ مستقلة قاسَمَتْ بغداد فضل العناية بالعلم والأدب والشعر والفنون، فأبقت من جهةٍ علىٰ نبغائها باصطناعهم وترفيه العيش عليهم، فطاب لهم المقام في ظلالها وربؤوا بأنفسهم عن الهجرة إلىٰ غيرها، وجلا إليها كلُّ مَن لم تتسع له بيئةُ وطنه من أهل الإجادة في العلم والأدب والشعر. ومن الأمثلة لذلك دويلة صغيرة في شمالي الشام ملكها أمير من تغلب يجيد الشعر ونقده ويرغب في الأدب واللغة والحكمة، ويُسْني جوائز أهل الإجادة، وهو سيف الدولة أمير حلب وبعض الثغور، قد اجتمع بها في خدمته من الفلاسفة واللغويين والنحويين والأدباء والخطباء والشعراء من أهل الشام ومن مختلف الأقطار جمهرة لم تجتمع لخليفة وقته ولا للديلمي المتغلب علىٰ بغداد، ومدحه بل تخرج في دولته أبو الطيب المتنبي الذي أنف أن يمدح خليفة بغداد ووزيرها المهلبي عند مروره بها قاصدًا عضد الدولة.

غير أنَّ حال الشعر في خلال العصر العباسي الثاني -أي: زمن الفاطميين والأيوبيين- لم تكن مطَّردة التقدم لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك في أواخره عن معاضدة أهله، فانصرفوا عن التكسُّب به إلىٰ الخدمة في دواوين الدولة، ونظموه إمَّا تكمُّلًا وتظرُّفا، وإما تملُّقًا للرؤساء وتقرُّبًا إليهم.

لذلك كانت حال الشعر في مبدأ العصر الثاني العباسي بمصر والشام نهاية ما وصل إليه الشعر العربي من الارتقاء، كما في شعر المتنبي، وأبي فراس(1)، والمعري؛ لقرب عهد هؤلاء الشعراء بالعصر الأول العباسي وتأدبهم بأدبه.

وكانت حالة أواسط العصر الثاني وأواخره تتحول شيئًا فشيئًا إلىٰ صورة موطنية قومية؛ بسبب ما نشأ في مصر والشام في مدة تزيد علىٰ مائتي سنة من حضارة خاصة، ومذاهب مختلفة شيعية وباطنية وصوفية وسنية، وكلها ذوات رسوم حديثة، وبسبب ما دهم البلاد بعدُ من الحروب الصليبية التي غيَّرت مجرىٰ نظام الحكم وطرق الكسب والمعيشة، وشغلت أهلَها عن الاستزادة من العلم والأدب، وصبغت طبائعهم بصبغة خاصة لم تنهض بالشعر إلىٰ منزله أسمىٰ من منزلته في مبدأ هذا العصر، بل انخفضت منزلته في البلاغة واختراع المعاني الشريفة.

---

(1) **أبو فِراس الحَمَداني**: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، شاعر أمير، فارس، ابن عم سيف الدولة، له وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه علىٰ سائر قومه، وقلده منبج وحران وأعمالها، فكان يسكن بمنبج ويتنقل في بلاد الشام، جرح في معركة مع الروم، فأسروه وبقي في القسطنطينية أعوامًا، ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة، قال الذهبي: كانت له منبج، وتملك حمص وسار ليتملك حلب فقتل في تدمر، وقال ابن خلّكان: مات قتيلًا في صدد (علىٰ مقربة من حمص)، قتله رجال خاله سعد الدولة (٣٥٧هـ/٩٦٧م). انظر: معجم الشعراء العرب (٤٠٧)، وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٤١، ١٦٢) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٨٨).

*** وتتضح لنا صفة الشعر العامة في هذا العصر بما يأتي:**

بقيت فنون الشعر وأغراضه القديمة من نحو: الفخر، والمدح، والرثاء، والغزل، والوصف، والتهنئة، مستعملة بمصر والشام في جميع هذا العصر؛ إذ كان أكثرها من لوازم الحياة الاجتماعية العامة.

ثم استدعت حوادث هذا العصر السياسية وتشكل التربية الخليقة والأدبية والثقافة العلمية بصور خاصة بعض توسع في هذه الأغراض القديمة، أو تنويع فيها وزيادة عليها.

فتوسع شعراء الشام -من قبل أن تُنَغِّص عيشهم الحروب الصليبية- في وصف الطبيعة، وتنوعوا فيه لسببين اجتمعا لهم:

**الأول**: اتساع مجال الخيال الجميل عندهم ووفرة مادته لديهم بجمال بيئتهم، وكثرة ما فيها من مناظر الطبيعة الرائعة كالجبال الشاهقة المكللة رؤوسها بالسحب، وكالمروج النَّضْرة، والجداول المتسلسلة بين بساتين الفاكهة وحدائق الأزهار، وكثرة السحب ونزول الأمطار والثلج والبَرَد، إلىٰ صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها من بعض.

**والثاني**: قُرب صُقْع الشام من صُقْع العِراق، منشأ الحضارة الإسلامية، ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة، ومن صقع بلاد العرب مهد الفصاحة الأولىٰ، وكان عند أهلها في ذلك العهد بقية منها، واتصالهم بالشام أيسر عليهم من اتصالهم بمصر، ولذلك نجد أغلب سكان شرقي الشام حتَّىٰ وقتنا هذا من أهل البدو أو المتطبعين بطباعهم.

وكان لقرب الشام من العراق مزية أخرىٰ؛ فإنَّه أبقىٰ فيهم في مفتتح هذا العصر ملكة التكمل بالمعرفة والعلم، والتزود من العلوم الإسلامية التي كانت قد اتسعت دائرتها في هذا العصر، ومن الفلسفة المنقولة عن الأوائل، وكانت قد رسخت في أذهان نابته هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام.

كل ذلك بلا ريب ينمي مادة الخيال، ويجمِّل صوره، ويشكلها بما لا يحصىٰ، ويجود اللفظ.

ولذلك نجد أشهر الوصَّافين من المشارقة مثل كُشاجم والصَّنَوْبَري من أهل الشام[1].

---

(١) كشاجم هو أبو الفتح محمود بن الحسين من أهل الرملة من بلاد فلسطين خدم سيف الدولة ابن حمدان ولقب نفسه بكشاجم فسئل عن ذلك فقال: الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جواد والميم من منجم وكذلك كان، توفي سنة ٣٥٠ ومن شعره:

| | |
|---|---|
| **يا حبَّذا يومنا ونحن علىٰ** | **رءوسنا نعقد الأكاليلا** |
| **في جنة ذُلِّلَتْ لِقَاطِفِها** | **قطوفُها الدانياتُ تذليلا** |
| **كأنَّ أُتْرُجَّها تميل به** | **أغصانُه حاملًا ومحمولا** |
| **سلاسل من زبرجد حَمَلَتْ** | **من ذهب أصفر قناديلا** |

[م]*ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر كشاجم. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٥١) ط، عالم الأدب.

والصنوبري هو أحمد بن محمد من أهل حلب من شعراء سيف الدولة، وكان معاصرًا لكشاجم وهو أكثر من كشاجم وصفًا للطبيعة ومن قوله في النرجس:

| | |
|---|---|
| **أرأيتَ أحسنَ من عيون النرجس** | **أم من تلاحظهنَّ وسط المجلس** |
| **درٌ تشقق عن يواقيت علىٰ** | **قضب الزمرُّد وسط بسط السندس** |
| **أجفان كافور خُفِقْنَ بأعين** | **من زعفران ناعمات المَلْمَس** |
| **فكأنَّها أقمارُ ليلٍ أحدقت** | **بشموس أفق فوق غصن أملس** |

ومن شعراء الشام الوصافين أبو الفرج محمد بن أحمد المشهور بالوأواء الدمشقي توفي سنة نيف وتسعين وثلاثة وهو القائل:

| | |
|---|---|
| **فأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسَقَتْ** | **وردًا وعضَّتْ علىٰ العناب بالبرد** |

ومن وصافي الطبيعة علي بن رستم المشهور بابن الساعاتي المتوفىٰ سنة ٦٠٤ أحد شعراء صلاح الدين الأيوبي

| | |
|---|---|
| **لله يومٌ في سيوط وليلة** | **صرف الزمان بمثلها لا يَغْلَط** |
| **بتنا وعُمْرُ الليل في غَلْوائه** | **وله بنور البدر فرع أَشْمَطُ** |
| **والطل في تلك الغصون كلؤلؤ** | **رَطْبٌ يصافحه النَّسيمُ فيَسْقُطُ** |
| **والطير تقرأ والغدير صحيفة** | **والريح تكتب والغمام ينقط** |

[م].

وتوسع الشعراء وخاصة شعراء الشام في وصف المعارك الحربية، لكثرة ما كانت تقع بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهة، والروم البيزنطيين ثم الإفرنج الصليبيين من جهة أخرىٰ.

وكل شعراء سيف الدولة الحَمْداني من أمثال المتنبي وأبي فراس والنامي والببغاء، وكذلك شعراء نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي ممَّن يجيدون وصف المعارك الحربية[1].

وتوسعوا أيضًا في التحريض علىٰ مجاهدة الصلبيين الذين أغاروا علىٰ بلاد الشام ومصر في هذا العصر، وحث النَّاس علىٰ استخلاص المدن والسبي من أيديهم[2]. ومن هذا النوع الأشعار التي وضعت في الحماسة والافتخار بقهر الأقران والأبطال في السير الخيالية المخترعة بمصر في هذا العصر، لتربية ملكة الشجاعة والإقدام في نفوس شُبَّانِه، كسيرة عنترة بن شداد، وسيرة البطال، وفتوح الشام ونحوها.

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج عامة في الوصف. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٣٣، ٢١٣، ٢٠٧، ١٨٦، ١٨٣، ١٦٧، ١٣٩، ١١٨، ١١٤، ٢٥) ط، عالم الأدب.

(٢) قال أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الشهير بالببغاء المتوفىٰ سنة ٣٩٨ أحد شعراء سيف الدولة يصف معركة له:

**من السالبات الشمس ثوب ضيائها ... بثوب تولي نسجه عثير الترب**
**أعادت علينا الليل بالنفع في الضحا ... وردَّت علينا الصبح في الليل بالشهب**

وقال الكاتب الشاعر العماد الأصبهاني أحد رؤساء الكتاب في دولة صلاح الدين، من قصيدة لشيركوه بن شاذي:

**فُتحت مصر وأرجو أن يصير بها ... ميسرًا فتح بيت القدس عن كُثبِ**
**قد أمكنَتْ أسدَ الدين الفريسةُ من ... فتح البلاد فبادر نحوها وَثِب**
**شكا إليك بنو الإسلام يُتْمَهُمُ ... فقُمت فيهم مقام الوالد الحَدِبِ**
**في كل دارٍ من الإفرنج نادبةً ... بما دهاهم فقد باتوا علىٰ ندب**

[م].

وتوسع بعض شعراء الشام ومصر في باب الحكم والأمثال ممَّا جرىٰ علىٰ لسان المتنبي[1]، وشرح الحقائق الفلسفية[2] ونقد العادات ونظام الحكم والاشتراع والاجتماع والتقاضي والتعبد، ومعاملة الحيوان، وغير ذلك ممَّا جرىٰ علىٰ لسان المعري. وقد علمتَ أنَّ السبب في ذلك انتشار العلوم والآداب اليونانية والفارسية والهندية في أهل الملة الإسلامية، واتصال زمن شعراء هذا الصنف بزمن النهضة العربية في الدولة العباسية.

وتنوعت عند أهل القطرين -وبخاصة المصريين- التهاني باستحداث أفراح وطنية لم تكن معهودة من قبل، أو كانت نادرة الوقوع، من نحو الحفلات الكثيرة التي كانت تُعْنىٰ بها الدولة الفاطمية جِدَّ عناية، كوفاء النيل وفتح الخليج، ومولد النبي ﷺ، ومولد علي وأولاده، وعيد الغدير وأول العام الهجري، والنيروز المصري، وقافلة الحاج، وغير ذلك[3].

---

(١) كقول المتنبي وسيأتي الكلام في ترجمته وبعض شعره:

**لا يسلم الشرفُ الرَّفيعُ من الأذىٰ ... حتىٰ يُراقَ علىٰ جوانبه الدمُ**

**والظلم من شِيَمِ النُّفوس فإن تجد ... ذا عفة فلِعَلَّةٍ لا يظلم**

**ومن البليَّة عَذْلُ من لا يَرْعَوي ... عن غيِّه وخطابُ مَن لا يفهم**

[م].

(٢) ستأتي أمثلة كثيرة لذلك عند الكلام في أبي العلاء المعري ومن قوله من مرثية:

**بان أمر الإله واختلف النَّا ... سُ فداعٍ إلىٰ ضلالٍ وهاد**

**والذىٰ حارت البرية فيه ... حيوان مستحدَث من جماد**

**فاللبيب اللبيب من ليس يغـ ... ـتَرُّ بكَوْنٍ مصيره للفساد**

[م].

(٣) كقول كافي الدولة أبي العباس أحمد أحد شعراء الدولة الفاطمية يهنئ أحد خلفائها بفتح الخليج ووفاء النيل من قصيدة:

**لِمَن اجتماعُ الخلق في ذا المشهد ... للنيل أم لك يا ابن بنتِ محمدِ**

**أم لاجتماعكما معًا في موطن ... وافَيْتُما فيه لأصدقِ موعدِ**

**هذا يفي ويعود بنقصٍ تارةً ... وتسُدُّ أنت النَّقْصَ إن لم يزدَدِ**

[م].

وكالتهاني باستنقاذ المدن والأماكن المقدسة من الصليبيين والانتصار عليهم زمن الدولة الأيوبية[١].

وكذلك تنوع الشعر الصوفي بتنوع الكنايات والرموز عن أسراره بالغزل والخمريات ووصف السَّيْر والسُّرىٰ، ولمع البروق وارتفاع النيران في البوادي ونحو ذلك، بل خرج أحيانًا عن طريقة الرموز والكناية إلىٰ تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله، كما في شعر ابن الفارض ولا سيَّما تائيته الكبرىٰ التي شرحت بشروح مطولة لكثرة ما حوته من حقائق طريقة القوم[٢].

---

(١) وقال نقيب الأشراف بالديار المصرية أحمد بن أسعد المعروف بالجواني يهنئ صلاح الدين بفتح القدس من قصيدة قال في أولها:

| | |
|---|---|
| **أتُرىٰ مناماً ما بعيني أبصر** | **القدس يُفتح والفرنجة تُكسرُ** |
| **ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم** | **يُرَ قبل ذاك لهم مليكٌ يُؤسَرُ** |
| **قد جاء نصر الله والفتح الذي** | **وعد الرسول فسبِّحوا واستغفروا** |
| **من كان هذا فتحه لمحمد** | **ماذا يقال له وماذا يذكر** |

[م].

(٢) ومن ذلك قول شرف الدين عمر بن الفارض الشاعر الصوفي أحد المولعين بالمحسنات البديعية المتوفىٰ سنة ٦٣٢ من مطلع قصيدة:

| | |
|---|---|
| **أَعِدْ ذكر مَن أهوىٰ ولو بملام** | **فإنَّ أحاديث الحبيب مدامي** |

وأول تائيته الكبرىٰ:

| | |
|---|---|
| **سَقَتْنِي حُمَيَّا الحُبّ راحةَ مُقْلتي** | **وكأسي مُحيَّا مَنْ عن الحُسْنِ جَلَّتِ** |

[م].

# ألفاظ الشعر وأساليبه

وأمَّا ألفاظه وأساليبه؛ فقد كان لفظ الشعر بمصر والشام في مفتتح هذا العصر لا يزال جزلًا رصينًا ممزوجًا ببعض الغريب، ولا سيَّما شعر شعراء الشام وأعالي الفرات لغلبة العربية والبداوة بين أهليهما: كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري، ثم لما غلبت علىٰ القطرين دولة الفاطميين بحضارتها وترف معيشتها وعلومها وفلسفتها وطيب العيش في ربوعها، نشأ في مصر نابتةٌ من الأدباء يميلون إلىٰ الظَّرْف وسجاحة الطبع، والتأنُّق والتملُّح في كل شيء، وذلك يستدعي سهولة البيان، ورقة اللفظ، وحسن نغمه وجرسه، والتباعد به عن الحوشي المتنافر الحروف، والميل إلىٰ المحسنات اللفظية، فسهل بذلك لفظ الشعر ولان، وتبعته في ذلك الأساليب وطرق التعبير، واشتهرت هذه الطريقة في أواخر هذا العصر بين المصريين من أمثال القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن النبيه، وابن مطروح وآلت إلىٰ البهاء زهير فتبسَّط فيها إلىٰ درجة كادت تقرب من درجة لفظ العامة، وسرىٰ هذا الروح إلىٰ شعراء الشام وأعالي الفرات لأنَّهم كانوا أهل مملكة واحدة[1].

---

(١) من ذلك قول كمال الدين ابن النبيه المصري أحد شعراء الدولة الأيوبية المتوفىٰ سنة ٦١٩:

**مـن سـحـر عـيـنـيـك الأمـانَ الأمـانْ ... قـتـلـتَ ربَّ الـسـيـف والـطَّـيْـلَـسَـانْ**

**أسـمـرُ كـالـرُّمـح لـه مُـقْـلـة ... لـو لـم تـكـن كَـحْـلاء كـانـت سِـنَـانْ**

**يـزداد إذ أشـكـو لـه قـسـوةً ... ولـو شـكـوْتُ الـحـبَّ لـلـصَّـخْـرِ لَان**

[م].

## * الشعراء:

كان كثير من شعراء مصر والشام يتكسَّبون بالشعر أول هذا العصر، فلمَّا اتسع نظام الدواوين زمن الدولة الفاطمية والأيوبية، واقتضىٰ ضبطُ الأعمال فيها تجزئتها وتعدد أقسامها، كثر عدد عمال الكتابة بها وزيد في أرزاقهم ووظائفهم، فدخل في غمار كتاب الدواوين كثيرٌ من أصناف المتعلمين من الكتاب والشعراء والفقهاء، ويظهر أنَّ الفقه والقضاء كان لهما المقام الأول في التعليم عند الدولة الفاطمية، فحرص كل كاتب أو شاعر علىٰ الاحتفاظ بلقب القاضي وإن لم يَلِ القضاء بالفعل، وتلقبوا -مثل الخلفاء والوزراء- بألقاب خاصة مثل القاضي الرشيد، والقاضي السعيد، والقاضي الأعز، والقاضي الفاضل، والقاضي الأسعد ... إلخ، وسرَتْ عادةُ تلقيب الشاعر والكاتب بالقاضي من الدولة الفاطمية إلىٰ الأيوبية، ثم إلىٰ دولتي المماليك بعد هذا العصر.

## * المتنبي:

وممَّن غلبت عليه صفة الشعر سواء أتكسب به أم لم يتكسب، أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي المتوفىٰ سنة ٣٥٤، ولم يأتِ بعده في الأمة العربية أشهر منه ولا أشعر، وكان ممَّن يؤثر جانب المعنىٰ علىٰ جانب اللفظ في كثير من شعره، ويشتهر بإيراد الحِكَم وضرب الأمثال المخترعة له أو المنقولة عن غيره من شعراء العرب أو الأمم الأخرىٰ، وبوصف المعارك الحربية[1]، وله

---

(١) فمن قوله في وصف معركة لسيف الدولة مع الروم البيزنطيين:

أتَوْك يجرُّون الحديد كأنَّما ... سرَوْا بِجيادٍ مَالَهُنَّ قوائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرض والغرب زَحْفُه ... وفي أُذُنِ الجَوزاء منه زَمَازِمُ
تجمَّع فيه كلُّ لِسنٍ وأُمَّةٍ ... فما يُفهم الحُدَّاث إلا التَّراجمُ
وقَفْتُ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنَّك في جفن الردىٰ وهو نائمُ =

في استخراج المعاني واختراعها باع طويل، ورُزق السعادة في شعره حتَّىٰ لم يوجد متأدب في زمنه أو بعد زمانه لم يستعن بشعره.

وهو من أصل عربي من أهل الكوفة، رحل به أبوه في صغره إلىٰ بلاد الشام فتأدب، ودخل باديتها، فلُقِّن الفصاحة من أعرابها، فقيل إنه ادّعىٰ النبوة فيهم، وهو شابٌّ صغير، فقبض عليه وسجن مدة، ثم خرج يتكسب بالشعر، يمدح أمراء الشام وخاصة سيف الدولة، وفي دولته طار صيته. ثم دخل مصر، ومدح كافورًا الإخشيدي ثم خرج منها وهجاه، وذهب إلىٰ الشرق فمدح عضد الدولة وابن العميد، ثم قتل بقرب بغداد عند مُنْصَرَفِه إلىٰ الكوفة.

---

= تمرُّ بك الأبطال كَلْمَىٰ هزيمةً ... ووجهك وضَّاحٌ وثغرُكَ باسِمُ

**ومن قوله في الفخر:**

**وإنِّىٰ لمن قومٍ كأنَّ نفوسَهم ... بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعظما**

**فلا عبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني ... ولا صَحِبَتْنِي مُهجةٌ تقبل الظلما**

ومن قوله في الحكم والحماسة:

**عش عزيزًا أو مُتْ وأنت كريم ... بين طعن القَنا وخَفْقِ البُنُود**

**فرءوس الرماح أَذْهَبُ للغيظ ... وأشفىٰ لغلِّ صدر الحَقود**

**لا كما قد حَييتَ غيرَ حميدٍ ... وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فَقيدِ**

**فاطلب العزَّ في لظَىٰ ودعِ الذُّلَّ ... ولو كان في جِنان الخلود**

ومن قوله في الحكم:

**وكلُّ امرئٍ يولِّي الجميلَ محبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنبت العزَّ طَيِّبُ**

**من يَهُنْ يسهل الهوان عليه ... ما لِجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ**

**وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النَّهارُ إلىٰ دليلِ**

**ومن نكد الدنيا علىٰ الحُرِّ أن يرىٰ ... عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ**

**وإذا كانت النفوس كِبارًا ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ**

**وما الحسن في وجه الفتىٰ شرفٌ له ... إذا لم يكن في فعله والخلائقُ**

**وشرُّ ما قَنَصَتْه راحتي قَنصٌ ... شُهبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَخَمُ**

[م]. وللاطلاع علىٰ المزيد من شعر أبي الطيب. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٣١، ١٥٧) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي (٢٨٨) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٧٢).

## * المعري:

ومنهم أبو العلاء المعري التَّنُوخي الفيلسوف الضرير من أبناء الفقهاء بالمعرَّة، نظم الشعر في صباه، وأجاد علوم العربية حتَّىٰ عد من أئمتها.

واطلع علىٰ كثير من آراء فلاسفة اليونان والهنود، فامتنع في كهولته عن أكل كل ذي روح وما يخرج منه، وضمَّن آراءه الفلسفية شعره في ديوان خاص سمَّاه لزوم ما لا يلزم لبناء رويِّ أبياته علىٰ حرفين، وتعرض فيه للشرائع والمذاهب والعادات ونظام الملك والاجتماع فاتُّهم الزندقة، ولم يطرق شاعر في الإسلام قبله ولا بعده تلك الأغراض التي قصد إليها أو انتقدها[1]، وله ديوان شعر آخر ضمَّنه كثيرًا من شعره في أغراض الشعر المعتاد وسمَّاه سَقطَ الزند وتوفي بالمعرة سنة ٤٤٩هـ، وله مؤلفات في الأدب واللغة والشعر.

---

(١) فمن ذلك قوله في القناعة:

**والموت أحسن بالنفس التي أَلِفَتْ ... عزَّ القناعة من أن تسأل القُوتا**

**ومن قوله في المأكل والملبس:**

**يكفيك أُدْمًا سليطٌ ما أُريقَ له ... دمٌ ولا مسَّ روحًا إذ جرىٰ ألمُ**

**وقوله زاعمًا أنَّ الوالدين جَنَيا علىٰ الولد:**

**متىٰ لُمْتُمَاني علىٰ زَلَّةٍ ... رَجَعْتُ علىٰ أمِّيَ الهابل**

**ومن قوله في الحكام:**

**مَلَّ المُقَامُ فكم أعاشر أُمَّةً ... أمرَتْ بغير صلاحها أمراؤها**

**ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدَوْا مصالحها وهم أجراؤها**

[م]. وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعر المعري. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٤٤، ١٦٤) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٢٩١) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٧٨).

## * تميم بن المعز:

ومن شعراء المصريين الأمير تميم بن المعز الخليفة الفاطمي[1]، وكان في دولتهم لا يقل عن ابن المعتز في الدولة العباسية، وتوفي شابا سنة ٣٧٤.

وكمال الدين ابن النَّبيه عليُّ بن محمد شاعر بني أيوب المتوفىٰ سنة ٦١٩[2]، وبهاء الدين زهير وكان من أرق شعراء السهل الممتنع وهو وزير الصالح الأيوبي توفي سنة ٦٥٦[3].

ومنهم أشعر شعراء الصوفية علىٰ الإطلاق شرف الدين عمر بن الفارض المتوفىٰ سنة ٦٥٢[4].

---

(١) **ومن قوله:**

**أما والذي لا يملك الأمرَ غيرُه ... ومَن هو بالسرِّ المُكتَّم أعلمُ**
**لئن كان كتمان المصائب مؤلمًا ... لإعْلانُها عندي أشدُّ وآلمُ**
**وبي كلُّ ما يُبكي العيونَ أقلُّه ... وإن كنتُ منه دائمًا أتبسَّمُ**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٥٣) ط، عالم الأدب.

(٢) للاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٦١) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٣٥- ٣٣٩).

(٣) للاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٦٣، ١٧٠) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٤١-٣٤٤) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٨٤-٢٨٦).

(٤) للاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (١٦٩) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات(٣٣٩-٣٤١).

# النثر الفني
# أو كتابة الترسل في هذا العصر

كانت كتابة الإنشاء والترسل في النصف الأول من هذا العصر، أي مدة بني حمدان والفاطميين، علىٰ مثل ما كانت عليه في الشرق من اتباع طريقة ابن العميد، بل ربَّما قلَّ فيها إلتزام السجع البديع.

وكان آخر من نسج علىٰ هذا المنوال، العماد الكاتب الأصبهاني المتوفىٰ سنة ٥٩٧، ولما نبُه شأن القاضي الفاضل في أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكي كتاب الشرق في البديع، فزاد عليهم وأربىٰ واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمَّىٰ الطريقة الفاضلية[1].

وذلك أنه جارىٰ مَن قبله من كُتَّاب المشرق في التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل في رسائله أكثر أنواع البديع التي كانت

---

(١) **وله من رسالة في وصف حصن منيع:**

- «ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب، وعُقَاب في عِقَاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة» [م].

**وله من رسالة في وصف حمام الزاجل:**

- «لا زالت أجنحتها يحمل من البطائق أجنحة، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتطوي الأرض إذا نشرت الجناح الطائر، وكادت تكون ملائكة لأنَّها رسل إذا نيطت بالرقاع، طارت أولي أجنحة مثنىٰ وثلاث ورباع، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف اليقظة الذي صدق العين وما كذبها، وهىٰ أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنَّها تقوم علىٰ منابر الأغصان قيام الخطباء». [م]

فاشية وقتئذ في الشعر، وأكثر من حلِّ المنظوم واقتباس الآيات، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال. وأكثر جدًا من استعمال التورية فاستدعىٰ ذلك إطالة السجعات طولًا أخرجها عن المألوف، لأنَّ التورية يُحْتاج فيها إلىٰ ذكر مرشِّحات وقرائن لمعنييها القريب والبعيد، وأمعن في التشبيه والاستعارة مع قلة المبالاة بالمبالغة والإغراق في ذلك، حتَّىٰ جاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها، غير أنَّ هذا التكلف لم يظهر في رسائله بقدر ما ظهر في رسائل من خلفه في دواوين الإنشاء بمصر والشام لسلامة ذوق الرجل وانطباعه علىٰ طريقته وسعة مادته في اللغة ووفرة محفوظه من الأدب، فلمَّا جرىٰ في حلبته من ليس علىٰ صفاته، حسب أنَّ البلاغة تُمْلَكُ ناصيتُها بعشرات من أنواع البديع، فاسترسل في تكلفها تكلفًا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة.

ولم يظهر أثرُ ذلك جليًا إلا بعد سقوط بغداد وتراجع الرسائل العربية إلىٰ دواوين مصر والشام والغرب زمن الممالك التركية كما سيأتي بيانه.

وبرع في كتابة الرسائل الديوانية في مصر والشام في هذا العصر بلغاء، منهم: أبو القاسم علي بن مُنْجِب بن الصيرفي المصري المتوفىٰ سنة ٥٥٠هـ صاحب ديوان الرسائل المطبوع بمصر.

وموفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلَّال كاتب المصريين وصاحب ديوان الإنشاء المتوفىٰ سنة ٥٦٦.

**وهذان من كُتَّاب الدولة الفاطمية.**

والقاضي الفاضل المتوفىٰ سنة ٥٩٦ وزير صلاح الدين الأيوبي[1]، وأبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصبهاني كاتب صلاح الدين.

**وهؤلاء ممَّن أدرك عصر الفاطمية والأيوبية.**

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من كتاباته. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٦٨ ١٧٤) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢١٨) وما بعدها.

# التدوين والتصنيف
# أو الثقافة العلمية والأدبية في مصر والشام

كان اشتغال علماء الشام ومصر بتدوين العلوم الأدبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء الشرق، غير أنَّ الفاطميين نشروا فقه الشيعة في زمانهم، وكان لهم عناية عظيمة بعلوم الحكمة والطب والفلك وسائر العلوم، وجمعوا من الكتب وآلات العلوم ما لا يحصىٰ، حتَّىٰ جاء صلاح الدين فبدَّد كتبهم وأعاد مذهب أهل السنة في مصر والشام، ومن ذلك قلَّت عناية علماء المصريين بالعلوم العقلية وانصرفوا إلىٰ العلوم الأدبية والشرعية، وممَّن اشتهر من مؤلفي هذا العصر أبو العلاء المعري من الأدباء والشعراء، والمسبحي، وابن زولاق، وابن عساكر، والقضاعي، والعماد الكاتب من المؤرخين.

**ومن الأطباء:** ابن رضوان المصري.

**ومن الفلكيين:** ابن يونس.

# الأدب العربي في الأندلس

# تمهيد

فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هجرية علىٰ يد طارق بن زياد، وموسىٰ بن نصير زمن الوليد بن عبد الملك، وجلا إليها العرب والبربر من شمالي أفريقية، ولحقهم بها من جميع قبائل العرب وبطونها كثيرون من عرب الشام ومصر حتَّىٰ كان منهم بها بعد زمن قليل جمهرة عظيمة مختلطة بطوائف من البربر وصلت في فتوحها إلىٰ نهر لوار بفرنسا، وكان لأولئك الفاتحين والطارئين بعدهم السيادة علىٰ أهل البلاد من القوط والإسبان واليهود وغيرهم من الأهلين، ثم امتزجوا بهم بالمصاهرة لإسلام كثير منهم، فنشأ من الجميع بعد حين شعب مسلم مؤلَّف من عناصر عدة ذو صفات ومزايا جديدة، شاركه في بعضها من بقي علىٰ دينه من بقايا الإسبان واليهود، وتنوعت هذه الصفات بتنوع العصور المختلفة بسبب ما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية والدينية، التي أبقت أثرًا بيِّنًا في اللغة وأدبها.

*** ويمكن تقسيم هذه العصور بالنسبة إلىٰ اللغة وأدبها إلىٰ أربعة:**

(١) عصر الولاة الأولين الذين كانوا يبعثون من قبل خلفاء بني أمية بالشام، ومدته من سنة ٩٢-١٣٨ هجرية نصفها فتح وطاعة، ونصفها فتن داخلية انتهت إلىٰ عصبية ممقوتة، قد ختمت باستيلاء عبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك علىٰ الأندلس وتأسيسه بها دولة بني أمية الثانية، وعدة الولاة عشرون.

(٢) عصر رقي اللغة وآدابها، وهو عصر الدولة الأموية الغربية وملوك الطوائف الذين استبد كلٌّ منهم بناحية بعد زوالها واستقر فيها، ومدته من سنة ١٣٨–٤٨٤ هجرية.

(٣) عصر وقوف اللغة ثم تقهقرها، وهو عصر دولتي البربر من المرابطين والموحِّدين، وهم الذين استولوا علىٰ ممالك الطوائف وجعلوا الأندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمُرَّاكُش وفاس ومدته من سنة ٤٨٤–٦٣٠ هجرية.

(٤) عصر يقظة الموت، وهو عصر الدولة العربية الثانية من بني هود وبني الأحمر ومدته من سنة ٦٣٠–٨٩٧ هجرية، وهم الذين أمكنهم المحافظة علىٰ جنوبي البلاد أكثر من قرنين، ثم أجلاهم الإسبان عنها.

ونكتفي هنا بشرح حال اللغة وآدابها في عصر بني أمية وملوك الطوائف؛ لأنَّه أرقىٰ عصور الحضارة والأدب بها.

# حال اللغة والأدب
# زمن بني أمية وملوك الطوائف

## * الحضارة بالأندلس:

كانت حال اللغة والأدب في عصر الولاة بين العرب ومستعربي البربر نظير ما كانت عليه عند بني أمية في الشرق أي علىٰ صورة بداوةٍ وبُعدٍ عن مقتضيات الصناعة، ثم كانت في زمن الدولة الأموية الأندلسية تسلك طريق الدولة العباسية تحاكيها، بل تنافسها في كل شيء، وبلغت حضارتها ورقيُّها في العلوم والآداب غايةَ المجد زمن الخليفتين الناصر وابنه المستنصر، وزمن الحاجب المنصور بن أبي عامر المستبد بأمر الخلافة بعدهما.

ولما انتشرت الفتن في آخر دولة الأمويين انقسمت إلىٰ ممالك عدة مستقلة مدة تقرب من نصف قرن، ولم تكن حال حضارة العلم والأدب فيها أقلَّ منها زمن الدولة الأموية، ثم تقهقرت بعد أن صارت الأندلس ولاية تابعة لملوك البربر في مراكش من المرابطين والموحدين وانتعشت قليلًا زمن بني الأحمر، آخر دولة إسلامية بالأندلس.

# الشعر بالأندلس
# زمن الأمويين والطوائف

هاجر العرب في أواخر القرن الأول إلىٰ الأندلس ناقلين إليها معهم أخلاقهم وعاداتهم، وأدبهم وشعرهم، فاستخدموا الشعر في بعض ما كان يُستخدم فيه عصرَ بني أمية بالمشرق، من أنواع الحماسة والحضِّ علىٰ الجهاد **أولًا**، ثم الدعوة إلىٰ العصبية وإثارة الفتن **ثانيًا**، ثم لما قرَّ المُلْك في بيت عبد الرحمن، وخمدت الفتن هبَّ الشعراء يَنْحَوْن مناحي الأغراض التي فشت في الإسلام، وأصبح الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع إليهم، وشجعهم هؤلاء أمويهم وعلويهم وبربريهم ببذل العطاء لهم وتقريب مجالسهم منهم، واتخذوهم بطانة وندماء بل أعوانًا ووزراء؛ إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء النَّاس هناك، بل كانت حِلْية كلِّ متعلم، فقلَّما عجز عنه إنسان منهم، بل نظمه كثير من الأميين، ولم يأنف الخلفاء والأمراء والفقهاء والوزراء من نظمه وإذاعته عنهم في الناس، فأولع به كل الطبقات حتَّىٰ النساء، ونبغ فيه كثير من فضلياتهن وبارَيْن الرجال، ولا نكاد نسمع في الأندلس بفقيه أو نحوي أو متكلم أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ، إلا وجدناه شاعرًا بليغًا صاحبَ مطولات ومقطعات في أغراض شتىٰ.

وذلك لجمال بيئتهم، وطيب العيش في صُقْعهم، وميلهم الفطري إلىٰ الشعر؛ لأنَّ أكثرهم من عناصر عربية، وإذا لم يشتهر فيهم أمثال فحول الشرق مثل بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي، فما ذاك إلا لبعدهم من المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام في آدابها وعلومها.

## * أغراض الشعر:

ونظم شعراء هذا القطر الشعر في كل الأغراض التي كان ينظم فيها شعراء الدولة العباسية حتَّىٰ الخمريات والمجون، ولكنهم فاقوهم في أنواع الوصف، وخاصة مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة ونظم قواعد العلوم، ونقصوا عنهم في نظم الشعر الحكيم المشتمل علىٰ الحكم التي تسير سير الأمثال علىٰ مثال شعر أبي تمام والمتنبي.

وكان أسلوبهم في الشعر جاريًا علىٰ سَنَن العرب في الجزالة والسهولة؛ فلم يُحمِّلوا اللفظ أكثر ممَّا يطيق من المعاني المزدحمة كما يفعل أبو تمام والمتنبي.

وكان شعرهم في الغزل والخمريات والأوصاف غايةً في الرقَّة، وكان الخيال الشعري الجميل مادةَ معانيهم، وقد أَتَوْا في شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية، وزادوا علىٰ المشارقة في أوزان الشعر وقوافيه فنَّ الموشَّح، وهو يتركب من طوائف من أبيات أو شطور تتغير فيها القوافي.

ثم نظموا الموشح بالعامية فلُقِّبَ بلقب جديد هو (فن الزجل)، وشاع النوعان بعد ذلك في المشرق فحاكوا الأندلسيين فيهما، وبقيا إلىٰ وقتنا هذا.

وقد نبغ في الأندلس من لا يُحْصَون من الشعراء والشواعر، ومن أشهر مشهوريهم في عصر الأمويين وملوك الطوائف:

## * ابن هانئ:

أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسي الملقب بمتنبي الغرب، وهو أشعر شعراء الأندلس علىٰ الإطلاق، وكان يتكسب بالشعر ومنادمة الأمراء زمن الناصر والمستنصر، ثم اتُّهِم في شعره بالزَّنْدقة، ففرَّ إلىٰ المغرب واتَّصل بقُوَّاد المعز الفاطمي وعماله، فأَوْصلوه إليه فحظيَ عنده واتخذه شاعرَ دولته، إلا أنَّ منيَّته عاجلته فمات عند رحلته إلىٰ مصر بعد فتحها وانتقال المعز إليها سنة ٣٦٢ هجرية. وشعره جزل اللفظ، فخم العبارة علىٰ مثال شعر بشار ومسلم وأبي تمام، ويجيد فيه الاستعارة والتشبيه، ويطيل القصائد ويكثر من الغلو في المدح إلىٰ حدٍّ مَمْقوت[1].

---

(١) ومن قوله في المبالغة الممقوتة:

**مـا شـئـتَ لا مـا شـاءت الأقـدارُ … فـاحـكـم فـأنـت الـواحـد الـقـهـار**

**وقوله في المعز الفاطمي:**

**مَـلِـكٌ إذا نـطـقَـتْ عُـلاه بـمَـدْحِـه … خَـرس الـوفـود وأفـحـم الـخـطـبـاء**

**هـو عـلـة الـدنـيـا ومَـن خُـلـقَـتْ لـه … ولِـعـلَّـةٍ مـا كـانـت الأشـيـاء**

**ومن أفخم شعره قوله يصف جيش القائد جوهر عند خروجه لفتح مصر:**

**رأيـت بـعـيـنـي فـوق مـا كـنـتُ أسـمـع … وقـد راعـنـي يـومٌ مـن الـحـشـر أروع**

**غـداة كـأنَّ الأفـق سُـدَّ بـمـثـلـه … فعاد غروب الشمس من حيث تطلع**

**فـلـم أدْرِ إذ سـلـمـت كـيـف أشـيـع … ولـم أدر إذ شـيـعـت كـيـف أودع**

**وقوله في مطلع قصيدة:**

**فُـتِـقَـتْ لـكـم ريـحُ الـجـلاد بـعـنـبـرٍ … وأمـدَّكـم فـلـق الـصـبـاح الـمُـسْـفـر**

**وجـنـيـتـمُ ثَـمَـر الـوقـائـع يـانـعًـا … بـالـنَّـضـر من ورق الـحـديـد الأخـضـر**

**ومن شعره الرقيق الذي يتغنىٰ به:**

**فَـتَـكـات لَـحْـظـك أم سـيـوف أبـيـك … وكـئـوس خـمـر أم مـراشـف فـيـكِ**

**أجـلاد مـرهـفـة وفـتـك مـحـاجـر؟ … مـا أنـتِ راحـمـةٌ ولا أهـلـوكِ**

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٧٢، ١٧٩) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣١٣) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٧٦) وما بعدها.

## * ابن عبد ربه:

أحمد بن عبد ربه، صاحب العقد الفريد من شعراء الناصر، كان من أرق شعراء الأندلس لفظًا، وأعذبهم أسلوبًا، وكان شعره يعجب المتنبي ويطرب له وتوفي سنة ٣٢٨[١].

## * ابن خفاجة:

وابن خفاجة؛ كان في زمن ملوك الطوائف وهو من أشهر وصَّافي الطبيعة. توفي سنة ٥٣٣هـ. وتكثر في كلماته الاستعارات وتزاحم المعاني، وقلما تكسَّب بالشعر[٢].

---

(١) ومن رقيق شعره:

أيـهـا الـبـدر الـذي ضـ ... ـن عـلـيـنـا بـالـطـلـوع

أبـغ لـي عـنـدك قـلـبًـا ... طـار مـن بـيـن ضـلـوعـي

يـا بـديـع الـحـسـن كـم لـي ... فـيـك مـن وجـه بـديـع

[م]. وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٧٦، ١٨١) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٠٧-٣٠٩).

(٢) ومن شعره:

سـقـيـا لـهـا مـن بـطـاح أُنْـسٍ ... ودَوْح حُـسْـنٍ بـهـا مُـطـلِّ

فـمـا تـرىٰ غـيـر وجـه شـمـس ... أَطَـلَّ فـيـه عِـذارُ ظـلّ

وقوله:

لـلـه نـهـرٌ سـال فـي بـطـحـاء ... أشـهـىٰ ورودًا مـن لِـمَـىٰ الـحـسـنـاء

مـتـعـطِّـفٌ مـثـل الـسـوار كـأنَّـه ... والـزهـر يـكْـنُـفُـهُ مـجـرُّ سـمـاء

وغَـدَتْ تَـحُـفُّ بـه الـغـصـونُ كـأنَّـهـا ... هُـدبٌ يـحـف بـمُـقْـلَـةٍ زرقـاء

والـريـح تـعـبـث بـالـغـصـون وقـد جـرىٰ ... ذهـب الأصـيـل عـلـىٰ لُـجَـيْـن الـمـاء

[م]. وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٨٢، ١٨٤) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٢٥-٣٢٧).

# النَّثر الفنِّي في الأندلس
# أو كتابة الإنشاء والترسُّل

كانت مناصب الكتابة عصر الولاة وصدرًا من عصر بني أمية مثلما كانت عليه في المشرق؛ فيتولَّاها الأمير مُمْليًا كاتبه، أو الكاتب بإرشاد الأمير، وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سُمي بالحاجب، وهو أشرف الألقاب في الدولة، وكان اسم الوزارة يطلق علىٰ كل من يجالس الملوك ويختص بهم، ثم صار الوزير الذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة يُلقَّب بذي الوزارتين، ويكون غالبًا من أهل الأدب، وكذلك كانت أحوال الكتابة من جزالة اللفظ، وفخامة المعنىٰ، وخلوها من السجع إلا في النادر[١].

ثم حاكوا المشارقة في نظام الدواوين ورسوم المكاتبات؛ من تمييز أقسامها، وتنويع صور بدئها وختمها، وتسجيع عباراتها، محاكين طريقة حلبة ابن العميد، من التزام السجع القصير الفِقار غالبًا، ومن الاعتماد في استمداد

---

(١) أمثلة من هذا النوع من الكتابة: فمن ذلك ما كتب به المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط إلىٰ أبيه يستعطفه، وكان قد نفاه إلىٰ مكان موحش لسوء خلقه "إني قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد، وعدِمت فيه من آنس إليه، وأصبحت مسلوب العز فقير الأمر والنهي، فإن كان ذلك لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم أعلمه، فإني صابر علىٰ تأديبه، ضارع إليه في عفوه وصفحه.

**وإنَّ أميرَ المؤمنين وفعلَه ... لكالدهر لا عار بما فعل الدهر**

[م].

المعاني علىٰ الخيال[1]، ومن حلِّ المنظوم والاقتباس من القرآن والحديث، وتضمين الأمثال، والإشارة إلىٰ حوادث التاريخ المشهورة، وكتبوا في أكثر الأغراض التي طَرَقها كُتَّاب المشرق، ولكن بلاغتهم لم تَنْحَطّ كثيرًا في آخر أمرهم كما انحطَّتْ البلاغة في مصر والشام في العصور التركية؛ لقلَّة طروء العناصر الأعجمية عليهم، وقِصَر مُدَّة مَن طرأ منهم، علىٰ عكس المشارقة، ولتأصُّل عادة الاشتغال بالعلم والأدب فيهم.

## * ابن شُهَيْد:

ومن أشهر كُتَّابهم الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيْد حفيد سَمِيِّهِ أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذي الوزارتين، وهو من أبلغ كُتَّاب الأندلس، وله في الوصف والمداعبات رسائل بديعة وتوفي سنة ٤٢٦ بقُرْطُبة.

## * ابن زَيْدون:

وذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن زيدون وزير آل جهور بقرطبة ثم آل عباد بإشبيلية وكان شاعرًا رقيقًا كاتبًا بليغًا، ويُشتهر برسالتين: هزليَّة وجِديَّة. وتوفي سنة ٤٦٣[2].

---

(١) من ذلك ما كتبه ابن خفاجة من رسالة له في وصف متنزه (فترددنا بتلك الأباطح نتهادىٰ تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشىٰ، علىٰ بساط وشىٰ، فإذا مر بغدير نسجه درعا، وأحكمه صنعا، وإن عثر بجدول شطب منه نصلا، وأخلصه صقلا) [م].

(٢) للمزيد من الاطلاع علىٰ أدبيات ابن زيدون. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٨٨، ٥٧٧، ١٨١) ط، عالم الأدب وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣١٦-٣٢٠) والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢١٦-٢١٨).

### * الفتح بن خاقان:

والفتح بن خاقان صاحب قلائد العِقْيان أحد البلغاء الأدباء المؤرخين في عصر ملوك الطوائف والمرابطين[1].

(١) للمزيد من الاطلاع علىٰ نموذج من كتاباته. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٥٩٠) ط، عالم الأدب.

# التدوين والتصنيف
# أو الثقافة العلمية والأدبية في الأندلس

كان مبدأ تدوين العلوم بالمشرق أواخر عصر بني أمية وصَدْر بني العباس، ولم يكن المغرب والأندلس وقتئذٍ في حالٍ من العافية والسِّلْم تُمكِّنهما من مجاراته، فلمَّا وطَّد عبد الرحمن أركان ملكه بالأندلس، ومهَّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها، هبُّوا يرحلون إلىٰ المشرق لأداء فريضة الحج والاقتباس من نور العلم، ولم تزل رحلاتهم إليه برًّا وبحرًا متتالية حتَّىٰ نقلوا إلىٰ بلادهم أكثر ما صُنِّف في علوم اللسان والدين؛ لأنَّهم كانوا أشدَّ أهل الأرض حبًّا للعلم وتفانيًا في تحصيله وتوقيرًا لأهله، وساعدهم علىٰ ذلك أمراء بني أمية وخلفاؤهم فبذلوا الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء والمصنفين، وأحلوهم عندهم في المنزلة الرفيعة، وسمعوا لقولهم وخضعوا لأمرهم ونهيهم، وأخصَّهم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحَكَم المستنصر، وقد جمع الحكم هذا في خزانة كتبه بقصر قرطبة مئات الألوف من الكتب.

وكذلك كان أكثر خلفاء بني أمية وأعيان قرطبة، ولم ينقضِ القرن الرابع حتَّىٰ زخرت بحور العلم، ونبغ ألوف العلماء، وصُنِّفَتْ ألوفٌ من الكتب الجليلة في ديار الأندلس، وحتىٰ كادت تُضارع المشرق بل فَضَلَتْه في بعض العلوم، ولم يقصر ملوك الطوائف في هذا المضمار، فآزروا العلم وقربوا العلماء، وكان من ملوكهم الأدباء والمؤلفون والمؤرخون.

وفي عصر المرابطين ركدت ريح العلم قليلا، واضطُّهد بعض أصحاب الآراء والنحل المذهبية في الفقه والكلام، إلا أن الموحدين ترخصوا في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها، فنبغ فيها أفاضل من الحكماء والأطباء الكيميائيين مثل ابن رشد والباجي وابن زُهْر.

ثم ضعفت النهضة العلمية واستمرت الحال كذلك مدة يتخللها بعض فسحات انتعاش، حتَّىٰ أباد الإسبان المسلمين من الأندلس وأحرقوا كتبهم ومحوا آثارهم.

وما سلم من كتبهم إلا ما كان قد نقل قبل الجلاء منها أو جهل العدو مكانه.

# حال اللغة العربية في العصر التركي

# عصر المماليك من سنة (٦٥٦-٩٢٣هـ)

## * سقوط بغداد:

نشعر عند الكلام في تاريخ الأدب العربي في هذا العصر بكثير من الحزن والألم، لما أصاب العرب في خلافتهم ووحدتهم ولغتهم، فقد كان زوال الخلافة سنة ٦٥٦ هـ نهاية لتاريخ مجيد حافل بالآداب والفنون، وخاتمة لمدنية مزدهرة كانت في القرون الوسطىٰ مصدر هداية ونور للأمم العربية وغير العربية.

ففي سنة ٦١٦ هـ زحف جنكيز خان بجيشه متجهًا إلىٰ الغرب فاكتسح خراسان وفارس، وأعمل السيف في أهل كل بلد نزل به، لا تأخذه رحمة ولا يعطف قلبه لين، حتَّىٰ إذا غادر مملكة تركها قفرًا يبابًا.

وفي سنة ٦٥٤ هـ عبر حفيده هولاكو نهر جيحون زاحفًا علىٰ بغداد، فملك قلعة (الموت) من الإسماعيلية وذبح من فيها من الجنود.

وفي سنة ٦٥٥ هـ حدث في بغداد خلاف عنيف بين أهل السنة والشيعة، أدَّىٰ إلىٰ ما يُشبه أن يكون حربًا داخلية قتل فيها عدد من الشيعة، وقد أثار ذلك غضب الوزير ابن العلقمي، ودفعه إلىٰ تشجيع التتار علىٰ غزو العراق والاستيلاء علىٰ بغداد، فملكوها سنة ٦٥٦ هـ، وقتلوا الخليفة

المستعصم بالله، وأعملوا السيف في أهلها أربعة وثلاثين يومًا، فلم ينجُ من حدِّه إلا القليل، وكان بين مَن قُتل عددٌ جَمٌّ من العلماء ورجال الأدب.

# انحياز الآداب العربية
# إلى مصر (القاهرة)

## * مصير الممالك العربية:

بدخول المغول بغداد دالت دولة العرب، ولم يبقَ لهم من صور الملك غير دويلات كان ملوكها أشبه بالولاة منهم بالحكام المستقلين، فقد أسَّس المغول ثم الفرس دولا إسلامية، وكانت مصر والشام في حكم المماليك حتَّىٰ سنة ٩٢٣ هـ، ثم صارتا إلىٰ العثمانيين، ولم يبقَ في يد العرب غير غرناطة التي وقعت في يد الإسبانيين سنة ٨٩٧ هـ، أما اليمن وبعض بلاد البربر؛ فقد استولىٰ عليها العثمانيون في أواخر القرن العاشر الهجري.

## * العلماء بعد سقوط بغداد:

في هذه الزعازع والأعاصير التي أصابت بغداد وما يجاورها، وفي وسط هذا الاضطراب العنيف الذي أثاره العزو والإرهاب والحكم الجاهل، وقف العلماء ورجال الأدب وقفة الحائر يتطلعون إلىٰ بغداد التي كانت مَثابة لهم، فوجدوا السيف مُصْلَتًا، والتدمير يعصف بكل شيء من آثار العربية التي كانت مفخرة الشعوب جميعِها، ورأوا أنَّ علمهم وأدبهم يُقذف به قذفًا في

نهر دجلة، فاتجهوا إلىٰ مكان ينشئون فيه دولة عربية للعلم والأدب، فلم يجدوا غير مصر والشام.

### * المماليك:

كانت مصر والشام في حكم المماليك كما أسفلنا وهم قوم أشداء فيهم ميل شديد إلىٰ الحروب والفتك والفروسيَّة، وقليل من المماليك البحْرية من كان يميل إلىٰ الترف، أو تهفو نفسه إلىٰ العبث واللهو، وكان لكثير منهم تمسك بالدين، يفهمونه بقدر ما تصوِّره لهم فِطْرتهم، وتلوِّنه بيئتهم ونشأتهم، وإن شئت فقُل إنَّهم كانوا يمزجون الدين بالسياسة، فقد يكون الدين مرة ذريعة لجذب قلوب الأمم إليهم، وأكبر مظهر لذلك بناء الجوامع والمدارس والبيمارستانات والملاجئ، وحبس المال الوفير علىٰ نواحي الخير، وتقريب العلماء وتشجيعهم علىٰ نشر العلم بالدرس والتأليف، وقد يكون الدين آنًا وسيلة لشفاء ما طُبعت عليه نفوسهم من الميل إلىٰ إذكاء نار الحروب، كوقائعهم مع الصليبيين والمغول، ألم يروا إنَّهم أصبحوا حُماة الخلافة الإسلامية وأنهم صاروا مَلْجأ الأمم العربية المهزومة؟ ألم يصُن الظاهر بيبرس خلافة بني العباس ويتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسي الذي فرَّ من وجه التتار إلىٰ مصر؟

### * هجرة العلماء إلىٰ القاهرة:

نزل العلماء والأدباء القاهرة التي أخذت مكان بغداد، وبها حينئذ عدد كبير من المدارس ومجالس العلم، فوجدوا فيها حرمًا آمنًا، ولاقوا من عَطْف المماليك ما حبَّب إليهم البقاء، فانبسطت نفوسهم، واطمأنَّ بهم المُقام، وأخذوا يكتبون ويؤلفون وينثرون وينظمون.

وقد هاجر إلىٰ القاهرة في غضون هذا العهد عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدباءها فارِّين من وجوه الإسبان، الذين تغلبوا علىٰ العرب في استرداد بلادهم.

ولو سلِمَتْ مصر والشام في هذا العصر من بعض نوبات الظلم، والأمراض والطواعين، وسكنت فيها العواصف والثورات والحروب التي تكاد تسمع صليل سيوفها كلما قلَّبْتَ كتابًا في تاريخ هذا العصر؛ لَتَغَيَّرَ وجهُ الأدب، ولَكان للغة وآدابها شأنٌ آخر، فإنَّ الفنون لا تنمو ولا تزدهر إلا في جو مِلْؤُه السكينة والسكون، كالطائر الغَرِد يَصْدَح بين حفيف السِّهام.

## * موازنة بين هجرتين:

واتجاه أهل العلم والأدب إلىٰ القاهرة يشبه من بعض نواحيه هجرة علماء اليونان إلىٰ إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧ هجرية، فإنَّهم أحيوا نهضة العلوم، وبعثوا في أوربا جميعها حياةً علميةً جديدةً بدراسة اليونانية وترجمة آثار فلاسفتها، وقد غيَّرت هجرتهم هذه كثيرًا من وجوه الحياة الأوربية، ودفعت النَّاس إلىٰ التخلُّص من أوزار القرون الوسطىٰ، والتفكير في إصلاح معيشتهم وطرائق علومهم ومذاهب دينهم.

لم تترك هجرة العلماء إلىٰ القاهرة كلَّ هذا الأثر العظيم، فإنَّها وإن بعثت في العلم والأدب حياة في الديار المصرية والشام؛ لم تمتد آثارها إلىٰ غيرهما من بلاد المشرق، ولم تغير وجوه الحياة الاجتماعية؛ لأنَّها كانت دينية أدبية علمية ليس غير، حتَّىٰ إنَّ مقدمة ابن خلدون (نزيل مصر أيام السلطان برقوق) التي أودعها كثيرًا من الآراء الاجتماعية وسياسة الممالك ووسائل إنهاض الشعوب وإصلاح طرائق التعليم، لم تنفُذ إلىٰ

نَفْسِ غيره من علماء عصره، ولم يظهر لها أثر في الحياة المصرية؛ ذلك لأنَّ العلماء كانوا جامدين متمسكين بالقديم، ولأنَّهم لم يرزقوا حظًّا من الشجاعة يحفزهم إلىٰ زعامة الأمة والدعوة إلىٰ الإصلاح، ولأنَّ الشعب كان جاهلًا خائرًا لا يشعر بعزة ولا بقوة.

# مظاهر الأدب في هذا العصر
# النثر الفني

## * أسباب ضعف النثر:

إذا نظرنا إلىٰ مظاهر الأدب رأينا أنَّ النثر الفني كان ضعيفًا، لِشَغَف الكُتَّاب بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية، وانصرافهم عن العناية بالمعاني والأفكار واختيار الأساليب الملائمة لها.

وإذا قرأت رسالة لكاتب في هذا العصر، رأيت أنَّها -في الكثير الغالب- لا تشتمل علىٰ معنىٰ باهر، أو فكر بعيد المدىٰ؛ لأنَّ صاحبها كان يفكر في الألفاظ المزخرفة أولًا، ليؤلِّف منها المعاني ثانيًا، وفي هذا مناهضة لأصل الفطرة، لذلك جاء الكلام متكلَّفا خائرًا.

وهذا الضعف لم يكن جديدًا في هذا العصر، بل إنَّه حادث قبل سقوط الدولة العباسية بزمن غير يسير، غير أنَّ الكُتَّاب هنا نَحَوْا مَنْحىٰ القاضي الفاضل في طريقته، وهي التزام السجع والتورية، وغلَوْا في ذلك غُلُوًا يأباه الذَّوْق، وينكره الطبع السليم.

# أشهر الكتاب

## * وأشهر كتاب الرسائل في هذا العصر:

(١) القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٩٢ وهو كاتب السر للملك الأشرف خليل، وكان كاتبًا شاعرًا.

**ومن إنشائه ما كتبه عن لسان الأشرف خليل إلىٰ صاحب اليمن بالبشرىٰ بفتح طرابُلس:**

- «أعزَّ الله تعالىٰ نصرة المَقام، وأوْفد عليه كلَّ بُشرىٰ أحسنَ من أختها، وكلَّ تهنئة لا يجلِّيها إلا هو لوقتها[1]، وكلَّ مبهجة يعجز البنان والبيان عن ثبتها ونعتها[2]، وتتبلَّج فَتَوَدُّ الدُّرَرُ والدَّراري لو رَقِيت إلىٰ تراقيها وسَمَتْ إلىٰ سَمْتها[3]، وصَحِبه منها بكل هاتفةٍ

(١) أي لا يظهرها في وقتها إلا هو [م].

(٢) البنان أطراف الأصابع والمعنىٰ أن القلم واللسان يعجزان عن إثبات أخباره السارة ووصفها [م].

(٣) تتبلج تضئ، والدرر اللآلئ والدراري النجوم، والتراقي جمع ترقوة وهىٰ العظم في أعلىٰ الصدر وعليها تكون القلائد والعقود، والسمت هنا الارتفاع والمعنىٰ أن موجبات السرور تضيء فتتمنىٰ اللآلئ لو ارتفعت إلىٰ نحرها لتكون عقودا وتود النجوم لو وصلت في الرفعة إلىٰ ما وصلت إليه [م].

أسجع من هواتف الحمائم[١]، وبكل عارفةٍ أسرعَ من عوارف الزهر عند عزائم النَّسائم[٢]»[٣].

(٢) شهاب الدين محمود الحلبي توفي سنة ٧١٩ وهو كاتب سر الملك الناصر، ومن نماذج إنشائه ما كتبه في وصف موقِعة:

«أصدرناها والسيوف قد أنِفَت من الغمود، ونفرت من قُرُبها[٤] والأسِنَّة قد ظمئت إلىٰ موارد القلوب، وتشوَّقت إلىٰ الارتواء من قُلُبِها[٥]، والسيوف قد أضرمت الحُمِيَّةُ للدين نارَ غضبِها[٦]، وعداها حرُّ الإشفاق علىٰ ثغور المسلمين عمَّا عَرَفَتْ من بَرْد الثُّغور وطِيب شَنَبِها»[٧].

(٣) شهاب الدين بن فضل الله العُمَري، ولد بدمشق سنة ٧٠٠ وتوفي سنة ٧٥٥ وهو كاتب السر للملك الصالح من آل قلاوون[٨].

---

(١) أي ولازمه من موجبات السرور كل مغردة ألذ نغما من الحمائم المغردة [م].

(٢) العارفة المعروف والمكرمة وعوارف الزهر هنا روائحه الطيبة [م].

(٣) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته وآثاره. انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٩٦-٢٩٧).

(٤) الضمير في أصدرناها يعود علىٰ الجيوش والقرب جمع قراب وهو غمد السيف وجفنه يعنىٰ حاربنا بعد مدة طويلة لم نحارب فيها، [م]

(٥) القلب جمع قليب وهو البئر. [م]

(٦) الأنفة الغيرة. [م]

(٧) الثغور الأولىٰ مواضع المخافة عند حدود البلدان، والثغور الثانية جمع ثغر وهو الفم هنا، والشنب رقة الأسنان وعذوبتها، يقول إن شدة الخوف علىٰ ثغور المسلمين صرفت رجال هذه الجيوش عن الميل إلىٰ النعيم والتمتع ببرد الأفواه وعذوبتها [م].

(٨) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته وآثاره. انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٢٩٧-٢٩٨).

# الشعر

## أسباب ضعف الشعر

وقد بدت علىٰ الشعر أيضًا آثارُ التقهقر؛ لأنَّه لم يرسل مع الطبع والسليقة كما كان في العصر العباسي الأول، ويظهر أنَّ لضعف الملكة الشعرية والخيال والابتكار والتوليد شأنًا كبيرًا في هذا، فلمَّا أحسَّ الشعراء هذا الضعف لجئوا إلىٰ العناية بالألفاظ، وبذلوا جُهْدَ استطاعتهم في أن تكون براقة أنيقة، ونحن لا ننكر أنَّ في هذا شيئًا من البراعة ولكن يجب أن يكون وراء هذه البراعة شيء من حكمة المتنبي، أو فلسفة المعري، أو رقة البحتري، وإلا كانت قولًا هُراءً.

وكان الشعر علىٰ الرغم ممَّا أصابه أرقىٰ من النثر كثيرًا؛ لأنَّ تقييده بالوزن والقافية لم يجعل فيه مُتَّسعًا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها.

وجَهْلُ أكثر السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية لم يشجع الشعراء، ولم يدفعهم إلىٰ الإجادة، فلم يكن للملوك في هذا العصر شعراء أثيرون عندهم، إلا في (حماة) حيث بقيت هذه العادة رَدْحا من الزمن، لهذا لم يكن الشعر صناعة وإنَّما كان حلية الأديب يدفع إليه الميل إلىٰ إظهار البراعة وتدوين الحوادث.

ومن العجيب أنَّ معظم العلماء والفقهاء والكتاب كانوا يتصدون لقول الشعر من غير هيبة أو خشية. وهذا أكبر دليل علىٰ انحطاط الشعر، وما وصل إليه من سوء المصير، ومن أمثال ذلك قول بعضهم في السلطان برقوق:

**سلطان مصر دام فضل عَلائه قد عمَّنا بالفضل والإحسان**
**لم أنسَ يوم السبت حُسْنَ مُهِمِّه قد كان يوما جاء بالسلطان**

وقد زاحم الزجلُ العامي الشعرَ الفصيح في هذه الأيام ومالت إليه آذان الملوك لقصور الأفهام عن إدراك العربية الصحيحة خصوصًا من عهد آل قلاوون(١).

ولكننا مع كل هذا نجد بين شعراء هذا العصر فريقًا تتجلىٰ في شعره الرقة وحسن الصياغة.

*** ومن أشهر هؤلاء:**

(١) صفي الدين الحِلِّي، وشعره متفاوت في الجودة، فهو مرة يسمو إلىٰ ما فوق أفق عصره، ومرة ينزل ويضعُف، ولُد سنة ٦٧٧ وتُوُفِيّ سَنة ٧٥٠، وكان شاعر الدولة الأرْتَقِيَّة في (ماردين) ورحل إلىٰ القاهرة زمن السلطان الناصر سنة ٧٢٦ ومدحه بقصيدة تعدُّ من جيِّد شعره منها:

**تُرْجَىٰ مواهبه ويرُهَبُ بطْشُهُ مثلَ الزمانِ مُسالِمًا ومُحارِبًا**
**فإذا سَطَا ملأ القلوبَ مَهَابة وإذا سَخَا ملأ الزَّمانَ مواهبا**
**كالغَيْثِ يبعث من عطاه وَابلا سَبْطًا ويُرسِلُ من سُطَاه حاصبا(٢)**

---

(١) كقول بعض الزجالة يرثي فيل الملك الناصر وقد انخسفت به قنطرة علىٰ الخليج الناصري. [م]

**تعا اسمعوا بالله يا ناس اللي جره الفيل وقع يوم الإثنين في القنطرة**
**لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الجزاف خدوه وراحوا صوب بولاق يجبوا المطاف**
**رأوا شويخ من أهل الله ما فيه خلاف جو ياخدوا شاشو منه بالزنطرة**

دعا علىٰ الفيل اتقنطر في القنطرة [م].

(٢) العطا النوال والعطية، والوابل المطر الكثير ويقال فلان سبط اليدين أي سخي والسطا جمع سطوة والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصىٰ. [م]

وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦١٥، ١٩٦) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٣١٣) وتاريخ الأدب العربي للزيات (٣٩٠-٣٩١).

(٢) جمال الدين بن نباتة المصري، وهو حامل لواء الشعر في عصره، تظهر في شعره المصرية الصادقة من حيث الرقة والسهولة وحسن إيراد النكتة المستملحة، وُلِد بمصر سنة ٦٨٦ وتُوُفِي بها سنة ٧٦٨ ومن محاسن تورياته:

بروحي جيرة أبقوا دموعي وقد رحلوا بقلبي واصطباري
كأنَّا للمجاورة اقتسمنا فقلبي جارهم والدمع جاري(١)

(٣) الشاب الظريف واسمه محمد بن سليمان ولِد بمصر سنة ٦٦١ ومات سنة ٦٨٨، ويشتهر شعره بالرقة وحسن الانسجام كقوله:

بحق هذي الأعين الساحرة وحسن هذي الوَجنة الزاهره
خَفْ في الهوىٰ إثمي يا قاتلي فاليوم دنيا وغدا آخره
قلبي مصر لك ما باله قد ذاب من أخلاقك القاهره(٢)

(٤) شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وتوفي سنة ٦٧٥ ومن شعره:

وإذا الثَّنِيَّةُ أشْرَقَتْ وشَمِمْتَ مِنْ أرجائها أَرَجًا كَنَشْرِ عَبير(٣)
سَلْ هَضْبها المنصوبَ أين حديثُه المرفوع عن ذَيْل الصِّبا المجرور(٤)

---

(١) يعني أن أحبابه رحلوا وأخذوا قلبه معهم وتركوا له الحزن والدموع فكأنه هو وأحبابه اقتسموا القلب والدموع فأخذوا قلبه ليكون جارا لهم وتركوا له الدمع، والتورية ظاهرة في قوله «والدمع جاري» فإنه قد يكون من الجريان وقد يكون من الجوار. [م]
وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦١٩، ١٩٨) ط، عالم الأدب والوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٣١٥).

(٢) يعنىٰ أن قلبي مقر لك فلماذا يذوب من أخلاقك الشديدة القاهرة وفي الإتيان بكلمة القاهرة بعد كلمة مصر جمال بديعي. [م]
وللمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٠٨، ١٩٥) ط، عالم الأدب.

(٣) الثنية الجبل أشرقت بمعنىٰ ظهرت والأرجاء جمع رجا وهو الناحية والأرج ريح الطيب والنشر الرائحة الطيبة والعبير خليط من أنواع الطيب. [م]

(٤) الهضبة الجبل والصبا ريح تهب من الشرق وفي الجمع بين المنصوب والمرفوع والمجرور جمال بديعي. [م]
=

(٥) محمد بن سعيد الصنهاجي الشهير بالبوصيري، توفي سنة٦٩٥ واشتهر بمدائحه النبوية، وهي البردة والهمزية، وهما من جيد شعره ورصينه، أمَّا بقية شعره؛ فليست بذاك[١] وأول الهمزية هو:

كيف تَرْقَىٰ رُقَيَّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاولَتْها سماءُ
لم يُدانوك في عُلاك وقد ... حال سَنًا منك دونهم وسَنَاءُ[٢]
إنَّما مَثَّلوا صفاتك للنَّاس ... كما مَثَّل النجومَ الماءُ[٣]
أنت مصباح كل ضوء فما ... تَصْدُر إلا عن ضوئك الأضواء

= يقول إن الأنبياء كانت صفاتهم تمثل صفاتك كما يمثل الماء النجوم حين تنعكس أضواؤها فوقه. [م]

(١) لمزيد من الاطلاع علىٰ سيرته وآثاره. انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه (٣١٠-٣١٢).

(٢) السنا النور والسناء الرائعة. [م]

(٣) يقول أن الأنبياء كانت صفاتهم تمثل صفاتك بمثل الماء النجوم حين تنعكس أضواؤها فوقه. [م]

# التأليف والمؤلفون
## أسباب نهوض التأليف

وأعظم مظهر من مظاهر نهوض اللغة وآدابها في هذا العصر كثرة ما أُلِّفَ فيه من كتب في مختلف الفنون والعلوم، ولعلَّ من أسباب ذلك كثرة المدارس، وازدحام القاهرة، وقُوص، والإسكندرية وغيرها بالطلاب وما كان يميل إليه بعض سلاطين المماليك من اقتناء الكتب النادرة، وإنشاء الخزانات الخاصة الجامعة لأنواع شتَّىٰ من المؤلفات، حتَّىٰ إنَّ بعض الكتب كان يؤلَّف خاصة باسم السلطان ليُوضع في خزانته.

وأول ما يظهر لك في هذه الكتب؛ اختفاءُ الابتكار، وأنَّها -إذا استثنينا بعضها كمقدمة ابن خلدون وخطط المقريزي وتاريخ ابن خلكان- ليست إلا جَمعًا من أشتات الكتب وتقليدًا لا أثر للاجتهاد فيه.

**وأشهر مؤلفي هذا العصر.**

### (أ) في علوم اللغة:

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، ولد سنة ٦٠٠ وتعلم بدمشق وكان إمامًا من أئمَّة النحو واللغة وأشهر ما اشتهر به (تسهيل الفوائد) في النحو، والألفية والكافية ولاميَّة الأفعال. والثلاثة الأخيرة منظومات مطوَّلة في النحو والصرف، توفي سنة ٦٧٢.

(٢) جمال الدين بن مُكَرَّم المصري، ويعرف بابن منظور وله مؤلفات عدة أشهرها (لسان العرب) وهو معجم لغوي في عشرين جزءًا، مرتَّب علىٰ حسب أواخر الكَلِم، ويعد دائرة معارف في اللغة والأدب والتفسير، توفي سنة ٧١١.

(٣) جمال الدين الشهير بابن هشام المصري، وهو من كبار علماء العربية، وأشهر كتبه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) وهو دراسة واسعة في النحو ومعاني الحروف تدل علىٰ نبوغ وعبقرية، توفي سنة ٧٦١.

(٤) جلال الدين السيوطي، وهو أكثر علماء هذا العصر آثارا ولد سنة ٨٤٩، ونبغ في علوم شتىٰ، وأشهر كتبه (الْمُزْهِر) وهو كتاب يتضمَّن مباحث مستفيضة في فلسفة اللغة، وكتاب (الأشباه والنظائر) في النحو توفي سنة ٩١١.

## (ب) التاريخ:

**وأشهر مَن ألَّف فيه:**

(١) شمس الدين أحمد بن خلكان، ولد سنة ٦٠٨ في إرْبِل، وكان قاضيا مدرسًا، وقد اشتهر بكتابه وَفَيَات الأعيان وهو مُعْجَم تاريخي يدل علىٰ ابتكار وتحقيق وضبط وروية، وَيُعَدُّ مرجعًا في التاريخ واللغة والأدب توفي سنة ٦٨١.

(٢) ابن خلدون، ولد في تونس سنة ٧٣٢، وتنقَّل بين المغرب والأندلس كاتبًا ومُشيرًا لأمرائهما، ثم رحل إلىٰ مصر واتصل ببرقوق، فولاة قضاء المالكية، ومات بها سنة ٨٠٨.

وأعظم ما اشتهر به مقدمةُ تاريخه التي تُعَدّ مَفْخَرةً في عالم التأليف العربي، لأنَّها أول بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ، وقد بحث فيها في أحوال العمران وأسبابه وفي منشأ الدول وأسباب رقيِّها وانحطاطها، ثم في آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة وما يعتريها من

تقدُّم أو تدهور، ثم في العلوم وأنواعها، والكتب ومعايبها، وطرائق التعليم وكيف تكون، كل ذلك في أسلوب سهل شائق، واستنباط منطقي صحيح.

(٣) تقي الدين المقريزي ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦، واشتهر بسعة اطلاعه في التاريخ، وألَّف فيه مؤلفاتٍ كثيرة، أشهرها المواعظ والاعتبار بذكر الخِطَط والآثار، وقد جعل فيه وصف الخطط والمباني والبلاد المصرية ذريعة إلىٰ الإفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالىٰ عليها من حوادث، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل علىٰ تفكير بعيد المَدَىٰ، وهذا الكتاب هو عماد الباحثين في الأحوال السياسية والاجتماعية لذلك العصر في مصر توفي سنة ٨٤٥.

## (ج) الكتب الجامعة:

**ومن أشهر مؤلفيها:**

(١) شهاب الدين النُّوَيْري، كان من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأشهر كتبه (نهاية الأرب في فنون الأدب)، وهو كتاب ضخم يقع في أكثر من ثلاثين مجلدًا، به مباحث واسعة في الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي والتاريخ واللغة والأدب، توفي سنة ٧٣٢.

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العُمَري، ولد بدمَشْق سنة ٧٠٠ وكان إمامًا في الأدب والتاريخ والإنشاء، وأشهر كتبه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وهو كتابٌ واسعُ المباحث في الأدب والتاريخ وتقويم البُلدان والتاريخ الطبيعي، توفي سنة ٧٥٥.

(٣) شهاب الدين أحمد القَلَقْشَنْدِي المصري، تولَّىٰ كتابة الإنشاء سنة ٧٩١ ونبغ فيها، وأشهر كتبه (صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء).

**وهو كتاب واسع في صناعة الإنشاء وتقويم البلدان، توفي سنة ٨٢١.**

# الدرس والمدارس

جاء في خطط المقريزي «أنَّ أول ما عُلِم من إقامة درس من قِبَل السلطان بمعلوم جار (بأجر) لطائفة من النَّاس بديار مصر في خلافة العزيز بالله بن المعز الفاطمي، فعمل ذلك في الأزهر، ثم عمل في دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء، ثم أيضًا مجلس في جامع عمرو بن العاص، ثم بني الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة، وعند زوال الفاطميين علىٰ يد السلطان صلاح الدين، أبطل مذاهب الشيعة وأقام بها مذهب الشافعي ومالك، وبنىٰ لكل طائفة مدرسة، وتوالىٰ بعد ذلك بناء المدارس»[1].

## *كثرة المدارس:

وربما كان من أكبر مميزات هذا العصر، كثرة المدارس والمدرسين والطلاب، ولم يكن يُدَّخَر جهدٌ أو مالٌ في إنشاء هذه المدارس فخمةً ضخمةً بديعةَ الصنعُ رائعةَ النقوش والزخرف، تشهد للصانع المصري بالنبوغ والسبق في فن العمارة وهندسة البناء، وقد تنافس الملوك والأمراء والأميرات وسَرَاة مصر والشام في إنشاء هذه المدارس، يتخذونها وسيلة للتقرب إلىٰ الله ونشر علوم الدين أولًا، ثم علوم العربية وبعض العلوم الفلسفية.

(١) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٩٩) وما بعدها.

وكان كثيرون من الطلبة من آفاق الإسلام يختلفون إلىٰ هذه المدارس، وتجري عليهم النفقات ممَّا يُرْصَد عليها من خيرات، وكان لكثير منهم غرف يسكنونها، وكان بكثير منها خزانات تجمع عدد كبيرًا من الكتب في مختلف العلوم.

### * أشهر المدارس:

وأشهر هذه المدارس المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، كان بها خزانة بها نحو مائة ألف مجلد.

(١) المدرسة الصاحبية البهائية أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ بالقرب من الجامع العتيق، وكانت من أجلِّ مدارس الدنيا.

(٢) المدرسة الظاهرية بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ بين القصرين، وكان بها خزانة كتب تشتمل علىٰ أمهات العلوم، وعند تمامها اجتمع بها أهل العلم، وحضر القرَّاء وجلس أهل الدروس، كل طائفة في إيوان منها، وقرَّروا كلُّهم الدروس وتناظروا في علومهم، ثم مُدَّت الأسمطة فأكلوا، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد.

**إلا هكذا يَبنِي المدارس من بَنَىٰ ... ومن يَتَغَالَىٰ في الثوابِ وفي الثنا**

**لقد ظهرتْ للظاهر الملك همَّةٌ ... بها اليومَ في الدَّارين قد بَلَغَ المنىٰ**

**تجمَّع فيها كلُّ حُسْنٍ مُفرَّقٍ ... فَراقَتْ قُلوبًا للأنام وأعْيُنَا[1]**

**ومُذْ جَاوَرَتْ قبرَ الشهيد فنفْسُهُ النـ ... ـفيسةُ مِنْها في سرورٍ وفي هَنَا**

**وما هي إلا جَنَّةُ الخلد أُزلِفَتْ ... لَهُ في غَدٍ فاختارَ تعجيلها هُنا**

(١) الضمير في فيها يعود علىٰ المدرسة المفهومة من السياق [م]

## * أشهر المدرسين:

وأشهر المدرسين في هذا العصر، أبو محمد الشاطبي[1]. وأثير الدين أبو حيان النحوي الغرناطي توفي سنة ٧٤٥[2] وعلاء الدين بن الأثير، وبهاء الدين بن عقيل[3]، وتقي الدين بن دقيق العيد[4].

---

(١) القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعينيّ، أبو محمد الشاطبي: إِمام القراء، كان ضريرا، ولد بشاطبة في الأندلس (٥٣٨هـ/ ١١٤٤م) وتوفي بمصر (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، وهو صاحب: (حرز الأماني) قصيدة في القراءات تعرف بالشاطبية، وكان عالما بالحديث والتفسير واللغة، قال ابن خلكان: كان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ، تصحح النسخ من حفظه، ولما دخل مصر أكرمه القاضي الفاضل وعرف مقداره وأنزله بمدرسته التي بناها بدرب الملوخية داخل القاهرة وجعله شيخها وعظمه تعظيمًا كثيرًا ونظم قصيدتيه اللامية والرائية بها وجلس للإقراء فقصده الخلائق من الأقطار وكان إمامًا كبيرًا أعجوبة في الذكاء كثير الفنون آية من آيات الله تعالىٰ غاية في القراءات حافظًا للحديث بصيرًا بالعربية إمامًا في اللغة رأسًا في الأدب مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع شافعي المذهب مواظبًا علىٰ السنة. انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ١٨٠).

(٢) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي الأندلسي أثير الدين أبو حيان النحوي المقرئ نزيل القاهرة وكان واسع المعرفة بالعربية والقراءة والتفسير وغير ذلك وله تواليف منها في النحو؛ شرح التسهيل وفي التفسير؛ البحر المحيط؛ وارتشاف الضرب من لسان العرب؛ والتحرير لأحكام سيبويه، انظر: ذيل التقييد (١/ ٢٨٣).

(٣) بهاء الدين ابن عقيل: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشي الهامشي، من أئمة النحاة، من نسل عقيل ابن أبي طالب، مولده ووفاته في القاهرة (٦٩٤ - ٧٦٩ هـ = ١٢٩٤ - ١٣٦٧ م)، قال ابن حيان: ما تحت أديم السماء أنحىٰ من ابن عقيل، كان مهيبا، مترفعا عن غشيان النَّاس ولا يخلو مجلسه من المترددين إليه، كريما، كثير العطاء لتلاميذه، في لسانه لثغة، ولي قضاء الديار المصرية مدة قصيرة. انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ٩٦).

(٤) الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح ابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي المصري المالكي الشافعي، أحد الأعلام وقاضي القضاة؛ كان إمامًا متفننًا محدثًا مجودًا فقيهًا مدققًا أصوليًا أديبًا شاعرًا نحويًا، ذكيًا غواصًا علىٰ المعاني، مجتهدًا وافر العقل كثير السكينة بخيلًا بالكلام، تام الورع شديد التدين، مديم السهر مكبًا علىٰ المطالعة والجمع، قل أن ترىٰ العيون مثله، وكان سمحًا جوادًا وكان مالكيًا ثم صار شافعيًا، كانت وفاته (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٤٢) وما بعدها.

# العصر العثماني
# (من ٩٢٣ إلى ١٢١٣ هـ)

# مظاهر ضعف المماليك

دبَّ الِهرَم في جسم دولة المماليك، وأصابها الضعف الذي يتقدَّم فناء الدول، وأظهر ما يبدو ذلك جليًا من وفاة الأشرف قايتباي وبدء ولاية الناصر محمد الثاني، فزالت هيبة الدولة واستهان الجنود بالملوك وتفرَّقوا بينهم شِيَعًا وأحزابًا، وكثُرت الغارات علىٰ حدود الشام، وازدادت ثورات العرب علىٰ الحكام والأهلين، وخلَتْ خزائن الدولة من المال، لكثرة ما كان ينفق علىٰ صدِّ غارات الفاتحين، وقمع صولة الثائرين، حتَّىٰ قيل إنَّ ما أنفقه الأشرف قايتباي علىٰ الغزوات بلغ سبعة ملايين وخمسة وستين ألف دينار.

وكان من أسباب ضعف دولة المماليك كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ هـ، في أيام الناصر محمد الثاني، لأنَّ التجارة الهندية الذاهبة إلىٰ أوروبا سلكت هذه الطريق بعد أن كانت تضطر إلىٰ اجتياز البحر الأحمر ونقل البضائع من السويس إلىٰ الإسكندرية، وكان المماليك يفرضون علىٰ هذه المتاجر ضرائب عظيمة ينفقونها في غزواتهم ومظاهر عظمتهم، فلمَّا انقطع عنهم هذا المدد انصرفوا إلىٰ الأمة المسكينة يرهقونها بألوان المظالم، وضروب شتىٰ من الضرائب.

## الفتح العثماني

وبينما هم علىٰ تلك الحال من الاضطراب والإفلاس، زحف السلطان سليم عليهم وغزاهم في عقر دارهم، واستولىٰ علىٰ مصر سنة ٩٢٣ هـ.

وكان سليم مدمِّرًا هدّامًا، وكان حُكم العثمانيين حُكمَ إرهاب وارتباك وإرهاق، فمِنْ فَتْكٍ لا يكاد يستقر فيه السيف في قِرابه، إلىٰ مصادرة للأملاك والأموال، إلىٰ ضرائب فوق الجهد والطاقة، إلىٰ خوف شامل، وإلىٰ ثورات في كل مكان.

أغار سليم علىٰ خزائن دور العلم وبدائع آثار المماليك فنقل كثيرًا منها إلىٰ القسطنطينية، وأسر طائفة كبيرة من الأدباء والعلماء والصناع وأرسل بهم إليها، وامتدت يده إلىٰ مال الأوقاف التي حُبست علىٰ معاهد العلم ومقاصد الخير فانتهبه.

أتعجبُ إذن أن انحطَّت مصر وزال جمالها، ودالت دولتها؟ لقد أصبحت ولاية عثمانية بعد أن كانت مقر الملك وموطن الخلافة، وكَسَدت فيها سوق العلم والأدب، بعد أن كانت كعبة الأدباء ومباءة العلماء، فنُكِّسَتْ الأقلام وجَفَّ المِداد؛ ذلك لأنَّ العثمانيين لم يميلوا إلىٰ تشجيع الأدب والتأليف، فكانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية، وكانت لغة التخاطب خليطًا بين العامية والتركية، وقُصَارَىٰ القول؛ أنَّ مصر أصيبت في هذا العصر بتراجع في كل شيء وتدهور في كل شيء وانهزمت فيها العربية أمام هذا الفساد الاجتماعي، والعنف السياسي، والتقهقر الأدبي.

## النثر الفني
## ضعف النثر

بلغ النثر الفني في أكثر حالاته أقصىٰ ركاكته، وعجز كثير من الكُتَّاب حتَّىٰ عن مجاراة سابقيهم فيما كنَّا نَنْعاه عليهم من العناية بالسجع والمحاسن واللفظية، وفسدت اللغة في عبارات المؤلفين أسلوبًا وإعرابًا، ويكفيك أن تطلع علىٰ بعض الكتب التي أُلِّفت في هذا العهد كتاريخ ابن إياس[1] لتعرف أنَّ شيئًا من ذلك غير مبالغ فيه، ومن خير نماذج النثر في هذا العصر ما كتبه الشهاب الخفاجي في مقدمة كتابه (ريحانة الألباء)[2].

«وكنتُ لما ذَبُل عيشيَ النَّضْر وُلِّيتُ سياحة الآفاقِ[3]، فصرتُ خليفةَ الِخضْر[4] تهادَتْني التنائف[5]، وقذفتني الأماني في لَهَوات[6] المخاوف،

(١) ابن إِيَاس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، أبو البركات: مؤرخ بحاث مصري، من المماليك، كان أبوه أحمد متصلا بالأمراء ورجال الدولة، وجده (الأمير إياس الفخري الظاهري) من ممَّاليك الظاهر برقوق، وكتاب ابن إياس في التاريخ: بدائع الزهور في وقائع الدهور نشر في مصر سنة ١٩٥١م، كانت وفاته سنة (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م). انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٥) وما بعدها.

(٢) ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من كتاباته. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٣١، ٢٢٣).

(٣) وليت سياحة الآفاق أي قمت بالسفر إلىٰ بلاد شتىٰ [م].

(٤) يقال إن الخضر متنقل دائما من قطر إلىٰ قطر [م].

(٥) الفلوات [م].

(٦) جمع لهاة وهىٰ قطعة من اللحم في أقصىٰ سقف الفم والمقصود هنا بها الحلق [م].

كأنِّي قذاة[1] بأجفان الدهر أو سَفَاة[2] بوجه نهر، أو كرة لاعب أو سهم محارب، طورًا أشقُّ قلب الشرق كأنِّي أفتش علىٰ الفجر، وتارةً أُمزِّق كيس الغرب حتَّىٰ كأنِّي أريد أن أُخْرِجَ منه دينار البدر».

(١) القذاة شيء يسقط في العين [م].

(٢) شوكة النبات [م].

# الشعر

## ضعف الشعر

ولم ينجُ الشعر من الكارثة، فتناول الفساد كثيرًا من نواحيه لا يشذُّ عن ذلك إلا القليل النادر.

*** ومن أشهر شعراء هذا العصر:**

(١) ابن النحاس الحلبي يمتاز شعره بالانسجام واللطف وخلوّه من التكلُّف وتعمُّد الصناعة. مات سنة ١٠٥٢.

*** ومن جيد شعره:**

| | |
|---|---|
| **طَمْئِن فؤادك أيُّ حُرٍّ** | **لم يُرَعْ بالخَطْبِ قَلْبُه** |
| **ودَعِ المَلامَ فِداء مَن** | **عالَجْتَ في التسليم طبُّه** |
| **لا تُكْثِرَنَّ (هلا فعلت)** | **عليه فالفَعَّال ربُّه** |
| **المرءُ يَصْعُبُ جُهْدُه** | **ويلين بالمقدور صعبُه** |
| **لا تتهمني فالمؤا** | **خَذُ في الزمان النذْل ندْبُه** |
| **وأبيك من زمن الترعرع** | **لم يزل دأبي ودأبه** |
| **ومن العجيب لدىٰ اللئام** | **عطاؤه ولديَّ سلبُه** |
| **أنا لا أبالىٰ إن رُميت** | **وسبَّ عِرضي مَنْ أَسُبُّه** |
| **السيف يُرمىٰ بالفُلول** | **إذا قَسَا في الصَّلْدِ ضَرْبُه** |

| | |
|---|---|
| والعينُ يُدْميها الذُّبا | بُ ويُعْجِزُ الآسَادَ دَبُّه |
| والتِّبْرُ يعلوه التُّراب | ولا يضرُّ التِّبْرَ تُرْبُه |
| وأبيك ما نُكِبَ | اللَّبيبُ وفِكْرُه باقٍ ولُبُّه |

(٢) عبد الله بن شرف الدين الشبراوي المصري، كان من أساتذة الأزهر وله ديوان شعر أغلبه في مدح النبي وآله، وشعره سهل، وله غزل رقيق يُتغنَّىٰ به يدل علىٰ ذوق سليم وخفة روح توفي سنة ١١٧٢.

*** فمن مدائحه في أهل البيت قوله:**

| | |
|---|---|
| قال لي قائلٌ: رأيتك تَهْوىٰ | آلَ طَهَ ودائمًا تَرْتَجِيهِمْ |
| كان حقًّا عليك تستغرق العمر | مديحًا فيهم وفيمن يليهم؟ |
| قلتُ ماذا أقول والكونُ طُرًّا | يستمد الكمال من أيديهم؟ |
| أيُّ معنًىٰ للمدح مني وقد جاء | الكتاب العزيز بالمدح فيهم؟ |
| أنا لا أستطيع أمدح قومًا | كان جبريل خادمًا لأبيهم |

# التأليف والمؤلفون
## حال التأليف

نزل التأليف من مرتبته كثيرًا وساء ترتيبُه وتبويبُه، وأصبح تطويلًا لموجز، واختصارًا لمطوَّل، وخبَتْ فيه شُعلة التفكير والنبوغ التي كانت تلمع وتختفي في كتب عصر المماليك.

*** ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر:**

(١) شهاب الدين الخفاجي المصري، كان من أعلام هذا العصر في اللغة والأدب، وأشهر كتبه (شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل) جمع فيه طائفة من الألفاظ الدَّخيلة والمعرَّبة، وضمَّنه مباحثَ مفيدة، توفي سنة ١٠٦٩.

(٢) عبد القادر البغدادي، نشأ ببغداد وتردَّد علىٰ القاهرة، وأشهر كتبه (خزانة الأدب ولُب لُباب لسان العرب)، شرح فيها شواهد شرح الكافية، واستطرد في الأدب واللغة وتاريخ العرب، وهذا الكتاب في اتساع مباحثه واستقصائها جدير بأن يوضع في مرتبة الكتب التي أُلِّفت في عصور ازدهار التأليف توفي سنة ١٠٩٣.

(٣) السيد مرتضىٰ الزبيدي، ولد سنة ١١٤٥ ونشأ باليمن ثم حضر إلىٰ مصر واتَّصل بأحد أمرائها، وخير تآليفه (تاج العروس في شرح جواهر القاموس) توفي سنة ١٢٠٥.

## المدارس
## تقهقر التعليم

وقد أخذ ظِلُّ المدارس ودُور العلم يتقلَّص، فهجرها كثير من العلماء والطلاب لانتهاء الأوقاف المحبوسة عليهم، ولانصراف الدولة جملة عن الاكتراث بالعلم والتعليم، ولولا أنْ حفظ الأزهرُ في هذا الطور القاتم بقيَّةً من العلم ودراسته؛ لانقطع اتصالنا العلمي بهذا العصر جملةً واحدةً.

# النهضة الحديثة
# من الحملة الفرنسية إلى الآن

## اتصال مصر بأوروبا

كانت مصر في هذا العهد في شبه انقطاع تامٍّ عن الغرب، فلا يختلف إليه من أبنائها طلاب علم ولا تجار ولا رُوَّاد للنزهة ولا لغير ذلك من أسباب السياحات[1]، أما مصر نفسها؛ فعلىٰ الرغم من أنَّه كانت فيها طوائف شتَّىٰ من الأمم الغربية ممَّن كانوا يطلبونها للتجارة أو يوفَدون إليها من بعض دول الغرب ممثلين (قناصل)، أو يهبطونها باحثين في آثارها وعادات أهلها ومعيشتهم، فلم يكن اتصال هؤلاء بأهليها إلا بالقدر الذي تقتضيه حاجاتهم. وهذا القدر لا يتسع لإدراك حضارتهم وما بلغوا من علوم وما حذقوا من فنون.

والتعليم العالي في ذلك الوقت كاد يكون محصورًا في الأزهر، تُدرس فيه علوم الدين من (الفقه وأصوله، والتفسير، والحديث) وعلوم العربية من (النحو، والصرف، والوضع، والاشتقاق، والمعاني والبيان والبديع) وتدرس فيه كذلك علوم النظر من التوحيد، والمنطق، وآداب البحث والمناظرة، والفلسفة القديمة. وكان هناك أفذاذ من العلماء يُعَلِّمون الحساب والهيئة، وأَمْشاجًا من بعض العلوم الأخرىٰ.

---

(١) فإذا كان قد سافر إليها أفراد من المصريين مثل إبراهيم بك الكبير الذي أخذه الإنجليز وأسكنوه بلادهم نحو خمس سنين، فان ذلك القدر لم يكن من شأنه أن يعقد أي صلة بين مصر والغرب [م].

علىٰ أنَّ التعليم في الأزهر وخاصَّة تعليم العربية، كان قد استحال إلىٰ ضَرْبٍ من الفلسفة اللفظية، واستغرقت المناقشاتُ الجدليَّةُ -التي شُحنت بها الشروح والحواشي والتعليقات- القَدْرَ الأعظمَ من جُهد الأساتذة والطلاب معًا. أما لُباب العلم وجوهره وطلب الغاية المقسومة له؛ فكان لهما من التعليم أصغر الحظوظ.

ومهما يكن من شيء؛ فإنَّ فضل الأزهر لا يمكن أن يجحد علىٰ الزمان، في حفظ علوم الدين والعربية في تلك الحِقبة الطويلة التي امتُحنت فيها مصر بالفقر والجهل وسائر ألوان الفساد. وممَّا لا يُنسىٰ للأزهر أيضًا أنَّ محمد علي حين اعتزم الإصلاح لم يرَ خيرًا من أن يتخيَّر من بين طلابه من يدرسون العلوم الحديثة في مصر ثم في أوروبا. فعادوا وكانوا أئمَّةً مصلحين.

# الحملة الفرنسية

وفي سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) أقبل نابليون بونابرت في أسطول بحري مُعَد بجميع أسباب القتال في ذلك العهد ففتح الإسكندرية عنوة، وتم له ذلك من غير كبير عناء. وبعد أن اطمأنَّ فيها بجيشه قليلًا جعل يضرب في أرض مصر غازيًا حتَّىٰ بلغ بلاد الجيزة. وبعد موقعة لم يثبت فيها المماليك طويلًا اجتاز بجيشه النيل فاحتلَّ القاهرة قاعدة البلاد.

ولم يكن عجيبًا أن يستولي (بونابرت) علىٰ مصر بمثل هذه السهولة وقد تهدَّم بنيانُها وتصدَّعت أركانُها بعسف الولاة العثمانيين وظلمهم، وعبث المماليك وسوء حكمهم، حتَّىٰ لم يكن لهم من وسائل هذا الحكم إلا موالاة الأذىٰ علىٰ الأهلين وتلوين العذاب لهم، والافتنان في استخراج الأموال منهم بمختلف الذرائع. فخيَّم الجهل علىٰ البلاد وشاعت الفوضىٰ، وألحَّ الفقرُ علىٰ النَّاس، وتولَّتْهم صنوف الأوبئة، ما يدفعها عنهم إلا القَدَر وحده، حتَّىٰ تدلَّىٰ سكان القطر إلىٰ ما دون الثلاثة الملايين.

تم للفرنسيين إذن فتح مصر إلا ما كان من استقلال بعض المماليك ببلاد الصعيد، وشن الغارات علىٰ الفاتحين الحين بعد الحين من بعض أطراف البلاد، وإلا ما كان من انقضاض سكان القاهرة الفينة بعد الفينة علىٰ الجيش المحتل يخرجون إليه بعصيهم ثم يرجعون وقد أَصْلَتْهم مدافعه وبنادقه نارًا حامية.

# البعثة العلمية

وكان قد جاء مع بونابرت طائفةٌ من العلماء والصناع لدراسة الحياة المصرية من جميع نواحيها، وإقامة ما يحتاج إليه من المعامل والمصانع، ولما استقرَّ في مصر أنشأ مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين، وأقام مكتبة جامعة ليراجع العلوم فيها من يشاء مراجعتها منهم ولقد دعا الفرنسيون كبار أعيان المصريين وعلمائهم إلىٰ زيارة الدار التي أعدوا فيها وسائلهم لمختلف العلوم والفنون وما جاؤوا به من آلات وأدوات للطبيعة والكيمياء والأرصاد الفلكية وغير ذلك. فما كاد هؤلاء يطلعون علىٰ ما يصنع القوم بتلك الوسائل حتَّىٰ بُهِر أكثرهم وظنوا أنه ضَرْبٌ من السِّحْر، وما هو بالسحر ولكنه العلم الصحيح.

في ذلك الوقت أخذ المصريون -أو بعضهم علىٰ الصحيح- يفطنون إلىٰ أنَّ هناك حياةً غير ما أَلِفوا من حياة، وأنَّ هناك علمًا غير ما عرفوا من العلم.

وفي سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١م) أُجليَ الفرنسيون عن الديار المصرية، أي بعد ثلاث سنين ذاق فيها المصريون من مر العيش ما لا يُطاق. علىٰ أنَّ حكم الولاة العثمانيين قد عاد إليهم، كما عاد إليهم سلطان المماليك. وما برحت البلاد تعاني من هؤلاء وهؤلاء ما لا يُتصوَّر من ألوان الظلم والعَنَتْ، حتَّىٰ كانت سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م) إذ نودي بمحمد علي واليا علىٰ مصر.

# محمد علي

قدم محمد علي إلىٰ مصر ضابطًا في الحملة التي وجهتها تركيا لإخراج الفرنسيين من مصر، وكان راجح العقل، شديد الذكاء، واسع الحيلة، عظيم الهمة، بعيد المطامع، شجاعًا بلغ من قوة القلب حدًّا لا ينثني له معه عنان. وبهذه المواهب الجليلة استطاع أن يثب في رتب الجيش وثبا، وأخيرًا استطاع أن يجمع حوله أعيان المصريين وكبار علمائهم بلطف معاملتهم وحسن معاشرتهم فأحبوه وآثروه، وأعانوه عند الحكومة التركية حتَّىٰ قلدته ولاية مصر وهي لذلك كارهة.

وكان أول هَمٍّ لمحمد علي في ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك حتَّىٰ يكشف عن البلاد ظلمهم، ويخلُص له وجهها غير منازَع، فأوقع بجمهرتهم في القلعة سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١م).

بعد ذلك وجَّه همته العظيمة إلىٰ أن ينشئ جيشًا له كلُّ ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام. مسلحًا بأجود آلات القتال. فعمد أولًا إلىٰ مماليكه وبعث بهم إلىٰ الصعيد ليتعلموا فنون الحرب الحديثة علىٰ أيدي أساتذة من الإفرنج. وفي سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) أنشأ في قصر ابن العيني مدرسة حربية إعدادية، وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة إلا المصريين، غير أنَّ هذه التجربة أخفقت، فاضطر إلىٰ أن يجعل أكثر التلاميذ بعد من المصريين، وكانت لغة التعليم الأساسية هي التركية، وكانت تدرس إلىٰ جانبها العربية

وغيرها. وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك إلىٰ بعض البلاد الأوربية لدراسة فنون الجندية.

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب في جهة أبىٰ زعبل من ضواحي القاهرة ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين.

# مدرسة الطب

علمتَ أنَّ همَّة محمد علي اتجهت باديَ الرأي إلىٰ إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة، ولم يكن في مصر إلىٰ ذلك الوقت أطباء، اللهم إلا نفرًا قليلًا من الإفرنج لتطبيب مرضىٰ الجاليات الأجنبية. أمَّا المصريون؛ فكان مرضاهم يعوذون بالمتطببين والدجالين. وقد يلتمسون الوصفات لأمراضهم من الكتب القديمة كتذكرة داود وغيرها. وكانت إذا نشبت المعارك الحربية يدعىٰ بالحلاقين لِيَأْسُوا الكُلُوم ويَضْمِدوا الجروح. لهذا عمد محمد علي إلىٰ إنشاء مدرسة طبية بجهة أبي زعبل في سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) يقوم بإزائها مستشفًىٰ كبير، ودعا لها بأساتذة من الإفرنج وجمع طلابها من المصريين وغير المصريين، وكثير من أولئك كانوا من متقدمىٰ الطلاب في الأزهر، وكان التعليم في هذه المدرسة شاقًّا مجهدًا؛ فإنَّ أساتيذها لم يكونوا يعرفون العربية، وطلابها لا علم لهم باللغات الإفرنجية.

فدعت هذه الضرورة إلىٰ أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم ليؤدُّوا إلىٰ هؤلاء بالعربية ما يلقيه أولئك بالإفرنجية.

## إيقاظه الشرق بحسن بلائه في السياسة والحرب

استمكن سلطان محمد علي بما أعدَّ من جيش قوي في البر، وأسطول عظيم في البحر، ومشروعات للري ضاعف بها استثمار الأرض، وغير ذلك من وسائل الإصلاح. ولقد استعانت به تركيا في إخماد الفتن في أطراف بلادها، كما استعانت به في حروبها مع الدول الأخرىٰ. كما تمكَّن بجيشه من فتح السودان، كما اقتطع شطرًا من أملاك تركيا نفسها بعد أن اشتهر الخلف بينه وبينها وكاد يظفَر بحاضرة ملكها لولا أن تألَّبت عليه الدول الأوربية وحُلْن بينه وبين غايته.

أما الأسطول الضخم الذي بناه محمد علي فقد أحرقته تلك الدول غيلة في واقعة (نافارين)! وجملة القول؛ أنَّ محمد علي لم يبعث بجليل همَّته وعظيم إصلاحه مصر وحدها، بل بعث معها الشرق كله؛ فلقد كان لنهضته تلك دَوِيٌّ عظيم أيقظ الشرق بعد أن طال سُباتُه وبعد أن اطمأنَّ علىٰ تطاول الأيام إلىٰ عيش الذلة والهوان. وذلك ما كانت تحسب له دول الغرب كل حساب.

## تنظيمه العلاقات العلمية بين الشرق والغرب

سبق الكلام علىٰ أنَّ مصر كانت منقطعة عن بلاد الغرب وتقدمت الإشارة كذلك إلىٰ أنَّ الحملة الفرنسية جاءت معها ببعث من العلماء وأهل الفنون والصناع واطلع أعيان المصريين وكبار علمائهم علىٰ شيء من وسائلهم في سبيل العلم الحديث، إلا أنَّ مصر عاشت مدة حكمهم ولم تُفِد من هذا شيئًا، ولا حقق لها هذا القدر أي اتصال علمي ببلاد الغرب.

حتىٰ إذا قام محمد علي لم يرَ أن يأخذها بخير من الحضارة الغربية، فأتىٰ بالعلماء والأساتذة وأهل الفنون من أوروبا، وبعث البعوث العلمية والفنية إلىٰ بلادها، وأقام المدارس في مصر علىٰ نهج مدارسها، وتقدم بترجمة ما يُحْتاج إليه من كتبها في وسائل الحياة المختلفة. وبهذا وغيره انتظمت العلاقات العلمية بين الشرق والغرب، وسيأتي توضيح ذلك.

## إسماعيل وإتمامه بناء جده

قُبِضَ محمد علي باشا في سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثًا، وأنهضها نهضة قوية تلفَّت لها وجهُ التاريخ، وما كاد المُلك يصير إلىٰ حفيده عباس الأول حتَّىٰ خَبَت تلك النهضة، فأُغلقت المدارس، وعُطِّلَت المصانع، وفَتَرتْ تلك الحركة العظيمة التي تناولت جميع مرافق الحياة في البلاد.

وكذلك كان شأن خَلَفه سعيد بن محمد علي أيام حكمه. حتَّىٰ إذا انتهت ولاية مصر في سنة ١٢١٩ هـ (١٨٦٣م) إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي تأثر في سبيل الإصلاح خُطا جَدِّه العظيم، وراح يُتِمُّ ما بني لمجد مصر، وقد ذلل له وجه هذا المطلب وجود كثير من فطاحل العلماء الذين أعدَّهم جده العظيم، فبعث العلم بفتح المدارس المختلفة، واستقدام خيار الأساتذة والمصلحين من بلاد الغرب. وإيفاد البعوث العلمية إليها، وجدَّ في تشييد المعامل والمصانع، كما وجَّه همة عظيمة إلىٰ الزراعة، وهي -كما لا يخفي- عماد الثروة في مصر، فشق الترع وبنىٰ القناطر، ونهض بغير ذلك من وجوه الإصلاح التي تقوم عليها الثروة والقوة والعلم والعظمة في كل البلاد.

## مظاهر النهضة الحديثة في العلم والأدب

## البعوث العلمية

لم يكن للبعوث العلمية التي أوفدها محمد علي في مبتدأ الأمر إلىٰ أوروبا شأن جليل. وأولها كان في سنة (١٨١٣م)؛ علىٰ أنه ما برح يوالي إرسال البعوث حتَّىٰ كانت سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) إذ أوفد إلىٰ أوروبا بعثة عظيمة يزيد عدد طلابها علىٰ الأربعين، أحرزوا قبل سفرهم قدرًا صالحًا من التعليم والتثقيف. وظلَّ بعد هذا يوفد البعوث العلمية إلىٰ مختَلَف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون، ولم يقنع بهذا بل أقام في باريس نفسها مدرسة جمعت نحو الأربعين طالبًا فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده.

وكلما أتمَّ طالبٌ دروسه وشهد له أساتيذه بالبراعة والتبريز عاد إلىٰ مصر فوليَ من الأعمال ما يصلح له ويتَّسق لعلمه ومواهبه.

ولما أفضت الولاية إلىٰ إسماعيل باشا حذا حذوه في جميع طرائق الإصلاح ومنها بعث البعوث.

## الترجمة والتأليف

كان أول عهد مصر بالترجمة في هذا العصر، ما قام به أولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد علي ليؤدوا بالعربية إلىٰ طلبة مدرسة الطب ما كان يلقيه عليهم أساتذتهم من الدروس باللغة الأجنبية. فلمَّا أخرج بعض هؤلاء الأساتذة بلغاتهم كتبًا ورسائل في فنون الطب وأُريد ترجمتها إلىٰ العربية، جاء محمد علي بطائفة ممَّن تفقَّهوا في العربية لمعاونة أولئك المترجمين علىٰ تحري العبارة وضبط المصطلحات العلمية بقدر ما اتَّسع له علمهم بالعربية وما عثروا عليه من مصطلحاتها. وكان هذا عملًا شاقًّا مُضْنِيًا بحكم ذلك الجفاء الطويل بين العربية ولغات الغرب، وبسبب فقر المصريين في ذلك العهد في العلم الحديث وفقرهم في العلم باللغة العربية نفسها.

علىٰ أنَّه منذ عودة طلاب البعثة الكبرىٰ والذين من بعدهم تقدَّم شأنُ الترجمة تقدُّمًا واضحًا بتزودهم من العلم الحديث أولًا، واستفادتهم بسعي من سبقوهم ثانيًا، وانتعاش اللغة العربية ثالثًا.

وكانت جمهرة المترجمين أول الأمر من الأطباء؛ لأنَّ الطبَّ أول العلوم الحديثة التي عُني بدراستها في مصر بعد العلوم الحربية، ثم توالت الترجمة في العلوم والفنون الأخرىٰ علىٰ يد مَن تخرجوا فيها من الطلاب.

أما التأليف في العلوم الحديثة؛ فكان في مبتدأ الأمر ضئيلًا، وكان أكثره من وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد علي ليبتغي بهم وسائل

الإصلاح المنشود، علىٰ أنَّ المصريين قد جعلوا يُقْبِلون علىٰ معالجته، وخاصة من عهد إسماعيل حتَّىٰ بلغ اليوم غاية محمودة ما زالت البلاد تتطلَّع منها إلىٰ المزيد[1].

---

(١) ومن أبرع من برعوا (في أثناء هذه النهضة) في التأليف والترجمة في فنون الطب والصيدلة -مرتبين علىٰ حسب تاريخ وفياتهم - إبراهيم بك النبراوي ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م)، وأحمد بك حسن الرشيدي ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م)، ومحمد علي باشا البقلي ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) وأحمد بك ندىٰ ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م)، وسالم باشا سالم ١٣١١ هـ (١٨٩٣م)، ومحمد الدري باشا ١٣١٨ﻫ (١٩٠٠م) وحسن محمود باشا ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م).

وممن برعوا كذلك في العلوم الرياضية ترجمة وتأليفا: محمد بك بيومي ١٢٦٨ هـ (١٨٥١م)، وبهجت باشا ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧م)، ومحمود باشا الفلكي ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥م)، وشفيق بك منصور ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠م)، ومختار باشا المصري ١٣١٥ هـ (١٨٩٧م)، وإسماعيل باشا الفلكي ١٣١٩ هـ (١٩٠١م).

ومن خير من ألفوا أو ترجموا في العلوم المختلفة في صدر هذه النهضة: الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م)، والشيخ شهاب الدين المصري ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م)، ورفاعة بك رافع الطهطاوي ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م)، ومحمد قدري باشا ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥م)، وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧م)، والشيخ عبد الهادي نجا الأبياري ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م)، والشيخ حسين المرصفي ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م) والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م)، وعلي مبارك باشا ١٣١١ هـ (١٨٩٣م)، والشيخ محمد العباسي المهدي ١٣١٥ هـ (١٨٩٧م)، وعثمان بك جلال ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م)، وأمين فكري باشا ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م)، والشيخ إبراهيم اليازجي ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م)، وقاسم بك أمين ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م)، وعمر بك لطفي (١٩١٢)، وعلي أبو الفتوح باشا المتوفىٰ سنة ١٩١٣ ومحمد بك النجاري ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م)، وأحمد فتحي زغلول باشا ١٣٣٢ﻫ (١٩١٤م)، وجرجي زيدان بك (١٩١٤م)، وإسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٥م)، والشيخ محمد بك الخضري (١٩٢٦م).

ولا شك في أن هذه النهضة الحديثة مدينة في مستهلها لشيخ المترجمين علىٰ الإطلاق رفاعة رافع بك، كما إنَّها مدينة لأكبر السابقين من المؤلفين الوزير المصلح العظيم علي مبارك باشا [م].

# المدارس والمطابع

لم يلبث محمد علي طويلًا حتَّىٰ جعل ينشر التعليم بجميع أنواعه ودرجاته، فأقام نحو خمسين مدرسة ابتدائية بثَّها في أرجاء القطر المصري، وأقام مدارس عدَّة تجهيزية وخاصة، ومن هذه مدارس الهندسة، والتعدين، والفنون والصناعات، والطب، والطب البيطري، والزراعة، والألسن وغيرها، وجاء لهذه المدارس كلها بأساتذة من الأجانب ومن المصريين الذين تخصصوا بما يدرس فيها من العلوم والفنون.

ولقد تابع حفيده إسماعيل سعيه في هذا حتَّىٰ أزهر العلم وآتىٰ من الخير ما لا نزال نشهد من آثاره ونجني من ثماره.

ومن أهم المدارس العالية التي أنشأها إسماعيل مدرسة دار العلوم التي عادت علىٰ اللغة العربية بجليل النفع، والتي كانت من أقوىٰ العوامل في بثِّ صحيح العربية وطبع المَلَكَات علىٰ فصيح البيان.

# الأزهــر

ولقد ظل الأزهر علىٰ شأنه الذي تقدمت الإشارة إليه حتَّىٰ نهض المصلحون داعين إلىٰ أخذ طلابه بقسط من علوم الحياة كالتاريخ، وتقويم البلدان، والعلوم الرياضية، فلقي هذا أول الأمر شيئًا من المعارضة، علىٰ أنَّ الأزهريين لم يلبثوا طويلا حتَّىٰ اطمأنوا إلىٰ هذه العلوم وأقبلوا جاهدين علىٰ دراستها. ثم ما لبثوا هُم أن هبُّوا يطلبون الإصلاح في جميع أنواع التعليم في الأزهر والمزيد من علوم الحياة. وقد عولج هذا الإصلاح بمشروعات عدة. وما زال يعالج إلىٰ اليوم.

أما المطابع؛ فلم يكن للمصريين عهد بها إلىٰ أن قَدِمَتْ الحملة الفرنسية وجاءت معها بمطبعة مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية ليطبع علىٰ هذه ما تريد إذاعته علىٰ الأهلين من الأوامر والمنشورات. ولقد تركوها فيما تركوا، حتَّىٰ إذا كانت سنة (١٨٢١م) وشرع محمد علىٰ يتبسَّط في فنون الإصلاح ومنها التعليم، اتخذ من هذه المطبعة نواة لتأسيس مطبعة عظيمة دعيت أولا المطبعة الأهلية، ثم أطلق عليها مطبعة بولاق (الأميرية) وكان قد تقدم بتدريب طائفة من الشبان علىٰ صناعة الطباعة في فروعها المختلفة. وكانت هذه المطبعة في مستهل أمرها مقصورة علىٰ طبع حاجات الحكومة، ثم جعلت تطبع الكتب الدراسية وتتوسع في طبع الكتب في العلوم والآداب؛ اللغات العربية (مؤلفة ومترجمة) والإفرنجية والتركية والفارسية وكان القسم الذي يقوم بطبع الكتب

يسمَّىٰ (بالقسم الأدبي) وأخيرا شُطِر هذا القسم وأضيف إلىٰ دار الكتب المصرية تطبع فيه هذه الدار ما ترىٰ بعثه من الكتب القديمة في العلوم والأدب وما تشاء طبعة للأفراد.

ولم يكن للأهلين مطابع في صدر هذا العصر الذي يبتدئ من الحملة الفرنسية. وظل الشأن كذلك حتَّىٰ كانت أخريات حكم سعيد باشا، إذ أنشأت الدار البطريركية مطبعة دُعيت (المطبعة الأهلية القبطية) ثم توالىٰ إنشاء المطابع بسبب كثرة المتعلمين، وازدياد الرغبة في الترجمة والتأليف، وإحياء الكتب القديمة، وانتشار الصحف السيارة.

ولقد ظلت المطابع تكثر وتتسع وتتدرج في سنة الإجادة والإتقان متابعة بهذا مطابع الغرب حتَّىٰ بلغت في تجويد الطباعة والتصوير ما تراه الآن.

# إحياء الأدب القديم

وكان من آثار تلك النهضة في التعليم من جهة، وانتشار المطابع من جهة أخرىٰ، أن أقبل النَّاس -وخاصة من عصر إسماعيل- علىٰ دور الكتب، فجعلوا يستخرجون ما فيها من الذخائر المجفُوَّة من قديم الزمان في فنون الأداب، ويقومون علىٰ استنساخها وضبطها وطبعها وإشاعتها، فخرج من ذلك الوقت إلىٰ اليوم ما شاء الله من معاجم اللغة، ودواوين السابقين من فحول الشعراء وما جَرَتْ به أقلامُ أئمة البيان في العلوم والآداب. وأقبل المتعلمون علىٰ قراءتها وإجالة الفكر في أغراضها ومعانيها، وترشُّفِ بلاغاتها، وتقليب الألسن والأقلام في عباراتها وصيغها، ممَّا كان له أبلغ الأثر في طبع الملكات علىٰ البلاغة الصادقة والبيان السليم.

## الصحف

ولم يكن لمصر عهد بالصحافة حتَّىٰ قدمت الحملة الفرنسية. وما كاد يستقر لها الأمر حتَّىٰ أخرجت صحيفتين فرنسيتين، وكان من أنظمة حكم الفرنسيين في مصر أن أَلَّفوا من بعض العلماء والأعيان ديوانًا للقضايا، وأصدروا نشرة عربية دورية تتضمن ما يُجرَىٰ فيه، ودُعيت هذه النشرة (التنبيه) وكان يقوم علىٰ تحريرها رجلٌ من كبار المتأدبين في ذلك العصر يُدعىٰ السيد إسماعيل الخشَّاب. وقد طُويت هذه الصحيفة بخروج الفرنسيين من هذه البلاد.

ولما صار أمر الحُكم في مصر إلىٰ محمد علي كان ممَّا ابتغىٰ من وسائل الإصلاح؛ أن أنشأ في سنة ١٨٢٨م (الوقائع المصرية). وكانت صحيفة بالمعنىٰ المعروف، أي إنَّها تُعْنَىٰ بنشر الأخبار التي تهم الجمهور، والمقالات التي تجول في مختلف الشئون العامة، بقدر ما كان يأذن له نظام الحكم ودرجة التعليم والاستنارة في ذلك الزمان. وما زالت ترقىٰ في هذا الباب برقيِّ أقلامِ مَن يتعاقبون عليها من المحررين، إلىٰ أن رأت الحكومة من عهد غير بعيد قصرها علىٰ نشر الشئون الرسمية، من قوانين ومراسيم وقرارات وزارية، ولوائح إدارية، ونحو ذلك. وما زالت تظهر إلىٰ الآن مرتين في كل أسبوع.

ولقد ظلَّت (الوقائع المصرية) الجريدة الفذَّة التي تصدر في مصر إلىٰ أن كان عهد الخديوي إسماعيل، إذ أنشأ محمد علي باشا الحكيم بمعونة

الشيخ إبراهيم الدسوقي وهو من المحررين المعروفين في ذلك الوقت صحيفة باسم (اليعسوب) قَصَراها علىٰ البحث في الموضوعات الطبية. وفي سنة ١٨٦٦م أصدر عبد الله أبو السعود أفندي من المتعلمين العارفين لبعض اللغات الأجنبية صحيفة سياسية دعيت (وادي النيل) فكانت أول صحيفة سياسية أهلية ظهرت في هذه البلاد. ثم توالىٰ إصدار الصحف السياسية والأدبية وعظُم شأنها أول الأمر بمَن قدم مصر من كتاب السوريين الذين مارسوا فن الصحافة وحذقوه.

وما زالت الصحافة في مصر ترقىٰ برقي الأفكار والتوسُّع في الحريات ومنها حرية الصحافة، وبازدياد اهتمام الجمهور بالشئون العامة. حتَّىٰ بلغت ما ترىٰ اليوم من فصاحة العبارة، وغزارة المادة الفكرية، والعناية بتحري الأخبار والإسراع إلىٰ نشرها، والتبسُّط في أبواب السياسة القومية والسياسة العالمية. وإيراد ما يخرج في أرجاء العالم من المخترعات ويتجلىٰ من المستكشفات. إلىٰ ما عنيت به أخيرًا من إفراد صحائف خاصة منها للبحث في أبواب العلوم والفنون والآداب.

وقامت بجوار الصحف السياسية صحف أخرىٰ تدعىٰ (المجلات) وهي تقتصر عادة، علىٰ نشر البحوث العلمية والأدبية والفنية، وإيراد مستملح الطرف ترفيهًا عن القارئين.

وقد كانت الصحافة -وما برحت- من العوامل القوية في إيقاظ الأفكار وإنارة الأذهان، وبث الثقافة، وتقويم الحكومات، وبعث همة الجمهور لكلِّ سعي قوي جليل.

وهناك فضل آخر للصحافة المصرية يجب أن نثبته في هذا المقام؛ ذلك أنَّ حضارتنا القائمة إنَّما بُنيت علىٰ الحضارة الغربية، فكلُّ ما تلقيْناه من العلم الحديث كان ممَّن تعلَّموا لغات الغرب، وترجموا عنها إلىٰ العربية مختلف الكتب في العلوم والآداب. وهؤلاء تأثَّرت لغتهم -بقدْرٍ ما-

بلغات الغرب، كما اضطروا في البيان إلىٰ أن يُعدّلوا في أسلوب العربية وكثير من صيغها طوعًا للأسلوب الذي نقلوا عنه ووفاء بحاجة أغراضٍ ومعانٍ لم تكن معروفة في العربية، أو كانت في العربية ولكنَّهم لم يهتدوا إليها، وهناك ضَرْبٌ من الكُتَّاب لا يعنيهم إلا أن يحتذوا حذو القديم. وهناك كتاب آخرون أخذوا من هذا ومن ذاك. وبذلك تباينت الأساليب وتفاوتت اللهجات، وخاصة في مطلع الأمر. فكان من أثر انتشار الصحف ووقوعها بأيدي جميع الكتاب ومَن عداهم من المتعلمين؛ أن جعلت لهجات الكتاب تتقارب علىٰ الزمن، شيئا فشيئًا بما يمد به بعضهم بعضًا، ومالوا في اختيار الأساليب إلىٰ ما يؤدي الأغراض وتستقيم به العربية الصحيحة، ونفي ما يشْمُس علىٰ الآذان، وينبو عنه صحيح البيان.

# التمثيل

لم يكن لمصر كذلك عهد بالتمثيل إلا ما كان من ملاعب المقلِّسين في الأسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتَّىٰ كان حكم إسماعيل، وكان جِدَّ حريصٍ علىٰ أن يأخذ بلاده بجميع أسباب الحضارة الغربية. فشيَّد (الأوبرا) الخديوية في سنة (١٨٦٩م) بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس، ودعا إليها بفرقة إفرنجية مثلت فيها أول مرة رواية (عائدة) باللغة الفرنسية.

وكان السوريون قد سبقوا إلىٰ معالجة فن التمثيل، فقدمت إلىٰ مصر فرق من ممثليهم تباعًا ومن أَمْثلهم الشيخ خليل القباني، وسليمان أفندي القرداحي، وفرح أفندي أنطون، وظلَّ المصريون دهرًا لا يرضَوْن بممارسته لأنَّهم لم يكونوا يرون فيه بادئ الرأي، إلا ضربًا من اللعب والعبث، إلىٰ أن تقدَّم الشيخ سلامة حجازي إلىٰ التمثيل والإنشاد وذلك في أعقاب الثورة العرابية، فتبعه إلىٰ التمثيل عدد يسير من المصريين وما زالوا علىٰ الزمن يُقبلون عليه حتَّىٰ أصبحوا اليوم الكثرة الغالبة فيه.

وأمَّا المصريات؛ فقد أحجمنَ عن الدخول فيه بتاتًا إلىٰ وقت قريب بحكم التعاليم الدينية والتقاليد المأثورة؛ ولكنهنَّ أقبلنَ عليه أخيرًا طوعًا لتطورات الزمان.

والتمثيل العربي بدأ كما يبدأ كلُّ شيء ضعيفًا خائرًا، لا يُطلب منه إلا مجرد اللهو والاستمتاع بالأصوات الرخيمة؛ ولكنه ظلَّ يتدرَّج في

طريق الدقة والإتقان من جميع نواحيه، حتَّىٰ صار فنًّا بل فنونًا لكل منها أساليبه وآدابه.

والتمثيل فوق أنه أداة للتسلية وتفرُّج النفس، قد يكون وسيلة من وسائل تنبيه الأذهان بتجلية عبرة تاريخية، أو بمعالجة مسألة اجتماعية، أو بالإبانة الواضحة عمَّا يحمل الإثم في نفسه من العقوبة. وما يُجنُّ الخير في صدره من المثوبة.

# نهضة الأدب في أيامنا

# تمهيد

يمكن القول بأنه في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه -أي: في أيام الحملة الفرنسية- كانت الصلة منقطعة بين المصريين والأدب العربي القديم. وذلك بطول جفائهم لكتبه، وعدم مراجعتهم لروائع آثاره التي ظلت منبوذةً في مطارحها من الجوامع والأضرحة ومكتبات الحكام وغيرهم. وكانت كل مادة الأدب التي يعيش عليها المصريون في ذلك العهد ما تسرب إليهم عن سلفهم القريب بعد أن جفَّ الأدبُ ونَضَب ماؤه، وحالت بهجتُه وذهب رواؤه، ودارت مطالب الشعر بنوع خاص في أضيق الدوائر، من غزل خائر ظاهر التكلف، ووصف لا يُبرز لك أية صورة رائعة من صور الكلام، وهجاء بارد مرذول، ومديح لا تتسع له دائرة القبول، وقد تجرَّدت الهمم كلها في طلب المحسِّنات البديعة يزيَّنُ بها وجهُ القول تزيينًا.

أما علوم البلاغة؛ فقد ضُبطت في قواعدَ جافَّة لا يمكن أن تَطبَع الملكات على الفصاحة، ولا أن تُشعر الأنفُس رُوحَ البيان، فضلًا عن أنَّ شراحَ تلك القواعد ومن تطوعوا للتعليق عليها قد خرجوا بها إلىٰ ضرب من الفلسفة والجدل اللفظي الذي إنْ أدَّىٰ فهمُه بعد المطاولة وشدة الجهد إلىٰ إنماء ملكات الجدل والقدرة علىٰ التماس العلل؛ فإنَّه لا يؤدِّي إلىٰ شيء ممَّا عُقِدَت لأجله كتبُ البلاغة بأي حال.

ولم يكن يحرص أكثر الكاتبين إلا علىٰ قواعد الإعراب، فلمَّا أسَّس محمد علي مدرسة الطب -كما أسلفنا- وأخرج بعض الأساتذة الأجانب كتبًا ورسائل في لغاتهم أُريدَ ترجمتُها، ضمَّ إلىٰ المترجمين جماعة من الأشياخ الذين أخذوا من العربية بحظ ليضبطوا الألفاظ والصيغ العربية بإزاء المعاني القائمة في اللغة الإفرنجية، فكان هذا من أول ما دعا إلىٰ مراجعة الكتب القديمة لالتماس المصطلحات الفنية التي وضعها الأقدمون في الطب والأقراباذين.

علىٰ أنَّ التعليم علىٰ المنهج الحديث في ذلك العهد لم يُجْدِ علىٰ الأدب بادئ الرأي شيئًا. وإن وسع في أغراض المؤلفين والكاتبين وفسَّح في معانيهم، لأنَّهم لم يستطيعوا أن يفرغوها إلا في لغة شبيهة بالعامية، يخالطها كثير من الصيغ التركية، والمصطلحات الإفرنجية.

وظل شأن الأدب كذلك دهرًا حتَّىٰ أزهرت النهضة العلمية، وأحسَّ المتعلمون شديدَ حاجتهم إلىٰ لغة يصوغون بها ما يجول في صدورهم من المعاني، وقامت المطبعة الأميرية بطبع طائفة من الكتب القديمة في اللغة والآداب. من ذلك الوقت جعل الأدب العربي في مصر يتخذ له سمتًا آخر. وتم هذا في عصر إسماعيل، وخاصة بعد أن أنشأ المكتبة الخديوية، وجمع فيها قدرًا عظيمًا من نفائس الكتب القديمة فأضحت مثابة المطالعين والنساخ والطابعين.

ومن حين طالع النَّاس الأدب القديم وتذوَّقوه، راحوا يطلبون كتبه ويقلِّبون النظر في بدائع صيغه وروائع أساليبه، وانطلقوا يتكلَّفونه إذا هم كتبوا أو خطبوا، وكلما اطَّرد الزمن ازدادوا منه قُربًا، وله حُبًّا.

ولكن لا يذهب عنك أنَّ حضارتنا الحديثة ليست قائمةً في جميع نواحيها علىٰ الحضارة العربية القديمة، حتَّىٰ نجري في أدبنا علىٰ سبيل العرب، وننزِع منازعهم في تصورنا للأشياء، وحكمنا عليها، وطريقة تصويرنا لها، فإنَّ

حضارتنا في الواقع إنَّما تقوم علىٰ الحضارة الأوربية الحديثة، فنحن نأخذ عن أوربا فنونها، وننهَل من علومها، ونجري في أكثر وسائل الحياة علىٰ سبيلها، هذا إلىٰ أنَّ بيننا كثيرًا ممَّن تثقفوا بثقافتها، وحذقوا لغاتها، وتفقهوا في آدابها، واستراحت آذانهم إلىٰ موسيقاها، فتأثروا بكل ذلك -من غير شك- في طريقة تفكيرهم وتقديرهم إلىٰ حدٍّ كبير، وهؤلاء أثَّروا في غيرهم ممَّن لا يجيدون اللغات الإفرنجية. لهذا ترىٰ الأدب المصري القائم وإن كان حقَّ حريصٍ علىٰ لغة العرب في مفرداتها وصيغها وأساليبها، قد تأثَّر بأسباب الحضارة الغربية في أغراضه ومنازعه إلىٰ مدىٰ بعيد.

**وهنا ينبغي أن نقف وقفة قصيرة نُلمُّ فيها بأسماء أبلغ الرجال أثرًا في نهضة اللغة والأدب في العصر الحديث:**

## (١) رفاعة بك رافع الطهطاوي
## المتوفىٰ سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م)

لقد كان رفاعة بك مع رجال البعثة الكبرىٰ التي أَوْفدها محمد علي إلىٰ باريس، فدرس اللغة الفرنسية حتَّىٰ برع فيها. ودرس التاريخ وتقويم البلدان، ولما عاد إلىٰ مصر تولَّىٰ الترجمة في العلوم المختلفة من طب ورياضة وقانون وفنون عسكرية. وقام علىٰ نظارة مدرسة الألسن التي أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين. ثم علىٰ قلم الترجمة الذي أُلِّف من تلاميذ هذه المدرسة.

وإذا علمتَ أنَّ اللغة العربية كانت في ذلك العهد في شبه انقطاعٍ تامٍّ عن لغات الغرب، قدَّرْتَ مبلغ ما عَانَىٰ رفاعةُ بك في ترجمة هذه العلوم الحديثة إليها، وما جاهد في استخراج المصطلحات العربية لأداء معانيها الفنية، وقدرت بعد ذلك مبلغ ما أجدىٰ فضل رفاعة بك علىٰ هذه النهضة العظيمة. هذا إلىٰ فضله الكبير في تخريج خيار المترجمين الذين أعانوه أولًا، وأتمُّوا ما بنىٰ لنقل العلم إلىٰ هذه البلاد، ولرفاعة بك فوق هذا مؤلفات قيمة في فنون مختلفة[١].

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات رفاعة الطهطاوي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٣٩) ط، عالم الأدب.

## (٢) على مبارك باشا
## المتوفىٰ سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣م)

لا شكَّ في أنَّ علي مبارك باشا يعدُّ في أوائل الرجال الذين كان لهم أوفر حظٍّ في بعث النهضة الحديثة، ولَّاه إسماعيل باشا ديوان المدارس (نظارة المعارف) فاضطلع بإصلاح التعليم وأخذ المدارس المصرية بكلِّ ما تهيَّأ له من ضروب النظام. كما كان له أعظم الفضل في إنشاء المكتبة الخديوية التي تعد الآن من أعظم المكتبات في الشرق كلِّه. وكان نَفْسُه قوةً لا تَنِي عن إذْكاء الهمم لطلب العلم، يتوافر علىٰ هذا نهاره في ديوانه وفي طوافه علىٰ المعاهد سائلًا ممتحنًا مرشدًا مشجعًا، وفي ليله يجلس في داره مجلسًا عامًا يغشاه من شاء من الأساتذة ومن متقدمي التلاميذ فيحاضرهم ويذاكرهم ويوجههم إلىٰ البحوث المختلفة في أبواب العلم والأدب ويثيب المُجِدَّ الموفَّق منهم.

وأمَّا فضله علىٰ اللغة والأدب بوجه خاص؛ فبإنشائه مدرسة دار العلوم، ولقد كانت من أغزر الينابيع التي نهل منها المصريون أدب العرب القديم[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات علي مبارك. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٤٣) ط، عالم الأدب.

## (٣) الشيخ حسين المرصفي
## المتوفىٰ سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م)

كان من أول من عُني في هذا العصر باللغة وآدابها، وآثار أعلام البيان من جاهلين وإسلاميين فجَدَّ وبحث وفصَّل قواعد البلاغة في كتابه (الوسيلة الأدبية) علىٰ نظم بديع، وأظهر كثيرًا من آيات البيان العربي الذي أهمله متكلفو الأدب من زمانٍ طويل. فله أثرٌ بليغ في بعث الأدب القديم، وتوجيه المتأدِّبين إليه، واستدراجهم نحوه حتَّىٰ أقبلوا عليه وتذوَّقوه وراحوا يشاكلونه إذا هُم نظموا أو أرسلوا الكلام.

ولم يكن أثرُه مقصورًا علىٰ التأليف وحده، بل لقد حاضر في هذا الباب كثيرًا، وكتب في الصحف كثيرًا، وعلَّم في دار العلوم طويلًا، وكان من حُسن أثره؛ أنْ دفع الأدباء إلىٰ تلمُّس الأدبِ الصحيح، وإلىٰ مُشاكلة المتقدمين من أئمة البيان، كما كان أسلوبُه العربي المُرسَل الفصيح قدوةً لكثير من الكاتبين[١].

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات الشيخ حسين المرصفي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٤) ط، عالم الأدب.

## (٤) السيد جمال الدين الأفغاني
## المتوفىٰ سنة (١٨٩٧م)

لقد كان أثرُه في نهضة البيان العربي غير مباشر: ذلك بأنَّه لم يكن فقيهًا في لغة العرب، ولا متقصِّيًا لأسرار بلاغاتها، بل لقد كان أجنبيًا عنها؛ علىٰ أنَّه كان إذا تكلَّم بها أو كتب تحرَّىٰ صحَّة اللفظ وصحة التركيب بقدر ما يتَّسع له ذَرْعُه. ولكنَّه كان رجلًا شديدَ العقل، قويَّ النفس متسعِّر الذكاء، جمع إلىٰ علوم الفلسفة القديمة العلمَ بالشئون العامة في العالم، وتجرَّد لبَعْث الشرق من رَقْدته، وإنهاض الأمم الإسلامية. وهبط مصر في عهد إسماعيل فاتَّصل به طائفة من نجباء طلاب الأزهر وغيرهم، فكان يعلمهم فنونًا من العلم، ويبثُّ فيهم في خلال دروسه وفي أسماره دعوةً جريئةً أولها الاستمتاع بالحرية كاملة في القول والعمل، وغايتها دفعُ أمم الشرق عامة والأمم الإسلامية خاصَّة إلىٰ العمل القوي حتَّىٰ تتمتع بحياة الحرية والعزَّة والاستقلال.

وكان يدرب طلابه علىٰ هذا باللسان والقلم، وكان خطيبًا قديرًا فهيَّأ بمصرَ مَلَكات الخطابة والكتابة، حتَّىٰ كانت جمهرةُ خطباء الثورة العرابية من تلاميذه. أمَّا أثره في الكتاب؛ فكان في توجيه عنايتهم إلىٰ المعنىٰ بعد أن كانت مصروفةً كلَّها إلىٰ اللفظ، ولقد دعا هذا إلىٰ القصد في تقديم المقدِّمات، وكانت العادة جرت بالإسراف فيها إلىٰ الحدِّ الذي قد يُضيِّع

الغرض الذي سيق له الكلام، كما دعا إلىٰ عدم الاهتمام بزخرفة الكلام بفنون المحسِّنات البديعيَّة[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات السيد جمال الدين الأفغاني. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٤) ط، عالم الأدب.

## (٥) الشيخ محمد عبده
## المتوفىٰ سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م)

هو أكبر تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني. وقد عالج الكتابة في الصحف في أوائل عهده بطلب العلم في الأزهر، فكان يجري علىٰ عادة أهل عصره في التزام السجع، والتمهيد بين يدَيْ الموضوع بالمقدِّمات الفلسفيَّة. ثم ما برح قلمُه يرقىٰ ويعلو بتثقيف أستاذه، وبازدياد حظِّه من العلم، وبمراجعة كتب الأدب القديم وخاصَّة (نهج البلاغة) الذي عالجه بشرحٍ لطيفٍ حتَّىٰ جرىٰ قلمُه علىٰ أسلوبه ونضح بما يشبه فصاحته. وكان حقيقًا -بشِدَّةِ نَفْسِ الشيخ محمد عبده وقوَّة روحه، وما تجرَّد له من الدَّعوة الصارخة إلىٰ الإصلاح- أنْ تجتمعَ لقلمِه تلك الفحولةُ وهذه السَّطْوةُ في الكلام.

وكان بعد هذا داعيًا إلىٰ البيان الصحيح بما استخرج من أجلِّ كتب البلاغة (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني) وتدريسها بنفسه في الجامع الأزهر[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من كتابات الشيخ محمد عبده. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٥، ٢٤٦) ط، عالم الأدب.

## (٦) إبراهيم بك المويلحي
## المتوفىٰ سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦م)

وقد نجم من أسرة تتَّجِر في الحرير، وهي ذات حسبٍ وغنًىٰ، علىٰ أنَّه من شباب السن قد هفَتْ نفسُه إلىٰ العلم والأدب فطلبهما في أمُّهات الكتب، وجعل يختلف إلىٰ أئمَّة عصره من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني. والمويلحي في هذا العصر من أوائل مَن فحصوا عن الأدب القديم وراجعوه وتذوَّقوه وحفظوا من روائع آياته قدرًا جليلًا. وقد تعلَّم الفرنسية، وحذق التركية. وكان له وَلَعٌ خاصٌّ بالتاريخ، فكان يُديم النظر في كتبه، ويتفطَّن من دقائق حوادثه وغرائب نوادره إلىٰ ما لا يتجه إليه كثير. وقد اتَّصل بالملوك ودخل في بطانة الأمراء، وعاشر الحكام، وعالج السياسة العامة بالقول والعمل. وهو بَعْدُ رجلٌ قد اجتمع له إلىٰ شدَّةِ الفطنة كمالُ الذّوْق وسلامة الطبع. فما إن أطلَّت يراعته علىٰ متون الصحف حتَّىٰ راع المتأدِّبين في عصره نوعٌ من البيان غريب: جزالة لفظ، وانسجام عبارة، وحلاوة أسلوب، ولُطف استشهاد، ووقوع علىٰ الدقائق العجيبة، واستخراج للمعاني الطريفة. ولعلَّه قد احتذَىٰ الجاحظَ في نقد الأشخاص، وتحليل نفوسهم، والنفوذ إلىٰ مطاويها، وتصويرهم بعد هذا في صور توزِّع همَّك بين الضَحِك والإعجاب.

وجُملة القول؛ إنَّ إبراهيم بك المويلحي فوق أنَّه من أوائل مَن جَرَوْا في البيان علىٰ نهج المتقدمين، كان له أسلوب خاص ما زال مثالًا يحتذيه كثيرٌ من الكُتَّاب إلىٰ اليوم[١].

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات إبراهيم المويلحي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠١) ط، عالم الأدب.

## (٧) الشيخ إبراهيم اليازَجي
## المتوفىٰ سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م)

وكان لأبيه حظٌّ من الأدب وعلوم العربية جليل، وقد توفَّر عليها ولده من أول نشأته حتَّىٰ برع فيها، وتبحر في فقه اللغة. وكان إلىٰ هذا شاعرًا متينًا. وكاتبًا رصينًا. وهو من أوائل من عالجوا النقد اللغوي في مصر في مجلتَيْ البيان والضياء. ولقد دأب طَوال حياته علىٰ تنبيه المتأدبين إلىٰ أغلاطهم في المفردات والتراكيب والكشف لهم عن الأخطاء الشائعة من الزمان البعيد، وردَّهم بعد ذلك فيها إلىٰ العربي الصحيح، فكان أثرُه بليغًا في بعث الأدباء إلىٰ تحري صحة الألفاظ وتأليف الكلام علىٰ قوانين العربية الخالصة.

ولليازَجي في هذا الباب فضل آخر؛ ذلك بأنَّه من أعظم من عُنُوا في خلال النهضة الأخيرة بالتماس المصطلحات العربية للمعاني الفنية التي جاء بها العلم الحديث[1].

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من كتابات الشيخ إبراهيم اليازجي. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٤) ط، عالم الأدب.

## (٨) الشيخ حمزة فتح الله
## المتوفىٰ سنة (١٩١٨م)

كان كاتبًا وشاعرًا، اشتغل في أعقاب الثورة العرابية بالتحرير في الصحف، ثم انقطع إلىٰ تدريس اللغة العربية حتَّىٰ وَلِيَ رياسة التفتيش الخاص بها في وزارة المعارف. وكان في فقه اللغة إمامًا جليلًا، واطلاعه علىٰ شعر السابقين، ومأثور كلامهم عظيمًا.

والشيخ حمزة وإن كان مُولعًا بالغريب يتحرَّاه ويتعمده إذا كتب أو نظم أو تحدث حتَّىٰ ما يكاد يُفهم قولُه، سيبقىٰ فضلُه علىٰ هذه النهضة مأثورًا إلىٰ زمانٍ طويلٍ بما أشاع من صحيح لغة العرب، وما كشف للناس عن أخطائهم الفاشية وبما علَّم من تلاميذ، وما نبَّه في تفتيشه من أساتيذ[١].

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من كتابات الشيخ حمزة فتح الله. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠٩، ٢٥١) ط، عالم الأدب.

## (٩) حفني بك ناصف
## المتوفىٰ سنة (١٩١٩م)

كان شاعرًا يجمع بين الرقة والجزالة، حاضرَ البديهة، متدفِّقَ القريحة، تجد لشعره حلاوةً وسلاسةً وخفةً؛ لكثرة ما يقع فيه من بارع التحف ورائع النكت. وكان كاتبًا رصينًا، إذا هو التزم السَّجع في النثر الأدبي علىٰ حكم العصر الذي نشأ فيه كانت أسجاعه قوية موفقة، لا ضعف فيها ولا تعسُّف، وليس فيها ما لا تدعوا إليه حاجة الكلام. لذلك كان قدوة يحتذيه المتأدبون في تعمد المتانة في النسج واللباقة في السجع.

وكان حفني بك فوق هذا فقيهًا في لغة العرب، متمكنًا من علومها، حافظًا لكثير من مأثور آدابها. ولم يُقصر أثره في هذه النهضة علىٰ ما نظم وما نثر، بل لقد علَّم وهذَّب وألَّف. وكان واحدًا من خير أولئك الرجال الذين ذَلَّلُوا للتلاميذ تعلُّمَ العربية بما وضعوا لهم من كتب أجرَوْها علىٰ نهج في التأليف حديث. ولقد كان لهذه الكتب أثرها في تيسير علوم العربية لطلابها ممن تنتظمهم المدارس[١].

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من شعر حفني بك ناصف. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٣٥) ط، عالم الأدب.

# الشعر محافظته في الجملة على نهج الأدب القديم

تقدَّمت الإشارة إلىٰ أنَّ الضعف قد تناول الشعر فيما تناول من مظاهر الحياة في مصر، سواء في الأغراض والمعاني، أم في النسج والصياغة.

ولقد كان من متقدمي الشعراء في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه السيد إسماعيل الخشاب المتوفىٰ سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م)(١) والشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفىٰ سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م)(٢) والشيخ حسن العطار المتوفىٰ سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤)(٣).

ولقد ظل الشعر في مصر علىٰ هذه الحال دهرًا إلىٰ أن كان عصر إسماعيل فتأثر -بقدر ما- في صياغته ونسجه، وفي أغراضه ومعانيه بالرجوع

---

(١) قال السيد إسماعيل الخشاب متغزلا:

| | |
|---|---|
| **يا شقيق البدر نورًا وسنا** | **وأخا الغصن إذا ما انعطفا** |
| **بأبي منك جبينًا مشرقًا** | **لو بدا للنيِّرين انكسفا** |
| **بغيتي منك رضاب ورضا** | **وعلىٰ الدنيا ومن فيها العفا** |

[م]. ولمزيد من الاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٤١، ٢٢٥) ط، عالم الأدب.

(٢) **قال يصف بركة الفيل:**

| | |
|---|---|
| **انظر إلىٰ بركة الفيل التي نحرت** | **لها الغزالة نحرًا من مطالعها** |
| **وخل طرفك محفوفًا ببهجتها** | **تهيم وجدًا وحبًا في بدائعها** |

[م].

(٣) قال يصف بركة الأزبكية:

| | |
|---|---|
| **بالأزبكية طابت لي مسرات** | **ولذ لي من بديع الأنس أوقات** |
| **حيث المياه بها والفلك سابحة** | **كأنها الزُّهر تحويها السماوات** |

=

إلىٰ الآداب القديمة من جهة. ودخول العلوم الحديثة من جهة أخرىٰ. وكان من الشعراء المصريين في ذلك الحين الشيخ علي أبو النصر المتوفىٰ سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠م)[1] وعبد الله باشا فكري المتوفىٰ سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م)[2] والشيخ علي الليثي المتوفىٰ سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٦م)[3].

---

= وقد أدير بها دور مشيدة — كأنها لبدور الحسن هالات
والماء حين سرىٰ رطب النسيم به — وحلّ فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط — من فضة واحمرار الورد طعنات

[م]. وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٤٢، ٢٢٦) ط، عالم الأدب.

(١) **قال متغزلا:**

أسرتَ بمرهَفِ الألحاظ قلبًا — أبىٰ من أن يميل إلىٰ سواكا
بروحي افتديتك ومَن لِصَبٍّ — بعينَيْ كلِّ جارحةٍ يراكا
هواك بمهجتي لو أنكرته — هتكت بدمعي الجاري هواكا
محالٌ أن أعيش بغير سُقم — متىٰ أحرمت أجفاني لقاكا

**وقال مادحًا:**

أصاخت الخيل آذانًا لصرخته — واهتزَّ كلُّ هزيز عندما عطسا
تعشق الدرع مذ شدَّت لفائفه — وأبغض المهد لما أبصر الفرسا
تعلم الركض أيام المخاض به — فما امتطىٰ الخيل إلا وهو فرسا

[م]. وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٤٨، ٢٣١) ط، عالم الأدب.

(٢) **قال في استعطاف المغفور له توفيق باشا:**

كتابي توجَّه وجه الساحة الكبرىٰ — وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعًا واستوهب الأذن والتمس — قبولًا وقبِّل سدة الباب لي عشرا
وبلغ لدىٰ الباب الخديوي حاجة — لذي أمل يرجو له البشر والبشرىٰ
لدىٰ باب سمح الراحتين مؤمل — صفوح عن الزلات يلتمس العذرا
مليكي ومولاي العزيز وسيدي — ومن أرتجي آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام عليَّ تقوَّلوا — بأمرٍ فقد جاؤوا بما زوَّروا نُكرا
حلفت بما بين الحَطيم وزمزم — وبالباب والميزاب والكعبة الغرا
لما كان لي في الشر باعٌ ولا يدٌ — ولا كنت من يبغي مدىٰ عمره الشرا

[م]. وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٥١، ٢٢٨) ط، عالم الأدب.

(٣) للاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٥٤، ٢٣٢) ط، عالم الأدب.

وقد طفر الشعر طفرة عظيمة علىٰ لسان محمود باشا سامي البارودي؛ فهو الذي ردَّ الشعر العربي إلىٰ أزكىٰ أيامه، حتَّىٰ شَاكَل الشَّريف الرَّضِي في جزالة الشعر، ومتانة النسج، وقوة الكلام، ولم يتخلَّف عن متقدِّمي الشعراء في شيء من مطالب الشعر، فلقد تغزَّل كما تغزَّلوا، ووصف كما وصفوا، ووقف بالدِّيار، وبكىٰ النَّوىٰ والأحجار، ومدح كما مدحوا، ولكن في قصد وإنصاف، وهجا كما هجوا ولكن في غير إفحاش ولا إسراف، وعاتب الإخوان ولكن في غير قلة، وشكا الزمان ولكن في غير ذلة. علىٰ أنه قد أَرْبىٰ عليهم بما جال فيه من فنون المعاني التي تجلَّت بها الحضارة الجديدة، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث.

والعجيب أنَّ طبيعة العصر الذي نشأ فيه البارودي والبيئة التي نَجَم فيها ونوع التعليم الذي قُدِّر أن يؤخذ به، لم يكن من شأنها أن تطبع مثله علىٰ كل هذا البيان! ولكنَّها الموهبة الإلهية التي يختصُّ بها الله من يشاء من عباده.

وإذا كان هناك أثر للجهد في شاعرية البارودي؛ فمِن حِفْظه لشعر المتقدمين، وتقليب نظره في دواوين فحول شعرائهم من أمثال أبي نُواس، وأبي تمام، والبحتري، والشريف الرضي، والمتنبي بدليل معارضته لكثير من قصائدهم واختياره الجيد من شعرهم في كتاب ممتع يتألف من أربعة أجزاء. وكان أكبر مِعوان له علىٰ طلب دواوين السابقين من الشعراء وتحري صحة العبارة؛ أستاذُه وصديقه الشيخ حسين المرصفي الذي سبقت الإشارة إليه.

وللبارودي في هذا الباب مَزِيَّتان لا يحصيهما التاريخ لكثير من رجال التاريخ، أولاهما: أنه انفرد من بين الشعراء في مصر بهذه القوة زمانًا طويلًا غير مشارَك ولا مدافَع والثانية: أنَّه علىٰ إكثاره وضربه في كل فنون الكلام، كان أكثرُ شعره جيدًا[1].

---

(١) قال البارودي يصف الحرب:

**ولـمَّـا تَـدَاعـىٰ الـقـومُ واشـتـبـك الـقَـنـا ... ودارت كما تهوىٰ علىٰ قُطْبها الحرب** =

وسطع في هذا الأفق نجمٌ جديدٌ؛ هو إسماعيل صبري باشا، وكان شاعرًا مُقِلًّا، كالطائر الغَرِد، لا يشدوا إلا إذا أثار شجاه مَطلع القمر، أو حرَّك جَوَاه عبيرُ الزهر. وقد امتاز بظاهرتين: الإقلال، ورقة الكلام، حتَّىٰ لتحس أن شعره يسيل رقة ويفيض حنانًا، علىٰ أنَّه لم يكن علىٰ كل هذه الرقة وكل هذا الحنان، ضعيفَ النسج ولا سقيمَ العبارة، بل كان متينَ الرصف، منسجم القول.

نعم، لم يكن لصبري طول قصائد البارودي، ولا فحولة شعره ولا جزالة لفظه؛ وذلك لأنَّه لم يَخُضْ ما خاض البارودي من معامع، ولم يلقَ ما لقي من أهوال، ولا كان به أنْ يعرض لشيء من هذا؛ بل إنَّ كل ما به أن يتنفَّث ما يعتلج في صدره من نحو عاطفةِ حُبٍّ، وإعجابٍ، وحُرْقةِ جَوًىٰ، وطلبِ غُفران(١).

---

= وزُيِّنَ للنَّاس الفرار من الردىٰ ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأنَّنا ... سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتَّىٰ تجلَّت سماؤها ... وإني صبور إن أَلَمَّ بي الخَطْبُ

**وقال متغزلا:**

غلب الوجد عليه فبكىٰ ... وتولَّىٰ الصبر عنه فشكا
وتمنَّىٰ نظرة يشفي بها ... علَّة الشوق فكانت مَهْلَكا
يا لها من نظرة ما قاربت ... مهبط الحكمة حتَّىٰ انتُهكا
نظرة ضمَّ عليها هدبه ... ثم أغراها فكانت شَرَكا
غرست في القلب مني حبه ... وسقته أدمعي حتَّىٰ زكا

[م]. وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره أيضا. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٥٦، ٢٣٣) ط، عالم الأدب.

(١) **قال إسماعيل صبري باشا في الغزل:**

أَقْصِرْ فؤادي فما الذكرىٰ بنافعة ... ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا ... حمل الصبابة فأخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته ... من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحما ... في الوصل نارًا وفي الهجران نيرانا

ويلحق بهذين الشاعرين من غير نزاع حفني ناصف بك الذي تقدَّم عليه الكلام(١).

وإذا كان الشعر قد ظل في الجملة، ضعيفًا إلىٰ قيام البارودي، فإنَّه بنشر كتب الأدب ودواوين السابقين من الشعراء، وظهور شعر البارودي نفسه قد جعل يَقْوىٰ ويشتد في بُعْد أغراضه وسموِّ معانيه، وجزالة لفظه، ومتانة صياغته، وتلاحم نسجه. ولكنه لم يتأثَّر بالثقافة الغربية تأثُّرَ النَّثر، وظلَّ في جملته محافِظًا علىٰ نهج الأدب القديم.

---

**وقال في التصوف:**

**يا رب أين تُرَىٰ تقام جهنم ... للظالمين غدا وللفجار**
**لم يُبْقِ عفوك في السماوات العلا ... والأرض شبرا خاليا للنار**
**ومر الوجود يشف عنك لكي أرىٰ ... غضب اللطيف ورحمة الجبار**
**يا عالم الأسرار حسبي محنةً ... علمي بأنك عالم الأسرار**
**أخْلِقْ برحمتك التي تسع الورىٰ ... ألا تضيق بأعظم الأوزار**

[م]. وللاطلاع علىٰ نماذج من شعره أيضا. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٣٣، ٢٣٦) ط، عالم الأدب.

(١) **من قوله** رحمه الله:

**أتقضي معي إن حان حَيْني تجاربي ... وما نلتها إلا بطول عنائي**
**وأبذل جهدي في اكتساب معارف ... ويفنىٰ الذي حصَّلْته بفنائي**
**ويحزُنني ألا أرىٰ لىٰ حيلة ... لإعطائها من يستحق عطائي**
**إذا ورَّث الجهال أبناءهم غِنًىٰ ... وجاهًا فما أشقىٰ بني العلماء**

[م]. للاطلاع علىٰ نماذج من شعره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٣٥) ط، عالم الأدب.

## الخطابة وأنواعها

لم تكن في مصر في مستَهلِّ ذلك العصر (الحملة الفرنسية) والعصر الذي قبله خطابةٌ ولا خطباء، اللهم إلَّا خطبة الجمعة والعيدين يَسْلَخُها أئمَّة المساجد من مدوَّنات وُضعت فيها سَلْخًا، وقلَّ منهم مَن كان يضعها بنفسه. وأكثرهم كان يتلوها في الورق تلاوة. وأقلُّهم من كان يحفظها، وهي علىٰ كل حال خطب دينية تجمع بين حمد الله تعالىٰ وتسبيحه وتفرُّده بالألوهية، والشهادة برسالة خاتَم النبيين محمد ﷺ، والحضِّ علىٰ طلب نعيم الجنة والفرار من عذاب النار بطاعة الله تعالىٰ وتجنُّب ما نهىٰ عنه من المناكر والمآثم. فإن كان لهذه الخطب روعة، فمن الدين وحده، وخضوع النَّاس له وتشوِّقهم إلىٰ ثواب الله وخوفهم من عقابه، لا من قوة الكلام ولا من براعة الإلقاء.

والواقع أنه لم يكن هناك محلٌّ لغير هذا النوع من الخطابة؛ فإنَّ الألسن في ذلك الوقت كانت معقولة بسوء الحكم، والإسراف في القهر والظلم حتَّىٰ لم يكن يستطيع الصديق أن يناجي صديقه ولو في كِسْرِ داره فيما يتصل بالأسباب العامة إلا وهو خائف يترقب. هذا إلىٰ أنَّ الخطابة السياسية إنَّما تنضج وتؤتي كلَّ ثمارها في الثورات وما إليها من الرَّجَّات القومية والمذهبية. وذلك لأنَّ الغرض منها تحريكُ السواد، وهو لا يُطلب عادة إلا في مثل هذه الأحوال.

ولهذا لم تُعرف الخطابة السياسية في مصر من أدهار طويلة إلا في الثورة العرابية. وكان من حاملي لوائها السيد عبد الله نديم، والشيخ محمد عبده، وسعد زغلول باشا.

ولقد فتَرَتْ الخطابة وهان شأنُها بعد إذ أُخْمدت هذه الثورة في مصر، علىٰ أنَّ هذا الفتور لم يَطُل كثيرًا حتَّىٰ عاد شباب من المصريين يهتمون بموقفهم القومي، فكانوا يجتمعون في الأندية الشبيهة بالعامة، فالأندية العامة يخطب فيها بعضهم بعضًا بما يحضُر كلا منهم من عبارات تَنْضَح بمعاني الحرية، والوطنية.

وكان أخطب خطباء هذا العصر من غير نزاع مصطفي كامل باشا المتوفىٰ سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م)، طلاقة لسان، وتدفق بيان، وثبات جَنان، وجهارة صوت، وعذوبة نبرة، وجمال وقفة.

ثم فترت الخطابة بفتور الشعور الوطني إلىٰ أن عقدت الجمعية التشريعية فكانت مجالًا للخطباء حتَّىٰ إذا فارت فورة المصريين في مطلع سنة ١٩١٩م وثَبت الخطابة وثبة عظيمة، وقام الخطباء في كل مكان وعلىٰ رأسهم سعد زغلول باشا، وكان خطيبًا بأجمع معاني الكلمة، غير مدافَع عن مكان الصدارة في الخطابة ولا ومنازَع. ولقد ظل بعد ذلك يخطب الخطب السوابغ في البرلمان وفي غير البرلمان حتَّىٰ توفي سنة (١٩٢٧م).

## الخطابة القضائية والاجتماعية

هناك نوعان آخران من الخطابة غير الخطابة الدينية والسياسية اللتَيْن سبق الكلام عليهما وهما الخطابة القضائية والاجتماعية.

ونعني بالخطابة القضائية الخطابة في المحاكم من المحامين ورجال النيابة وهي كذلك مجال لإظهار البراعة، وتمتاز بأنَّها تعتمد علىٰ المنطق والقانون والبراهين العقلية، وقد كان لانتشار المحاكم الأهلية في مصر أثرٌ عظيم في رقيِّ هذا النوع من الخطابة. ومن أشهر من نبغ فيه من رجال القضاء؛ أحمد فتحي زغلول باشا، ومحمد توفيق سعودي بك، وعبد الخالق ثروت باشا، ومن رجال المحاماة؛ نقولا توما بك، والسيد أحمد الحسيني بك، وأحمد لطفي بك.

أما الخطب الاجتماعية فنعني بها الخطب التي تقال في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية قصدًا إلىٰ حلها وإصلاح فاسدها، ومن أشهر من شهروا بها؛ السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وأحمد فتحي زغلول باشا.

# النـثـر
# تطور النثر

إلىٰ مَقْدَم الحملة الفرنسية؛ كان أبلغَ هَمِّ النثر الفني -مهما كان الغرض الذي يُعقد له الكلام- مصروفًا إلىٰ تزيين العبارة بكل ما تهيَّأ للكاتب من المحسنات البديعية، ملتزمًا فيها السجعَ في كل حال. وبحسْبِه أن يتم له هذا القدر من الصناعة فلا يعنيه ما يجرُّه هذا التكلف من سُخف في المعاني، وضعف في نسج الألفاظ. والعلة في هذا؛ أنَّه في ذلك العهد كانت قد نضبت المادة العلمية التي تُفَتِّق العقل، وتفسح في المدارك، وتجلي علىٰ النفس صورة صحيحة لما يجري في الحياة. يضاف إلىٰ ذلك؛ أنَّ المادة الأدبية في ذلك العصر قد تسربت إليه من العصر الذي قبله مباشرة، فكان يهتم بالبديعيات وأصحاب البديعيات أيما اهتمام.

ولقد ظلت للسجع المنزلة الأولىٰ إلىٰ أواسط حكم إسماعيل، حتَّىٰ لقد كانت الأوامر الرسمية، والمنشورات الدورية يُلتزم فيها السجع بقدر ما يبلغه جهد الكتاب. فلمَّا بعثت معاجم اللغة وكتب الأدب القديمة بالطبع وباهتمام بعض المتأدبين بها ومراجعتهم لها، أخذ النثرُ يدخل في طور جديد. علىٰ أنَّ لهذا التطور عناصر أخرىٰ اجتمعت مع إحياء الأدب القديم. أهمُّها تأثر النثر بالأدب الغربي.

# تأثر النثر بالأدب الغربي

وإذا كان النثر قد تأثَّر إلىٰ حدٍّ بعيد بإحياء الأدب العربي القديم، فلقد تأثَّر كذلك بالأدب الغربي إلىٰ مدىً غير قصير. ولقد تعلم أنَّنا تلقَّيْنا حضارتنا القائمة عن أوروبا بمن جيء بهم إلينا من أساتذتها وبمن وفدوا إلىٰ بلادها من طلابنا.

نعم، لقد كانت العناية في هذا الباب مصروفة أولًا إلىٰ درس العلوم والفنون للقيام بالحاجات المادية لهذه البلاد الناشئة، فلمَّا أدركت مصرُ من هذا حظًّا يقوم بعضَ القيام بسدِّ هذه الحاجات، جعلت تتجه إلىٰ وسائل الحضارة من الجهة الأدبية أيضًا، فأقبل القليل في عهد إسماعيل ممَّن تعلموا لغات الغرب علىٰ دراسة آدابه في مختلف أنواعها، كما ترجم إلىٰ العربية كثير من كتبها في الأبواب المختلفة، فكان لهذا أثر في الأدب العربي عامَّة وفي النثر الفني خاصة.

علىٰ أنَّ الإقبال علىٰ درس الأدب الغربي جعل يشتد علىٰ الزمن، حتَّىٰ تجرَّد له عدد غير قليل من المصرين يطلبونه بباعث من أنفسهم، أو بتدريسه لهم في المعاهد المصرية، أو بإيفاد الحكومة لهم إلىٰ بلاد الغرب في طلبه. وكلَّما قويت هذه الحركة، ازداد تأثر النثر الفني بالأدب الغربي حتَّىٰ بلغ ما بلغ اليوم.

*** وكانت أكبر مظاهر هذا التأثر:**

(١) أن دخلت علىٰ العربية صيغ جديدة وتعبيرات لم تؤلف من قبل، وذلك إمَّا لإصابة المعاني الطريفة، وإمَّا بحكم تأثر الكاتب بالأسلوب الأجنبي، وخاصةً إذا لم يكن وافرَ المحصول من فقه العربية، مطبوع الملكة علىٰ أساليبها.

(٢) جعل المقام الأول للمعنىٰ لا للفظ.

(٣) الاقتصار منه علىٰ ما يؤدي المعنىٰ ويصيب الغرض المقسوم.

(٤) تناول الموضوعات والأشخاص بألوان من التحليل لم تكن معروفة من قبل.

(٥) تطوُّر طرق النقد الأدبي واتساع دائرته في ضبط ودقة وإحسان.

## أنواع النثر

## النثر الاجتماعي

وهو الذي يُطلب به تقرير حالة اجتماعية، أو محاولة إصلاح ناحية من نواحي الحياة العامة.

**ومن أعرف من عرفوا من كتابنا الاجتماعيين**: الشيخ محمد عبده[1]، وقاسم بك أمين المتوفىٰ سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)[2]، وأحمد فتحي زغلول باشا[3]، والدكتور يعقوب صروف المتوفىٰ سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧م)[4].

### * نثر الصحف:

أما نثر الصحف فأول شروطه تعمُّد السهولة في اللفظ وعدم التعمق في المعاني؛ لأنَّ الصحف إنَّما تخاطب الجماهير أولا، فإذا هي ارتفعت عن

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من نثر الشيخ. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٥، ٢٤٦) ط، عالم الأدب.

(٢) للاطلاع علىٰ نماذج من نثر قاسم بك أمين. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٦، ٢٥٠) ط، عالم الأدب.

(٣) للاطلاع علىٰ نموذج من نثر أحمد فتحي زغلول باشا. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٨) ط، عالم الأدب.

(٤) للاطلاع علىٰ نموذج من نثر الدكتور يعقوب صروف. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٥٥) ط، عالم الأدب.

أفهامهم، وجاءت بالغريب عنهم لم يتحقق الغرض المطلوب بها. وإنَّك لترىٰ أنَّ لغة المجلات العلمية والأدبية أجزل وأرصن من لغة الصحف غالبًا، كما أنَّ معانيها أعلىٰ ومنطقها أدق وأوفىٰ؛ وذلك لأنَّ تلك المجلات إنَّما تخرج للخاصة ومن يلونهم من المتعلمين، أما الصحف السياسية؛ فإنَّها تخرج للجمهور كله، فكان حقًّا عليها أن تخاطبهم علىٰ قدرهم. هذا إلىٰ أنَّ الصحفي الذي يُصدر الصحيفة كلَّ يومٍ مثلًا ليس لديه مُتَّسعٍ من الوقت لتزيين الكلام والتأنُّق فيه، وإذكاء الذهن في الغوص علىٰ فرائد المعاني، فهو في ذلك علىٰ العكس من الكاتب في المجلة الشهرية أو الأسبوعية.

وهذا النوع من النثر قد بدأ كذلك في ضعف اللغة ضعيفًا ركيكًا فما زال يتدرَّج في رُقيِّه برقيِّ الأدب العربي، حتَّىٰ بلغ هذا الموضع الذي تراه في صحف اليوم.

### * ومن أقدر مَن عرفوا من كتاب الصحف من أول نهوضها في عصر إسماعيل:

(١) أديب إسحاق المتوفىٰ سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٩٢م) وكان شاعرًا أديبًا تولَّىٰ الإنشاء الصحفي في جريدته (مصر) في عهد الخديوي إسماعيل، فكان له في الصحافة يومئذٍ شأنٌ مذكور؛ بتقدُّم أسلوبه، ولُطف استشهاده[١].

(٢-٣) سليم تقلا المتوفىٰ سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢م)[٢]، وبشاره تقلا باشا المتوفىٰ سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١م) وكان كلاهما مثلًا قويًا للإنشاء الصحفي في ذلك العصر بالتمهيد للأغراض بالمقدمات الفلسفية الطويلة والسخاء في الاستشهاد بما يحضر الكاتب من شعر العرب،

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٤١) ط، عالم الأدب.
(٢) للاطلاع علىٰ نماذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٢٤٢) ط، عالم الأدب.

والمأثور عن كبار الرجال في العالم. وكان كلاهما واضحَ العبارة، سهل الأداء.

(٤) مصطفىٰ كامل باشا، وقد تقدَّم لك أنه كان أخطب خطباء عصره، وقد نضحت مَلَكة الخطابة علىٰ قلمه، فكانت عبارته سهلة، وكانت تأخذ بألباب الجمهور بما فيها من نظم خطابيٍّ يرسله في شده وحماسة، حتَّىٰ سَنَّ في مصرَ أسلوبًا إنشائيًا مميَّزًا من سائر الأساليب[١].

(٥) الشيخ علي يوسف المتوفىٰ سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م)، وهو وإن لم يكن يعرف شيئًا من اللغات الأجنبية، ولا خرج من تعلمه ومطالعاته بقسط كبير من العلوم الحديثة، قد استغنىٰ بشدة نفسه وقوة ذكائه عن كثير. ولقد عاش طول حياته الصحفية رجل كفاح، وكان له من قوة البديهة وحضور الحجة وسطوة القلم ما عزَّ علىٰ كثير ممَّن عاصروه من صفوة الكاتبين، وله كذلك أسلوبٌ إنشائيٌّ يُعرف من بين سائر الأساليب[٢].

---

(١) للاطلاع علىٰ نماذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠٤، ٢٤٨) ط، عالم الأدب.

(٢) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠٧) ط، عالم الأدب.

# النثر الفني

النثر الفني، هو أقدم أنواع النثر؛ لأنَّ عهد العرب بالصحافة جديد، كما أنَّهم لم يعالجوا البحوث الاجتماعية إلا في العصور الأخيرة.

والنثر الفنىٰ يحتاج إلىٰ خلال: منها تحصيل قدر صالح من مفردات اللغة، واطلاع علىٰ بلاغات العرب والسابقين من أهل البيان في أشعارهم وخطبهم، ورسائلهم وكتبهم. ومنها سعة الخيال والتفطُّن إلىٰ ما ينطوي عليه الكلام من نوادر الأدب وأسرار البيان، ومنها أخذ النَّفْس بإدراك ما في العالَم من جمال. ولقد كان النثر الفني في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه ضعيفًا، كما كانت أغراضه مقصورة علىٰ كتب المودات، ورسائل التهنئات والتعزيات، وشيء من الوصف ونحو ذلك. وكان ممَّن أخذوا منه بحظ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي[١]، والشيخ حسن العطار[٢].

وظل هذا النوع من النثر كذلك حتَّىٰ كان عصرُ إسماعيل، فجعل يعلو وينسجم بما ذكرنا من أسباب. ثم أخذ يرقىٰ حتَّىٰ بلغ المنزلة التي نراها اليوم.

---

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٢٣) ط، عالم الأدب.

(٢) للاطلاع علىٰ نماذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٦٨٧، ٢٣٨) ط، عالم الأدب.

ومن أعرف من عُرفوا من النُّثَّار الأدبيين من عهد إسماعيل إلىٰ الآن (ممَّن قُبضوا إلىٰ رحمة الله): عبد الله باشا فكري[1]، والشيخ حسن المرصفي،

---

(١) **أمثلة من النثر في ذلك العصر:**

كتب عبد الله باشا فكري المتوفىٰ ١٣٠٧هـ وهو بالأستانة في يوم برد كثير الأمطار، كتبت إليك والأمطار ساجمة بطلها ووبلها وعساكر البرد هاجمة بخيلها ورجلها والسماء متلفعة أذيال السحاب وكأن الشمس خافت من الطل فتوارت بالحجاب والجو مسكي الرداء عنبري الأرجاء كأنَّه عليه وثوب الغيم مزرور قد وجل من صولة البرد فلبس فروة السمور والغمام علىٰ الأفق بكلا كله وقد هز من البرق بيض مناصله ونشر في الجو طرائف مطارفه وجاد علىٰ الأرض بتليده وطارفه وثقل كاهل الهواء كالطير بلّ جناحه بالماء وقرب حتَّىٰ كاد يمسك باليدين ويعتصر بالراحتين؛ والبرق كأنَّه مرآة مذهبة تبدو وتخفىٰ أو جذوة ملتهبة توقد وتطفا والرعد يهدد بزواجر زماجرة السحائب فيبكيها والطير يتلو سطور الندىٰ في طروس الثرىٰ فيمليها ويطرب بأفنان الألحان أفنان البان فيعليها ويثنيها ويقرأ علىٰ رءوس الأغصان أوراده الحسان فيقريها ويرقيها وقوس السماء يرمي بسهام وبله جنوب الشقائق فيصميها ويدميها والريح تمسح أخلاف الغمائم فتمريها وترضع بدرها بنات النبات في حجور أراضيها فتربيها وترصع بدرها تيجان القضبان لنجعله عقودًا في تراقيها أو دموعا في أماقيها، وكأن الحر خاف من بنادق البرد ومدافع الرعد ففر إلىٰ مصر ونواحيها وأصبح نزيل من فيها لكرم أهليها وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفًا أو غلط النَّاس في حساب الفصول فظنوا شتاها صيفًا.

**وكتب الشيخ محمد عبده في وصف نهج البلاغة:**

أوفىٰ لي حكم القدر بالاطلاع علىٰ كتاب نهج البلاغة صدفة بلا تعمُّل، أصبته علىٰ تغيُّر حال، وتبَلْبُلِ بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسليةً وحيلةً للتخلية، فتصفَّحت بعضَ صفحاته وتأمَّلت جُملًا من عباراته من مواضِعَ مختلفاتٍ ومواضيع متفرقات وكان يُخيَّل لي في كل مقام أنَّ حروبًا شبت وغارات شنَّت، وأنَّ للبلاغة دولةً وللفصاحة صولةً وأن للأوهام عرامةً.

فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر، ومَرَجُ الشكِّ في خُمود، وهَرَجُ الرَّيْب في ركود، وأنَّ مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب، بل كنت كلما انتقلت من موضع إلىٰ موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد، فتارة كنتُ أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حُلَلٍ من العبارات الزاهية تطوف علىٰ النُّفوس الزَّاكية وتدنو من القلوب الصافية.

**وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلىٰ سماحة السيد توفيق البكري:**

كتابي إلىٰ السيد السِّنْد ولا أجشمه الجواب عنه، فذلك ما لا أنتظره منه وإنَّما أسأله أن ينشط إلىٰ قراءته ويتنزَّل إلىٰ مطالعته، وله الرأي بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكِّيها ويحكم عليها أولها.

**فقد تنفع الذكرىٰ إذا كان هجرهم ... دلالًا فأمَّا إن ملالًا فلا نفعا** =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= زرت السيد -ويعلم الله- أنَّ شوقي إلىٰ لقائه كحرصي علىٰ بقائه، وكَلَفي بشهوده كشغفي بوجوده، فقد بَعُدَ -والله- عهد هذا التلاق، وطال أمد الفراق وتصرَّم الزمان، وأنا من رؤيته في حرمان، فسألت عنه فقيل لي: إنه خرج لتشييع زائر وهو عما قليل حاضر، فانتظرت رجوعه وترقبت طلوعه، ولم أزل أعد اللحظات وأستطيل الأوقات حتَّىٰ بزغت الأنوار وارتجَّ صحن الدار وظهر الاستبشار علىٰ وجوه الزوار، وجاء السيد في مركبه، وجلالةِ مَحْتده ومنصبه، فقمنا لاستقباله وهيمنا بكماله، فمرَّ يتعرَّف وجوهَ القوم حتَّىٰ حاذاني وكبُر علىٰ عينيه أن يراني، فغادرني ومن علىٰ يساري، وأخذ في السلام علىٰ جاري، وجرَّ السلامُ الكلامَ، وتكرر القعود والقيام، وأنا في هذه الحال أُوهِم جاري أنِّي في داري، وأُظهر للناس أنَّ شدة الأُلْفة تُسقط الكُلْفة، ومر السيد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرات، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات.

**تمرُّون الديار ولم تعوجوا ... كلامكم عليَّ إذن حرام**

وكنت أظن مكانتي عند السيد لا تُنكَر، وأنَّ عهدي لديه لا يخفر، فإذا أنا لست في العير ولا في النفير، وغيري عند السيد كثير، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير.

**ومن مدَّت العليا إليه يمينها ... فأكبر إنسان لديه صغير**

ولا أدعي أني أوازي السيد -صانه الله- في علوِّ حسبه، أو أدانيه في علمه وأدبه، أو أُقَاربه في مناصبه ورتبه، أو أكاثره في فضته وذهبه، وإنَّما أقول ينبغي للسيد أن يميز بين من يزوره للسلام وتأييد جامعة الإسلام، وأن يفرق بين مَن يتردَّد عليه استخلاصًا للخلاص، ومن يتردَّد إجابةً لدعوة الإخلاص، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد، وقُنَّاص الشوارد بنقباء الموالد، ورواد الطُّرَف بأرباب الحِرَف.

**فما كلُّ مَن لاقيتَ صاحبُ حاجةٍ ... ولا كلُّ من قابلتَ سائلُكَ العُرْفَا**

فإن حسن عند السيد أن يغضي عن بعض الأجناس فلا يحسن أن يغضي عن جميع النَّاس وإلا فلماذا يطوف علىٰ بعض الضيوف ويجيبهم بصنوف من المعروف.

**ولا أروم بحمد الله منزلة ... غيري أحقُّ بها منِّي إذا راما**

وإنَّما أصون نفسي عن المهانة والضعة، ولا أعرِّضها للضيق وفي الدنيا سعة

**وأكرم نفسي إنَّني إن أهنتها ... وحقُّكَ لم تكرم علىٰ أحدٍ بعدي**

فلا يُصعِّر السيد من خَدِّه، فقد رضيت بما ألزمني من بعده، ولا يغضُّ من عينه، فهذا فراق بيني وبينه، ولْيتخذني صاحبًا من بعيد ولا، يكلمني إلا يوم الوعيد.

**كلانا غنيٌّ عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشدُّ تَغَانِيَا**

ومني علىٰ السيد السلام علىٰ الدوام، ومبارك إذا لبس جديدا، وكل عام وهو بخير إذا استقبل عيدًا، ومرحىٰ إذا أصاب وشيعته السلامة إذا غاب، وقدوما مباركا إذا آب، وبالرفاء والبنين إذا أعْرَس، وبالطالع المسعود إذا أنجب، ورحمه الله إذا عطس، ونوم العافية إذا نعس، وصخ نومه إذا استيقظ، وهنيئًا إذا شرب، وما شاء الله إذا ركب، ونَعِم صباحه إذا انفجر الفجر، وسعد مساؤه =

والشيخ علي الليثي، والشيخ محمد عبده، وإبراهيم بك المويلحي[1]، وإبراهيم بك اللقاني، والشيخ إبراهيم اليازجي[2]، والشيخ أحمد مفتاح[3]، والشيخ عبد الكريم سلمان، وحفني بك ناصف[4]، والسيد مصطفىٰ لطفي المنفلوطي[5].

= إذا أذن العصر، وبخ بخٍ إذا نثر، ولا فُضَّ فوه إذا شعر، وأجاد وأفاد إذا حطب، وأطرب وأغرب إذا كتب، وإذا حج البيتَ فحجًّا مبرورًا، وإذا شيع جنازتي فسعيا مشكورًا، والسَّلام.

وكتب السيد مصطفىٰ لطفي المنفلوطي المتوفىٰ سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤) في السعادة:

أطلب السعادة في الحقول والغابات، والسهول والجبال، والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار، والبحيرات والأنهار، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة، والسحب مجتمعة ومتفرقة، والطير غادية ورائحة، والنجوم ثابتة وسارية، وأطلبها في تعهُّد حديقتك، وتخطيط جداولها، وغرس أغراسها، وتشذيب أشجارها، وتنسيق أزهارها، وفي وقوفك علىٰ ضفاف الأنهار، وصعودك إلىٰ قمم الجبال، وانحدراك إلىٰ بطون الأودية والوهاد، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوءه إلىٰ خرير المياه، وصفير الرياح وحفيف الأوراق، وصرير الجنادب ونقيق الضفادع، وأطلبها في مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب، والأخذ بيد البائس المنكوب، ففي كل منظر من هذه المناظر أو موقف من هذه المواقف، جمال شريف طاهر يستوقف النظر، ويستلهي الفكر، ويستغرق الشعور، ويحي ميت النفس والوجدان، ويملأ فضاء الحياة هناءً ورغدًا.

(١) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠١) ط، عالم الأدب.

(٢) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠٣) ط، عالم الأدب.

(٣) للاطلاع علىٰ نموذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧٠٧) ط، عالم الأدب.

(٤) للاطلاع علىٰ نماذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧١١، ٢٥٢) ط، عالم الأدب.

(٥) للاطلاع علىٰ نماذج من نثره. انظر: «المنتخب من أدب العرب» (٧١٥، ٢٥٣) ط، عالم الأدب.